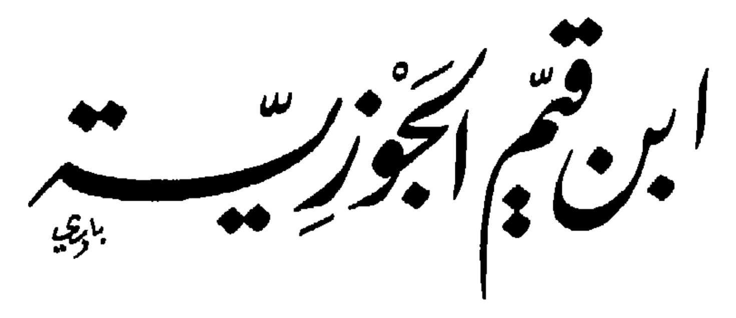
أعلام التربية في تاريخ الإسلام

٤



دراسة موضوعيّة تحليلية تربوية

تأليف

عبد الرحمن النحلاوي

أستاذ التربية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

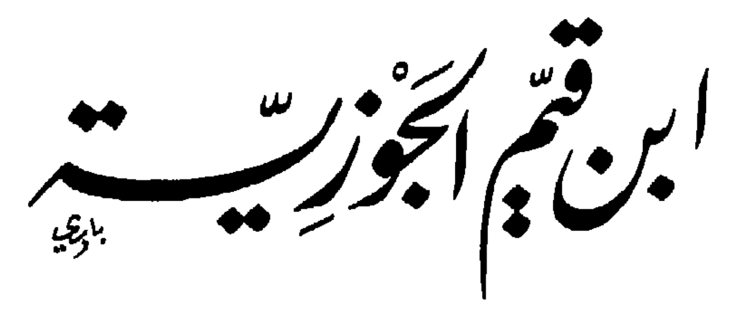
دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

بسم الله الرحمن الرحيم

ابن قيّم الجوزيّة

أعلام التربية في تاريخ الإسلام
٤



دراسة موضوعيّة تحليلية تربوية

تأليف
عبد الرحمن النحلاوي
أستاذ التربية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

الكتاب ٩٢٤
الطبعة الأولى ١٤١١ هـ = ١٩٩١ م

لبنان - بيروت - ساقية الجنزير ، خلف الكارلتون ، س . ت ٥١٤٩٧
ص . ب (١٣٦٠٦٤) هاتف (٨٦٠٧٣٩) تلكس . FIKR 44316 LE

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم وإهداء

الحمد لله الذي جعل لكل أمة شرعة ومنهاجاً ، وجعل أفئدة كل أمة تصغَى إلى ماعقدت عليه القلوب . وتفرح بما سارت عليه من نهج في التربية والتعليم ، والاقتصاد وسائر أمور الحياة ، موافقاً لعقائدها ولما تهوى . وتتعصب لذلك كله فلا ترضى إلا عمن يتبعها .

ولكن معظم شعوب الأمة الإسلامية أصبحت في هذا العصر حيرى ، تتلفت ذات اليمين وذات الشمال ، علّها تجد لتربية أجيالها المتنامية منهاجاً تتبعه ، أو رائداً يدلها على طريق الخلاص ، أو عادلاً ينصفها ممن ظلمها ...

مع أن الله قد حباها نظاماً تربوياً واقتصادياً واجتماعياً تناقلته الأجيال عملياً ، ونظرياً ، منذ أن بدأ رسول الله ﷺ يربي أصحابه وأبناءهم ونساء المسلمين عليه ، ومنحها العزة والمنعة ووعدها بالنصر إذا اتبعت رسله ونصرت شريعته .

ولما كان العلماء ورثة الأنبياء ، وهم روّاد الأمة في الأزمات ، يربون أجيالها ، مقتفين أثر النّبي العربي الذي اختاره الله لهذه الأمة .

فقد اخترت لهذه الحلقة أحد مشاهير العلماء ، والمصلحين والمربين وهو الذي طبقت شهرته الآفاق وغمرت مؤلفاته الأسواق ، وقد اختص بنهج تربوي يقوم على معالجة النفوس ، عن طريق التعريف بالداء والدواء ، وأسلوب المعالجة ، ومبادئ العلاج النفسي ، أو الوقاية من الأزمات والأمراض النفسية قبل وقوعها . واهتم بالطفولة والنمو ، وبجميع مراحل تطور الإنسان من قبل أن يولد ومن بعد مفارقته الحياة ، وفيما بينهما من أطوار ، كما اهتم بتربية الغرائز والعواطف وعلاج ما يعتريها من ثورات الهوى وعشق الشباب . وكان له في أبحاثه العلمية والإصلاحية أساليب تربوية متميزة ، ترتكز على مبادئ عقلية منطقية ، وعلى مبادئ منهجية تربوية ، حاولت استنباطها وإيضاحها وبيان آثارها التطبيقية في كثير من كتبه ومؤلفاته ، مع مقارنتها بما يقابلها في التربية المعاصرة ، لتقريبها إلى العقول المشبعة بهذه التربية ، ولبيان الفضل لذوي الفضل من السابقين .

فإلى عشّاق الحقيقة ، والباحثين عن الحق في كل مكان ، وإلى المربين والعاملين في حقول التربية في العالم العربي والإسلامي .

وإلى الغيورين على أمتهم العاملين على خلاصها من التأخر والتناحر .

وإلى محبّي الطفولة والأطفال ، الساهرين على حسن تربيتهم وتنشئتهم .

وإلى المهتمين بتربية الأجيال للنهوض بأمتهم ، أقدم هذا العلَم الرابع في هذه السلسلة ، شمس الدين ابن قيم الجوزية ،

لينهلوا من علمه الغزير ، وليأخذوا من منهجه الفكري والتربوي القويم ، ما ينير لهم سبل الحياة ، ويأخذ بأيديهم إلى الحق ، وبسلوكهم إلى النهج المستقيم ، وبمجتمعهم وأمتهم إلى الصلاح والفلاح والله ولي التوفيق .

الباب الأول

في ترجمة ابن القيم وعصره وعلمه واهتماماته التربوية

الفصل الأول : في ترجمته وبيئته .

١ ـ مولده ونشأته .

٢ ـ بيئته : أ ـ البيئة التاريخية .

ب ـ البيئة الحضارية العلمية .

الفصل الثاني : في شخصيته وإنتاجه ونضاله الفكري .

١ ـ شخصية ابن القيم .

٢ ـ إنتاجه العلمي .

٣ ـ نضاله الفكري والتهذيبي والتعبدي .

الفصل الثالث : الاهتمامات الفكرية والتربوية .

الفصل الأول

ترجمة ابن القيم وعصره

١ ـ مولده ونشأته

« هو محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي الدمشقي ، شمس الدين ، ابن قيم الجوزية الحنبلي »[☆] ، « من أركان الإصلاح الإسلامي وأحد كبار العلماء »[١] .

اشتهر بهذا اللقب لأن أباه كان قيّماً على مدرسة (الجوزية) بدمشق ، لذلك نعته ابن كثير بأنه « إمام الجوزية وابن قيمها »[٢] .

« ولد سنة (٦٩١ هـ) إحدى وتسعين وست مئة »[٣] في دمشق ، نشأ في كنف أبيه يرافقه في التردّد على المدرسة الجوزية ، ولا شك أنه بدأ تحصيله العلمي في أروقتها ، ونشأ يرتشف العلم من

(☆) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة لابن حجر العسقلاني ، ٤٠٠/٣ ـ ٤٠١

(١) الأعلام ـ خير الدين الزركلي ٥٦/٦

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٢٤٦/١٤ ، الناشر دار الكتب العلمية ـ بيروت .

(٣) الدرر الكامنة ٤٠٠/٣ (مرجع سابق) .

مناهلها هي وغيرها من المدارس الخاصة بأتباع المذهب ؛ فقد « كان للحنابلة مدارس خاصة بهم ، كالمدرسة الجوزية ، والسكرية ، والعمرية »[1] .

ودرس الحديث في مدارس يتولى مشيختها كبار علماء الحديث ، كالإمام الذهبي ، وكان للحديث مدارسه الخاصة به ، فكان ، في دمشق وحدها ، عدة مدارس منها : (مدرسة أمّ الصالح) وكان الشريشيّ شيخها ، فلما توفي سنة ٧١٨ خلفه الذهبي[2] ، والأرجح أن يكون ابن القيّم قد درس على عهد الشريشيّ ، كما درس الحديث على ابن تيمية ، وكان شيخ (دار الحديث السكرية)[3] ، وهي المدرسة الثانية التي كانت مخصصة للحديث في دمشق ، والثالثة (دار الحديث الظاهرية)[4] ، والرابعة (المدرسة النفيسية)[5] ، وكان أكبرها (دار الحديث الأشرفية)[6] .

---

(١) محمد أبو زهرة : ابن تيمية : حياته وعصره ، ط دار الفكر العربي ١٩٥٨ ، ص ٢٠ ـ ٢٦

(٢) البداية والنهاية ٨٨/١٤ (مرجع سابق) .

(٣) النعيمي ـ تنبيه الطالب وإرشاد الدارس إلى أحوال القرآن والحديث والمدارس ٧٧/١

(٤،٥) د . صلاح الدين المنجد : أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب ، ص ١١٤ ـ ١١٥

(٦) النعيمي ٩٤/١ (مرجع سابق) .

وسمع الحديث على مشايخه الموثوقين ، ومنهم « التقيّ سليمان ، وأبو بكر بن عبد الدائم ، والمطعم ، وابن الشيرازي ، وإسماعيل بن أم مكتوم ... والطبقة ... »[1] .

و « قرأ العربية على ابن أبي الفتح ، والمجد التونسيّ ، وقرأ الفقه الحنبلي على المجد الحرّاني ، وابن تيمية ، وأخذ الفرائض عن أبيه ، وقرأ في الأصول على الصفيّ الهندي وابن تيمية »[2] .

٢ ـ عصره وبيئته الحضارية والاجتماعية

تأثرت شخصية ابن القيّم منذ ولادته ونشأته بما أحاط به من أحداث تاريخية ، كما تأثرت بالبيئة الحضارية والعلمية التي غمرته وغمرت البلاد والعباد . وسنعرض فيما يلي كلاً على حدة :

أ ـ الأحداث التاريخية :

ولد ابن القيّم في مطلع العقد الأخير من القرن السابع الهجري ، حين كان سلطان المسلمين في مصر ، وأمراؤهم في ديار الشام يطهرون البلاد من فلول الفرنجة وبقايا الحروب الصليبية . فقد صادف « فتح عكا في سنة تسعين وست مئة »[3] قبل مولده بسنة « حيث جاء

(٢،١) الدرر الكامنة ، ص ٤٠٠ ـ ٤٠١ ، (مرجع سابق) .

(٣) البداية والنهاية ٣٣٩/١٢ ـ ٣٤٠ ، (مرجع سابق) .

البريد ـ من القاهرة ـ إلى دمشق لتجهيز آلات الحصار لعكا ، ونودي في دمشق : الغزاة في سبيل الله إلى عكا . وخرج العامة والمتطوّعة ، يجرّون في العجل ، حتى الفقهاء والمدرسين والصلحاء ... وركب السلطان الأشرف من الديار المصرية بعساكره قاصداً عكا ، فتوافت الجيوش هناك ... ونصبت عليها المجانيق من كل ناحية ، واجتهدوا غاية الاجتهاد في محاربتها والتضييق على أهلها ، ثم زُحف يوم الجمعة ودقت الكوسات عند طلوع الشمس ... ونصبت السناجق الإسلامية فولت الفرنج هاربين في مراكب التجار ... »[1] ، كذلك استعاد المسلمون مدينة صور بعد بقائها في يد الفرنجة مئة واثنتين وسبعين سنة ، فبعد سقوط عكا « أرسل السلطان إلى صور فهدم أسوارها وعفا آثارها وقد كان لها في يد الفرنج من سنة ثمان عشرة وخمس مئة »[2] ، « وأرسل السلطان الأشرف أمير الشام ونائب السلطنة فيها إلى صيدا ، لأنه كان قد مد بها برج عصيّ ، ففتحه ، ... وبعثه إلى بيروت ليفتحها ... ففتحها في أقرب وقت ، وسلّمت عثيلة وانطرطوس وجبيل ، ولم يبق بالسواحل معقل للفرنج إلاّ بأيدي المسلمين »[3] .

في هذا الجو التاريخي ولد ابن القيّم لكنه نشأ في جو من الذعر

---

(١) البداية والنهاية ١٣/٣٣٩ ـ ٣٤٠ ، (مرجع سابق) .

(٢،٣) المرجع السابق ١٣/٣٤٠

والرعب ، عاشته دمشق في حروب باردة وحقيقية مع التتار ، عندما بلغ من العمر ثماني سنوات .

« ففي سنة ٦٩٩ هـ ، عندما صار جند التتار على أبواب دمشق ، وكانوا قد هزموا عساكر الناصر بن قلاوون ، الذين اجتازوا دمشق فارين إلى مصر ، فبات أهل دمشق في ذعر ، وفرّ أعيانها ، حتى صار البلد شاغراً من الحكام ... فجمع ابن تيمية من بقي من أعيان البلد ، واتفق معهم على ضبط الأمور ، وذهب على رأس وفد منهم ، والتقى بقازان ملك التتار ، وفاوضه على عدم دخول دمشق ، فاستجاب إلى حين ...

وصار ابن تيمية رجل دمشق وحاكمها ، فدرب أهلها على القتال ، وجمع صفوفهم وخرج لقتال سكان الجبل ، وكانوا قد مالؤوا التتار واتصلوا بهم ليبطشوا بالمسلمين ... فجاءه رؤساؤهم مسترشدين ، فوعظهم ، واستتابهم ، والتزموا بردّ ما كانوا قد أخذوا من مال الجيش ، وقرّر عليهم أموالاً كثيرة يحملونها إلى بيت المال ، وأُقطعت أراضيهم وضياعهم ، ولم يكونوا قبل ذلك يدخلون في طاعة الجند »[1] .

« وفي الثاني من صفر سنة (٧٠٠ هـ) ، عندما همّ التتار بدخول دمشق ، وهمّ سكانها بالفرار ، جمع ابن تيمية الجموع ، وحضهم على

---

(١) البداية والنهاية ١٩/١٤ ، (مرجع سابق) .

القتـال ، ونهى عن الفرار .. وسـافر إلى السلطـان النـاصر بمصر ، يستحثّه على الـدفـاع عن الشـام ... وقوّى ابن تيميـة عزيمـة الأمراء ، ومـا زال بهم ... حتى خرج السلطـان بجنـده إلى الشـام ، وسبقهم ابن تيمية إلى دمشق ، التي استولى الذعر على أهلها وناداهم والي المدينـة بالخروج للفرار ، فأوقفهم ابن تيميـة ، ونظّم صفوفهم ، وطمأن نفوسهم بنصر الله .

ولكن التتار أجّلوا هجومهم على دمشق ، لما سمعوا وعلموا بتنظيم الجيوش الإسلامية ، حتى جـاؤوا بجموعهم سنـة ٧٠٢ هـ وعـاد الخوف إلى القلـوب .. وأرجف المرجفـون ، فـوقف ابن تيميـة يشجّـع النـاس ويدربهم ويجمع صفوفهم حتى ابتـدأت (موقعـة شقحب) في رمضـان سنة ٧٠٢ هـ ... وتقدم الجند بنفسـه تحت لواء السلطـان ، مع جيوش دمشق ومصر ، وقـاتلوا قتـالاً عظيـاً حتى نصرهم الله عصر اليوم الرابع من رمضان »[1] في (مرج الصفر) حيث قال الشاعر :

يا وقعة المرج، مرج الصفّر افتخرت　　　بـكِ الوقـائـع في الآفـاق والعُصُر

وقـد أثّر هـذا الجو التـاريخي في نفس ابن القيم منـذ نشـأتـه أثراً بليغـاً ، تجلّى في شخصيتـه ومؤلفـاتـه وسلـوكـه وأخـلاقـه على مـدى

---

(١) المرجع السابق ١٩/١٤ ـ ٢١ نقله عنه محمد أبو زهرة : ابن تيميـة : حيـاتـه وعصره ص ٤١ ـ ٤٢ مرجع سابق .

الحياة ، إذ ترك عنده انطباعين هامين :

الأول : لجوؤه إلى الله ، ويقينه بنصر الله وبوجوب جمع كلمة المسلمين على القرآن والسنة ، ليظفروا دائماً بتأييد الله ونصره ...

الانطباع الثاني : إعجابه بابن تيمية إعجاباً لازمه سائر حياته حتى أصبح وفياً له ، موافقاً لآرائه ، متبعاً لكل ما يقول به ، ملازماً له ، ينصره ويعينه على ما رزئ به من المصائب والبلوى ، ورافقه في سجنه حتى وفاته ، كما سنرى .

أما الجوانب الأخرى العلمية ، لشخصية ابن القيم ، فقد تأثرت أيضاً بالبيئة الحضارية العلمية وسنوضحها في الفقرة التالية :

ب ـ البيئة الحضارية العلمية :

ازدهرت المؤسسات العلمية وازدادت زيادة ملحوظة في ظل سلاطين المماليك وولاتهم ؛ فقد وجد هؤلاء الحكام أنه لا بدّ من الاستعانة بالعلماء لدعم حكمهم ، والتفاف الشعب حولهم ، وإضفاء صفة الشرعية على كيانهم وتصرفاتهم ، وتنظيم صلتهم بالشعب على أساس أحكام الشريعة الإسلامية ، واستمالة قلوب الرعية على أساس العقيدة الإسلامية .

لذلك كثرت المدارس وتنوعت في كل عاصمة من عواصم

الولايات ، في طول البلاد وعرضها ، وأقيمت على نظام شعبي لا مركزي ، روعيت فيه شروط الواقفين وأنظمة الأوقاف ، كما أقيمت على نظام التخصص ، فهناك مدارس خصصت للفقه ، بل لفقه مذهب معين ، ومدارس لتدريس الحديث ، وأخرى للتفسير ، وللّغة أو النحو .. دواليك .

وكان « أعيان كل بلدة أو ولاية ، وأغنياؤها ، هم الذين يؤسسون المدارس ، ويحدّدون العلوم التي يرغبون أن تدرّس ، ويرصدون لها أوقافاً من أموالهم ويُكتَب (صك الوقف) لكل مدرسة ، يحدد فيه الواقف شروطه : كعدد طلاب المدرسة ، والعلم الذي يراد أن تخصص له ونحو ذلك ... »[☆] .

وتقوم الدولة بالإشراف على هذه المدارس ، لمراقبة تنفيذ وصية الموصي ، أو وقف الواقف ، عن طريق (كبير القضاة) ، كما قال الإمام السبكي : « ومما يتعيّن على القاضي : تفهيم الملِكِ الحكمَ الشرعي فيما ينهى إليه من الوقائع ... وأن ينظر في أمر الأوقاف والمستحقين من المشتغلين والمحتاجين وغيرهم ، وهذا يخصّ قاضي الشافعية في بلادنا ، البلاد الشامية ، لأنه كبير القضاة ... »[1] .

(☆) انظر : عبد الرحمن النحلاوي : الإصلاح التربوي من خلال الاتجاهات التربوية عند التاج السبكي ص ١٠١ ـ ١٠٢ ، المكتب الإسلامي ، بيروت .

(١) عبد الوهاب تاج الدين السبكيّ : معيد النعم ومبيد النقم ، ص ٥٦ ، تحقيق =

وكقوله فيما يدل على بناء المدارس على التخصص ، ووجوب التقيد بذلك : « وعندي أن الذمّة لاتبرأ في المدرسة الموقوفة على الفقهاء إلاّ بإلقاء الفقه وكذلك نقول في مدرسة التفسير ، إذا أُلقي فيها غير التفسير ، ومدرسة النحو إذا أُلقَى مدرّسها غير نحو . والأحوط في هذا كله الإلقاء من الفن الذي بُنيت له المدرسة »[1] .

وقد يشترط الواقف قراءة علوم أخرى تعين على التخصّص كما يدل عليه قول السبكي : « فإن شرط فيه فنوناً ، كما في مدارس كثيرة في ديار مصر وفي بلاد الشام وغيرها ، يقفها الواقف على طائفة مذهب معين ويَشترط في المدرّس أن يعرف ، مثلاً ، من العلوم كذا وكذا ، كالتفسير والحديث ، وغيرهما ، وما هذا شأنه : رأيي فيه أن ينوّع المدرس ، فيذكر من تلك العلوم التي اشتُرِط فيه معرفتها ، فإنه لولا إرادة ذكرها لما اشترطت فيه »[2] .

وقد بلغت هذه المدارس من الرقي مبلغاً ، صُنِّف معه طلابها ورُتّبوا على درجات أدناها (فقهاء المدارس)[3] وهم الطلاب العاديون

= محمد علي النجار ، أبو زيد شلبي ، محمد أبو العيون ، ط . دار الكتاب العربي بمصر ، ويعتبر عصر السبكي (٧٢٧ ـ ٧٧١ هـ) امتداداً واستمراراً لعصر ابن القيم بل ربما عاصره في أواخر حياته .

(١،٢) المرجع السابق ص ١٠٧

(٣) المرجع السابق ص ١٠٨

المبتـدئـون ، وفـوقهم درجـة (المنتهي من الفقهـاء) : « وعليهم من البحث والمناظرة فوق ماعلى من دونهم »[1] .

وتعلـوهم درجـة (المفيـد) « وعليـه أن يعتمـد مـايحصـل بـه في الدرس فـائـدة من بحث زائـد على بحث الجمـاعـة »[2] وأعلاهـا درجـة (المعيد) وهو الذي يعيد ماقرره شيخ المـدرسـة « وعليـه تفهيم بعض الطلبة ونفعهم وعمل ما يقتضيه لفظ الإعادة »[3] .

أما الوظائف الإدارية في هذه المدارس فأعلاهـا وظيفـة القيم على المـدرسـة : وهو القـائم على تنظيم جميع شـؤونهـا ، والمشرف على صرف مرتبات طلابها وشيخهـا وسـائر الموظفين ، ويشرف كـذلـك على سير الـدروس ، وتحقيق الأهـداف التي وُقفت من أجلهـا المـدرسـة ... ، ثم (النقيب) ، ويختـار من الطـلاب ، مهمتـه تنظيمهم وتنبيههم للسماع وإيقاظ نائمهم ، كما ذكر ابن جماعة الكناني[4] .

ثم (كاتب الغيبة على الفقهاء)[5] وهو الذي ينظم جدول الغياب والحضور ، ثم (كاتب غيبـة السـامعين) وهو كسـابقـه إلا أنـه خـاص بمدارس الحديث .

(١،٢،٣) المرجع السـابق ص ١٠٨ ـ ١٠٩

(٤) ابن جماعة : تذكرة السـامع والمتكلم ، في آداب العـالم والمتعلم ، ص ٤١ ، ط . دار الكتب العلمية ، بيروت .

(٥) معيد النعم ، ص ١١١ (مرجع سابق) .

وهناك وظائف (فنية - إدارية) لبعضها صفة علمية ، مثل (شيخ الرواية)[1] « وعليه أن يسمع المحدّثين ، ويستمع لما يقرؤونه عليه لفظة لفظة .. »[2] ووظائف ملحقة بالمدرسة كوظيفة (خازن الكتب) ومهمته صيانتها والاحتفاظ بها وإعارتها للمحتاجين إليها ، وألا يخرج الكتاب إلا برهن إذا اشترط الواقف ذلك[3] .

في هذا الجو من الرخاء العلمي شبَّ عالمنا شمس الدين ابن القيم ، حتى بلغ أشده في عاصمة بلاد الشام ، « وكانت آنذاك عش العلماء ، وفيها معدن العلم ، فقد فرّ إليها العلماء من بطش التتار من أقطار المشرق الإسلامي »[☆] وانتشرت فيها المدارس وتنوعت وكانت أشبه ماتكون (بالجامعات)[4] في عصرنا ، لأنها كانت قائمة على التخصص ، كما رأينا . وقد استوفت كل ماكانت بحاجة إليه من الموظفين والإداريين والخدمات ، وتولى رئاستها والتدريس فيها علماء فحول ، رشحهم لها جمهور علماء الأمة وقضاتها ، لينوبوا عن الشعب

(١،٢) معيد النعم ، ص ١١١ (مرجع سابق) .

(٣) المرجع السابق ، ص ١١١

(☆) انظر الحلقة (١) من أعلام التربية في تاريخ الإسلام للمؤلف ، ص ١٣ ، ط . دار الفكر بدمشق .

(٤) انظر الحلقة (٣) من أعلام التربية في تاريخ الإسلام للمؤلف ، ص ٢١ - ٢٣ ، ط . دار الفكر دمشق .

في تخريج الباحثين والعلماء والمصلحين[1] .

وكان والده قيّماً على إحدى هذه المدارس ، فكان يقضي معظم وقته فيها ، وعُيِّن إماماً لها ، يؤم المصلين في مسجدها ، وينصحهم ويوجههم ويرشدهم ... وكان يرتاد مدارس أخرى ، يدرس على علمائها مختلف العلوم والتخصصات ليستكمل نضجه العلمي ، من جميع العلوم ، كاللغة والحديث والتفسير ، وكدراسة المذاهب الفقهية ، وليتلقى كل علم عن أربابه والمختصّين فيه ، كما رأينا في أول ترجمته . وعلى هذا النحو تكاملت (شخصيته العلمية) وفي هذا الجو الروحي والعلمي نبتت (أخلاقه) وتنامت (شمائله) حتى طبقت شهرته الآفاق ، وغمرت مؤلفاته الأسواق ، وحاول أن يسمو بروحه إلى السبع الطباق ، إذ روّض نفسه وهذب جوارحه بالتضرع إلى ربه بالليل والنهار .

---

(١) المرجع السابق ص ٢١ ـ ٢٢

الفصل الثاني

شخصية ابن القيم وعلمه ونضاله الفكري

١ ـ شخصية ابن القيم

وصف ابنَ القيم عـددٌ من كبـار العلمـاء الـذين عـاصروه ورافقوه ولازموه كابن كثير ، وابن رجب وغيرهما ، ونقـل ذلـك عنهم علماء محققون ، كابن حجر العسقـلاني وابن العماد الحنبلي وغيرهما ... فقـد « كان جريء الجنان ، واسع العلم ، عارفاً بالخلاف ومـذاهب السلف ، غلب عليه حب ابن تيميـة حتى كان لا يخرج عن شيء من أقوالـه ، بل ينتصر لـه في جميع ذلـك ، وهو الـذي هـذب كتبـه ونشر علمـه »[١] ، « وأخـذ منـه علماً كثيراً .. حتى صـار أحـد أفراد زمـانـه ، وتصـدّى للإقراء والإفتاء سنين »[٢] ، « ودرّس بالصدريّة ، وأَمّ بالجوزية »[٣] ، « وانتفع به الناس قاطبة »[٤] .

---

(١) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة لابن حجر العسقلاني ٣/٤٠٠ ـ ٤٠١

(٢،٣) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقـاهرة ، ليـوسف بن تغري بردي ١٠/٢٤٩ وقـال في آخر ترجمته : « وقد استوعبنا أحواله ومصنفاته في المنهل الصافي » .

(٤) الدرر الكامنة ، ص ٤٠٠ ـ ٤٠١ (مرجع سابق) .

أخلاقه وعبادته : قال ابن كثير : « وكان ابن القيم كثير الصلاة والتلاوة ، حسن الخلق ، كثير التودّد ، لا يحسد أحداً ولا يستغيبه ولا يحقد على أحد وكان يطيل الصلاة جداً ، ويمدّ ركوعها وسجودها ... وكان إذا صلى الصبح جلس مكانه يذكر الله حتى يتعالى النهار . ويقول : (هذه غدوتي ، لو لم أقعدها سقطت قواي) »[1] ثم قال ابن كثير : « وكنت من أصحب الناس له وأحب الناس إليه ، ولا أعرف في زماننا أكثر عبادة منه »[☆] .

وهذا مما يدل على أنه كان يستعين على التأليف والبحث العلمي بالصبر والصلاة ويدل على ذلك قوله : « بالصبر والفقر تنال الإمامة في الدين »[2] كما كان يستعين على تهذيب نفسه بالتصوّف والهمة في عبادة الله وبالعلم أيضاً كما قال : « لا بد للسالك من همة تسيّره وترقّيه ، وعلم يبصره ويهديه »[3] ووصف ابن رجب عبادته وتَألُّهَه فقال : « كان ـ رحمه الله ـ ذا عبادة وتهجد ، وطول صلاة وتَألُّه ؛ ولَهَج بالذكر ، وشغف بالمحبة والإنابة والافتقار إلى الله تعالى ، والانكسار له ، والاطّراح بين يديه على عتبة عبوديته ، لم أشاهد مثله في ذلك »[4] .

(١،٢،٣) شذرات الذهب في أخبار من ذهب لعبد الحي بن العماد الحنبلي ١٦٨/٥ نقلاً عن ابن كثير .

(☆) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٤٦/١٤ (مرجع سابق) .

(٤) شذرات الذهب ١٦٨/٥ (مرجع سابق) .

٢ ـ علمه ومؤلفاته :

تـأثر ابن القيم في نهجـه الفكري وتـأليفـه بـابن تيميـة ـ كما رأينـا كيف تأثرت شخصيته أيضاً به ـ فكان موسوعياً ، لا يترك علماً نـافعـاً من علوم عصره إلا بحث وألف وتوسع فيـه ، حتى ليحسب قـارئـه أنـه من أهل الاختصاص في ذلك العلم ، شهد له بذلك أقرانه وعلماء عصره ومن نقل عنهم .

« قال القاضي برهـان الـدين الزرعي : مـا تحت أديم السماء أوسع علماً منه . وكتب بخطه ما لا يوصف كثرةً . وصنف تصانيف كثيرة في أنواع العلوم ، وكان شديد المحبـة للعلم وكتـابتـه ومطـالعتـه وتصنيفـه واقتناء كتبه »[1] .

« وكان عارفاً بالتفسير لا يجارَى فيه ؛ وبأصول الدين وإليه فيـه المنتهى ، وبالحديث ومعانيه وفقهه ودقائق الاستنبـاط منـه . وتفقـه في الفقه الحنبلي وبرع وأفتى ، وبـالعربيـة ، ولـه فيهـا اليـد الطولى ، وبعلم الكلام وغير ذلـك ... وعـالمـاً بعلم السلوك وكلام أهل التصـوّف وإشاراتهم ، وبمتونه وبعض رجاله »[2] .

« وكان ابن القيم مغرىً بجمع الكتب ، فحصّل منها مـا لا يحصر ، حتى كان أولاده يبيعـون منهـا بعـد مـوتـه دهراً طـويـلاً ، .. وكل

(١،٢) المرجع السابق ١٦٨/٥ ـ ١٦٩

تصانيفه مرغوب فيها بين الطوائف ، وهو طويل النفس فيها ، يتعانى الإيضاح جهده فيسهب جداً .. »[1] .

ومن تصانيفه[2] :

١ ـ تهذيب سنن أبي داود وإيضاح مشكلاته (مجلد) .

٢ ـ سفر الهجرتين وباب السعادتين (مجلد ضخم) .

٣ ـ مراحل السائرين بين منازل ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ (مجلدان) .

٤ ـ عقد محكم الاحقاء ، بين الكلم الطيب والعمل الصالح المرفوع إلى رب السماء .

٥ ـ شرح أسماء الكتاب العزيز (مجلدان) .

٦ ـ زاد المسافرين إلى منازل السعداء ، في هدي خاتم الأنبياء .

٧ ـ زاد المعاد في هدي خير العباد (أربع مجلدات) .

٨ ـ حل الأفهام في ذكر الصلاة والسلام على خير الأنام ، وبيان أحاديثها وعللها .

٩ ـ بيان الدليل على استغناء المسابقة عن التحليل .

١٠ ـ نقد المنقول ، والمحك المميز بين المردود والمقبول (مجلد) .

---

(١) الدرر الكامنة ٤٠٢/٣ (مرجع سابق) .

(٢) شذرات الذهب ١٦٩/٥ (مرجع سابق) .

١١ ـ إعلام الموقعين عن رب العالمين (٣ مجلدات) .
١٢ ـ بدائع الفوائد (مجلدان) .
١٣ ـ الشافية الكافية في الانتصار للفرقة الناجية .
١٤ ـ الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة .
١٥ ـ حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (في صفة أهل الجنة) (مجلدان) .
١٦ ـ روضة المحبين ونزهة المشتاقين .
١٧ ـ مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (مجلد ضخم) .
١٨ ـ الداء والدواء /أو/ الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي .
١٩ ـ اجتماع الجيوش الإسلامية ، على غزو الفرقة الجهمية .
٢٠ ـ تحفة المودود في أحكام المولود .
٢١ ـ إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان .
٢٢ ـ فضل العلم (مجلد) .
٢٣ ـ عدة الصابرين (مجلد) .
٢٤ ـ نور المؤمن وحياته (مجلد) .
٢٥ ـ حكم إغمام هلال شهر رمضان .
٢٦ ـ التحرير فيما يحل ويحرم من لبس الحرير .
٢٧ ـ الروح (مجلد) .
٢٨ ـ الكبائر (مجلد) .

٢٩ـ حكم تارك الصلاة .
٣٠ـ الخلة والمحبة .
٣١ـ بطلان الكيمياء من أربعين وجهاً .
٣٢ـ جواب عابدي الصلبان .
٣٣ـ الكلام الطيب والعمل الصالح .
٣٤ـ الفتح القدسيّ والتحفة المكية .
٣٥ـ أمثال القرآن .
٣٦ـ شرح الأسماء الحسنى .
٣٧ـ أيمان القرآن .
٣٨ـ المسائل الطرابلسية .
٣٩ـ الصراط المستقيم في أحكام أهل الجحيم
٤٠ـ الطاعون (مجلد لطيف) .

٣ ـ كفاحه الفكري والتعبدي

بدأ ابن القيم ينافح عن السنّة والتوحيد واتّباع مذهب السلف ، منذ أن لزم شيخه تقي الدين ابن تيمية لدى عودته من مصر سنة ٧١٢ هـ وكان عمره آنذاك إحدى وعشرين سنة ، ولكي نستوعب بوضوح ، كفاح ابن القيم الفكري يحسن بنا أن نعود أدراجنا إلى معرفة الجو الفكري السائد الذي عاشه ، قبله ، شيخه ابن تيمية ،

وجاهد في سبيل إصلاح كثير من الأخطاء والاتجاهات الاعتقادية والفقهية فيه ، ولمعرفة اتجاه ابن تيمية الذي دافع عنه ابن القيم مع شيخه وبعد وفاته ، والذي اعتنقه ووجد فيه الحق والصواب . فقد « كان ابن تيمية ينهج النهج الذي يعود بالإسلام إلى عهد الصحابة في عقائده وفروعه . وإذا استيقن أن ما يقول هو ما كان عليه الصحابة دافع عنه بالحجة والبرهان ، وبكل ما يواتيه عقله ودراساته من أدلة عقلية ونقلية .

ولكنّ ما كان في عصره من شيوع الشعوذة في الصوفية ، وتأويلاتهم الكثيرة ، والتقليد المطلق للمذاهب السائدة في العقائد وفهمها ، وفي الأحكام والتخريج عليها ، لا يمكن معه أن يكون من يدعو إلى التحرر من كل تقليد إلاّ كتاب الله وسنة رسوله وما كان عليه السلف الصالح لا يمكن أن يكون مقبول القول مسلم التفكير ، بل لا بد من منازلات وخصومات »[1] .

« .. وكان الحكام الأيوبيون ينشرون مذهب أبي الحسن الأشعري على أنه هو السنة التي يجب اتباعها في العقيدة فعمَّ حتى لم يكن شيء يخالفه ، إلاّ ما كان عليه الحنابلة ، يقفون في استخراج العقائد عند

---

(١) ملخصاً عن محمد أبو زهرة : ابن تيمية : حياته وعصره ، ص ٢٨ ـ ٣٥ (مرجع سابق) .

النصوص على حين كان الأشاعرة يسلكون مسلك الاستدلال العقلي والبرهان المنطقي ، فكان الخلاف قائماً بين اتباع المذهبين »[1] .

لهذا كله « امتُحِن ابن القيم وأوذي مرات . وحبس مع شيخه تقي الدين ، في المرة الأخيرة بالقلعة ، منفرداً عنه ، وأهين وعذب بسببه ، وطيف به على جمل مضروباً بالعُصِي .. ولم يفرج عنه إلا بعد موت الشيخ (سنة ٧٢٨ هـ) وكان في مدة حبسه مشتغلاً بتلاوة القرآن ، وبالتدبر والتفكر ، ففُتِح عليه من ذلك خير كثير ، وحصل له جانب عظيم من الأذواق والمواجيد الصحيحة ... وتصانيفه ممتلئة بذلك .

وحجّ مرات كثيرة ، وجاور بمكة ، وكان أهل مكة يذكرون عنه من شدة العبادة وكثرة الطواف أمراً يُتعجب منه »[2] .

و « قال الذهبي : حُبس ابن القيم مرة لإنكاره شد الرحل لزيارة قبر الخليل .. وقال ابن كثير : وكان ملازماً للاشتغال بالعلم ليلاً ونهاراً .. إلى أن قال : كان يُقصد للإفتاء بمسألة الطلاق ، حتى جرت بسببها أمور يطول بسطها مع ابن السبكي وغيره .. »[3] ثم عكف على

---

(١) ملخصاً عن المرجع السابق ٢٠ ـ ٢٦

(٢) شذرات الذهب ١٦٨/٥ ـ ١٦٩ (مرجع سابق) .

(٣) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ٤٠١/٣ (مرجع سابق) .

التـأليف والمحـاضرة ونشر العلم حتى تـوفي ابن القيم في وقت العشـاء ، ثـالث عشر رجب سنـة ٧٥١ هـ ، وصُلّي عليـه من الغـداة في الجـامع الأموي ، وكانت جنازته حافلة جداً[١] ...

---

(١) شذرات الذهب ١٦٩/٥ (مرجع سابق) .

الفصل الثالث

الاهتمامات الفكرية والتربوية

عرض سريع لأهم الاهتمامات التربوية عند ابن القيم

تمهيد :

يمتاز ابن القيم عمن سبقت لنا دراستهم في هذه السلسلة ، بأنه عمد إلى البحث في أمور تربوية استحوذ أكثرها على اهتمام الباحثين في التربية ، من قبله ومن بعده ، فكانت وما تزال محور الأبحاث التربوية ، وتميّز باهتمامات تربوية إسلامية ، بدت آثارها في مؤلفاته وسنشير هنا إلى أهم تلك الأمور وهذه الاهتمامات .

١ ـ **الطفولة والنمو وتطور حياة الطفل** ، والتعامل مع الأطفال في مختلف أطوارهم ، حتى أن ابن القيم اهتم بمشكلة الإنجاب وطلب الأولاد ، وبتطور الجنين في بطن أمه ، ثم بولادته وما يطرأ عليه في انتقاله من عالم إلى عالم ، ثم برضاعه وحضانته ، ثم انتقاله إلى مرحلة التمييز ، ثم إلى مرحلة التأدّب والتعلم ، ثم إلى مرحلة المراهقة ،

فالبلوغ ، فسن الرشد ، مبيناً بعض ميزات كل مرحلة وما تحتاجه من عناية تربوية تتناسب معها .

٢ ـ الاهتمام بجميع مراحل الحياة :

فابن القيم لم يترك الإنسان عند عتبة الرشد ، كما يفعل علماء التربية المعاصرة ، بل رافقه بالعناية والبحث إلى سن الكهولة فالشيخوخة فالوفاة ، وما بعد الوفاة .. وفاءً منه وتكريماً لهذا الإنسان ، وإيماناً منه بأن التطور والنمو التربوي لا ينتهي ولا يقف إلا بتحقيق الغاية من هذه الحياة ، ذلك بأن هناك ، بعد الوفاة ، حياة أخرى يحاسب الإنسان فيها على كل أعماله التي قدمها في الحياة الدنيا ، ثم ينال جزاءه عند أحكم الحاكمين . فمن التربية إعداده لتلك الحياة مع إعداده لهذه الحياة الدنيا ، وهذا يتطلب معرفة إجمالية عن كل منهما .

٣ ـ علاج النفس :

لم يقصر ابن القيم اهتمامه التربوي على النمّو والطفولة وتطوّر الإنسان ، بل اهتم بما يعتري هذا الإنسان من مشكلات وأمراض نفسية ـ أو أمراض القلب كما يسميها ـ وبكيفيّة علاجها ، أو الوقاية منها قبل وقوعها ، فكان له في ذلك جولات موفقة يستطيع الباحث

أن يستخرج منها بعض مبادئ للعلاج النفسي والوقائي ، وأن يقف على بعض أساليبه التربوية من خلال ذلك ...

٤ ـ وكان اهتمامه بالناحية الوجدانية ـ العاطفية ، وما يعتريها من ثورات الهوى الجامحة والعشق والهيام ، واضحاً في أكثر من واحد من كتبه (كالجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي) و (روضة المحبين ونزهة المشتاقين) ، وغيرهما ، فاتّخذ لعلاجها أسساً وأساليب تربوية متميزة ...

٥ ـ كما يتضح اهتمامه بآيات الله في الآفاق وفي أنفسنا ، في كتابه (مفتاح دار السعادة) ، إذ يربي بتأمل هذه الآيات ، عقل الإنسان وذوقه الجمالي ، وعواطفه الربانية ، التربية المثلى ، في سبيل تحقيق المثل العليا التي خلق الإنسان من أجلها ... فكان له في هذا المجال أسلوب تربوي واضح ، وجولات موفقة في علم النبات ، والحيوان ، ووظائف أعضاء الإنسان ، كما كانت معروفة في عصره ، ليعرض منها آيات ودلائل على حكمة الله وعنايته ورحمته .

٦ ـ وله في (فقه السيرة) و (فقه السنة) باع طويل ، وربما كان السباق إلى هذا المجال ، كما يتضح في كتابه (زاد المعاد في هدى خير العباد) فكان ـ في هذا الكتاب ـ يستنبط كل ما يمكن

استنباطه من سيرة الرسول ﷺ ، من خطط وأنظمة سياسية ، ومن فقه حقوقي وتعبدي ، وطبي ، وعلاجي ، وتربوي ، واجتماعي ...

٧ ـ وله في فقه القضاء ، وأصول المرافعات ، والأخذ بالقرائن والعلامات الدالة دلالة واضحة ، كرائحة الخمر ، وعلامات اللّقطة ، ودلالة الْحَبَل على الزنى ، والحيض على البراءة من الحمل ، والدم في سيف المتهم بالقتل ونحو ذلك ، له كتاب من أنفس الكتب القضائية سماه (الطرق الحكمية في السياسة الشرعية) وقسّم الدعاوى إلى : دعاوى الحقوق المالية ونحوها ، و (دعاوى التهم الجنائية) حيث قال : « القسم الثاني من الدعاوى : دعاوى التهم وهي دعوى الجناية ... »[1] .

وسنتولى تفصيل بعض الاهتمامات التربوية عند ابن القيم موزعة على أبواب هذا الكتاب .

(١) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية ، ص ١٠٠ ، ط مصر ١٣١٧ هـ (شركة طبع الكتب العربية بمصر) .

الباب الثاني

الاهتمام بالنسل والإنجاب وبالأجنّة في الأرحام

الفصل الأول : اهتمام ابن القيم بالنسل والإنجاب .

١ ـ الحض على طلب الأولاد .

٢ ـ كراهة تسخّط البنات .

٣ ـ تحديد شخصية الطفل ومسؤوليته التربوية .

أولاً ـ تمهيد في خضوع الإنسان للأحكام القدرية والأمرية .

ثانياً ـ تطور مسؤولية الإنسان .

١ً ـ طور خلوّ الجنين من المسؤولية .

٢ً ـ طور مسؤولية الأبوين أو من يقوم مقامهما في تربية المولود .

٣ً ـ طور انتقال المسؤولية إلى الأبناء أو البنات عند البلوغ .

٤ ـ الأسس الأيديولوجية للتربية الإسلامية عند ابن القيم .

أ ـ المربي الحقيقي على الإطلاق هو الله .

ب ـ للمولود في هذا النظام التربوي كيانه المعنوي والاجتماعي والحقوقي .

جـ ـ تربية الأولاد أمانة ومسؤولية في عنق الأبوين .

د ـ التربية واجب ديني ـ شرعي على الأبوين .

هـ ـ للتربية في هذا النظام معنيان ...

و ـ التربية حق من حقوق الله على المربين .

ز ـ تستمر تربية الإنسان لنفسه بعد البلوغ حتى الوفاة .

الفصل الثاني : تطور الجنين ونموه .

تمهيد : في منهج ابن القيم لدى دراسة أطوار الجنين .

ـ اعتماده بعد القرآن على حديثين صحيحين ، وتوفيقه بينهما .

ـ رده على أبقراط في صدد تحديد كل طور من هذه الأطوار .

ـ التحليل التربوي والعلمي وبيان ما سبق إليه الوحي مما اكتشف حديثاً في هذا المجال .

اهتمام ابن القيم بالنسل والأجنّة

تمهيد :

بلغ من اهتمام ابن القيم بالطفولة حداً ، أفرد معه لها كتاباً قيّماً[1] من كتبه ، فريداً في بابه ، بحث فيه عن استحباب طلب الأولاد ، وكراهة تسخّط ما يهب الله من البنات ، ثم تابع بحثه عن الأحكام الشرعية في الرضيع ، وفي الفطام والحضانة وتقبيل الأطفال وتعليمهم وتأديبهم والعدل بينهم ، وفي أطوار الطفل ومراحل نموه منذ أن كان جنيناً ، ثم رضيعاً ، ثم فطيماً ، ثم مميزاً يدخل غمار المجتمع ، ويتعلم ثقافته وعقيدته ودينه ... إلخ .

وسنبدأ في هذا الباب ببحث ما يتعلق بأهمية النسل وضرورة الإنجاب ، وهذا ما يعنون عادة بعنوان **(الاهتمام بالطفل قبل الولادة)** في الأبحاث التربوية المعاصرة .

ويبدو هذا الاهتمام في فترتين ، فترة ماقبل الحمل ، وفترة تطور الجنين في الرحم ، **وهكذا يتوزع البحث في هذا الباب على فصلين .**

---

(١) تحفة المودود بأحكام المولود ، طبع على نفقة حاكم قطر علي بن عبد الله آل ثاني بالمطبعة الهندية ٢٩ ـ شارع محمد علي بمباي ١٣٨٠ هـ / ١٩٦١ م ص ٥

الفصل الأول

الاهتمام بالنسل عموماً

ويبدو هذا الاهتمام عند ابن القيم في ثلاثة أمور :

١ ـ **الأمر الأول** الحض على طلب الأولاد وقد أفرد له باباً في الكتاب المذكور فقال : « الباب الأول في استحباب[1] طلب الأولاد » واعتمد في ذلك على أدلة من القرآن والسنة ، فأما من القرآن فقوله تعالى : ﴿ .. فالآن باشروهن ، وابتغوا ما كتب الله لكم ﴾ [البقرة ١٨٧/٢] قال ابن القيم في تفسيره :

« لما خفف الله عن الأمة بإباحة الجماع ليلة الصوم إلى طلوع الفجر ... أرشدهم ـ سبحانه ـ إلى أن يطلبوا رضاه في مثل هذه اللذة ، ولا يباشروها بحكم مجرد الشهوة ، بل يبتغوا بها ما كتب الله لهم من الأجر .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥

والولد يخرج من أصلابهم يعبد الله لا يشرك به شيئاً »[1] فدلّ كلامه على أن طلب الولد مما يبتغى به الزواج ، فهو هدف من أهم أهداف الزواج في الإسلام ونقل ذلك عن جمع من المفسرين : الصحابة والتابعين ، كالحكَم وعِكرمة ومُجاهد والحسَن البصري والسُّديّ والضَّحّاك ، وأرفع مانقله ، أي أقربه سنداً إلى الرسول ﷺ « ماروواه محمد بن سعد ، عن أبيه ، حدثني عمي ، عن أبيه ، حدثني أبي عن أبيه عن ابن عباس ، قال : هو الولد »[2] .

ثم أيّد رأيه هذا بأحاديث صحيحة عن رسول الله ﷺ يعلل فيها الحض على الزواج ، برغبته ﷺ في إكثار النسل ، وإكثار عدد أمته ليباهي بها الأمم ، والأنبياء . كالحديث الذي رواه (عن أنس قال : كان رسول الله ﷺ يأمر بالباءة[☆] ، وينهى عن التبتّل[☆☆] نهياً شديداً ، ويقول : « تزوّجوا الودود الولود ، فإني مكاثر بكم الأنبياء يوم القيامة » رواه الإمام أحمد وأبو حاتم في صحيحه)[3] ثم روى عدة أحاديث بهذا المعنى .

(☆) الباءة والباء : النكاح (القاموس المحيط : للفيروزابادي ٩/١) .

(☆☆) تبتّل : ترك النكاح وزهد فيه . (المرجع السابق ٣٣٢/٣) وتبتّل إلى الله انقطع لعبادته .

(١، ٢) تحفة المودود ، ص ٥ (مرجع سابق) .

(٣) تحفة المودود (مرجع سابق) ص ٦

ولما كان الأطفال معرضين للوفاة خشي الشارع أن يفت ذلك في عضد الآباء والأمهات ، فيزهّدهم في إنجاب الأطفال ـ وهو كما رأيت الهدف الرئيسي من الزواج ـ فشرع جائزة لمن يصبر ويحتسب ذلك عند الله وفي ذلك يقول ابن القيم : « ومما يرغب في الولد ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي حسان قال : توفي ابنان لي ، فقلت لأبي هريرة : سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً تُحدّثناه ، تُطيّب أنفسنا عن موتانا ؟ قال : نعم . صغارهم دعاميص الجنة[1] ؛ يَلقَى أحدهم أباه ـ أو قال أبويه ـ فيأخذ بناحية ثوبه أو يده ، كما آخذ أنا بصنفة ثوبك هذا ، فلا يفارقه حتى يدخله الله وأباه الجنة »[2] ثم روى عدة أحاديث بهذا المعنى أحدها في الصحيحين « عن أبي سعيد الخدري ، أن رسول الله ﷺ قال للنساء : ما منكنّ امرأة يموت لها ثلاثة من الولد إلا كانوا لها حجاباً من النار ، فقالت امرأة : واثنان ؟ فقال : واثنان »[3] .

وإذا أحسن الأبوان تربية الأولاد فعملوا عملاً صالحاً أودعوا لهما نفعهما ذلك بعد وفاتهما . قال ابن القيم :

(١) الدعموص : الدّخّال في الأمور ، الزّوّار للملوك ، ومنه : الأطفال دعاميص الجنة أي سيّاحون في الجنه لا يُمنعون من بيت . القاموس المحيط ٣٠٢/٢ (مرجع سابق) .

(٢) تحفة المودود ، ص ٦ (مرجع سابق) .

(٣) المرجع السابق ، ص ٧

(وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم يُنتفع به ، أو ولد صالح يدعو له »)[1] فاستمرار ثواب الأب بدعاء ابنه مما يرغب في الولد أيضاً .

٢ ـ **الأمر الثاني** من أمور الاهتمام بالنسل والإنجاب (كراهة تسخّط[2] البنات) وقد عقد ابن القيم باباً بهذا العنوان وأورد آيات وأحاديث منها قوله تعالى : ﴿ يهب لمن يشاء إناثاً ، ويهب لمن يشاء الذكور ﴾ ثم قال : « وكفى بالعبد تعرضاً لمقته تعالى أن يتسخّط ما وهبه . وبدأ سبحانه بذكر الإناث ... فقدّم ما كانت تؤخره الجاهلية من أمر البنات ، حتى كانوا يئدوهن ... والمقصود أن التسخط بالإناث من أخلاق الجاهلية الذين ذمهم الله سبحانه في قوله : ﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظلّ وجهه مسودّاً وهو كظيم ، يتوارى من القوم ، من سوء مابُشِّر به ! أيُمسِكُهُ عَلى هُون أم يدُسُّه في التراب ! ألا ساء مايحكمون ! ﴾ »[3] [النحل ١٦/٥٨ـ٥٩] وهكذا حارب ابنَ القيم ماكان من الأخلاق الجاهلية التي تزدري البنات من

---

(١) المرجع السابق ، ص ٨

(٢) السخط ضد الرضا .. والمسخوط المكروه (القاموس المحيط ٢/٣٦٣ للفيروزابادي) .

(٣) تحفة المودود ، ص ١٠ ـ ١١ (مرجع سابق) .

المواليد لأن الأنثى نصف المجتمع والنساء شقائق الرجال ، وأمهات الأبطال ، ومربيات الأجيال ، لذلك أورد الأحاديث في وجوب رعايتهنّ ، ومنها ما (في صحيح مسلم من حديث أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « من عال جاريتين حتى تبلغا ، جاء يوم القيامة أنا وهو هكذا : وضمَّ أصبعيه » ...)[1] .

قال ابن القيم : « وقد قال تعالى في حق النساء : ﴿ فإن كرهتموهنّ فعسى أن تكرهوا شيئاً ، ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾ [النساء ١٩/٤] وهكذا البنات أيضاً ، قد يكون للعبد فيهنّ خير في الدنيا والآخرة ، وقال صالح بن أحمد : كان أحمد إذا ولد له ابنة يقول : الأنبياء كانوا آباء بنات .. »[2] فانقلبت المفاهيم وأصبح الاهتمام بالبنات قد يربو على الاهتمام بالذكور .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١١

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣

٣ ـ الأمر الثالث تحديد شخصية الطفل ومسؤوليته التربوية على من تقع ؟

تمهيد : بلغ من اهتمام ابن القيم بالطفل أنه اعتبر أن له شخصيتين : الأولى : وهي موضع تلقي أحكام الله القدرية كتطوره وهو جنين في بطن أمه ، والثانية : التي تعلقت بها أحكام الله الأمرية . ولما كان الوليد في سنواته الأولى لا يستطيع تحقيق هذه الأحكام بنفسه (كان المخاطب بها الأبوين) فهذا سرّ تحميلهما مسؤوليته التربوية ، وذلك في نظر التربية الإسلامية القائمة على الأحكام القدرية والأمرية التي تلف الكون كله وتشمله ؛ فأي كائن في السماوات والأرض خاضع لأحد هذين النوعين من الأحكام أو لكليهما ، والإنسان كذلك خاضع لهما جميعاً على التدريج والترتيب الذي ذكره ابن القيم في مقدمة كتابه : (تحفة المودود) فقال عن المولود : « وقبل ذلك وهو في الظلمات الثلاث كانت أحكام الله القدرية جارية عليه ، فلَمّا انفصل عن أمه تعلقت به أحكام الله الأمرية ، وكان المخاطب بها الأبوين أو من يقوم مقامهما في تربيته والقيام عليه ، فلله سبحانه فيه أحكام أمَرَ قَيّمةُ(☆) بها مادام تحت

(☆) أي جعله قائماً بها ، أو قيّماً عليه بها .

كفالته ، فهو المطالب بها دونه ، حتى إذا بلغ حد التكليف تعلقت به الأحكام ، وجرت عليه الأقلام .. »[1] .

تطور مسؤولية الإنسان :

وهكذا بيّن ابن القيم تطور شخصية الإنسان التربوية منذ كونه جنيناً ، وتطور مسؤوليته . وتتلخص أطوار هذه الشخصية والمسؤولية حسبما ورد في النص السابق كما يلي :

أً ـ طور يكون فيه الإنسان خلواً من المسؤولية ، تجري عليه أحكام الله القدرية ، في رحم أمه ، حيث يتقلب وينمو في عناية الله ورعايته ، وتنحصر مسؤولية أبويه في إبعاد أمه عن كل ما يؤذيه ، كالغيل والعزل ـ كما سنرى ـ وكالتدخين والمسكرات والمخدرات مما هو شائع في هذا العصر .

٢ً ـ طور خروجه من الرحم إلى دار التكليف ؛ دار الامتحان والعمل ، فتتعلق به أحكام الله الأمرية والشرعية ، ولكنه يكون غير قادر على تحقيقها بنفسه ، لذلك اعتُبر الأبوان هما المخاطبين والمكلفين بتحقيق كل الأحكام الشرعية ـ التربوية ، المتعلقة بالمولود ، وقد خصص ابن القيم معظم كتابه (تحفة المودود) لهذه الأحكام ، فقال في مقدمته :

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣

« وهذا كتـاب قصـدنـا فيـه ذكر أحكام المولود المتعلقـة بـه بعـد ولادتـه مـادام صغيراً ... وأحكام تربيتـه ، وأطواره ، من حين كونـه نطفة إلى مستقره في الجنة أو النار ... فهو كتـاب ممتع معجب للنـاظر فيه ، يصلح للمعـاش والمعـاد ، ويحتـاج إلى مضمونـه كل من وهب لـه شيء من الأولاد .. »[1] .

٣ ـ طور يبلغ فيـه الإنسـان رشـده ، أي يبلـغ حـد التكليف ، وتتعلـق بـه الأحكام فيطلب منـه القيـام بتحقيقهـا بنفســه من دون توسط الأبوين ، وتجري عليه الأقلام ، فيكتب عليه عمله أولاً بأول ، ويحكم له بأحكام أهل الكفر أو أهل الإسلام .

والطور الثـاني يـدل على الاهتمام البـالغ بتربيـة المـولـود ، حيث خصصه ابن القيم للعنايـة بـالمولود ، وحمّل أبويـه مسؤوليـة تربيتـه ، وفصّـل أحكامـه لهما ليكـونـا على بصيرة من أمر تربيتـه وفقـاً لهـذه الأحكام .

٤ ـ الأسس الإيديولوجية للتربيـة الإسلاميـة عنـد ابن القيم : يؤخـذ من كلام ابن القيم السـابـق في هـذا المـوضـوع دلالات إيديولوجيـة تعتبر منطلقـاً وأسـاسـاً لكل الاعتبـارات التربويـة عنـد

---

(١) المرجع السـابق ، ص ٣

ابن القيم ، وتؤلف بترابطها منظومة[1] فكرية ، لانظير لها ، متناسقة قوية البنيان ، تعطينا أقوى تعليل لوجوب القيام بتربية المولود من غير أن يكون لأحد فضل عليه في ذلك ، وأهم هذه الدلالات :

أ ـ أن المربي الحقيقي على الإطلاق هو الله عزّ وجلّ ، يربي الجنين في رحم أمه بأحكامه القدرية ، وكل شيء عنده بمقدار . فيتطور الجنين بما حكم الله وقدّر عليه منذ الأزل ، وأن أوامر الله التربوية ، وقد سماها ابن القيم : (أحكام الله الأمرية) هي المصدر الأساسي لنظام التربية الإسلامية ، الذي يطبق على المولد منذ أن يولد .

وكل من أحكام الله القدرية والأمرية : إمّا مصدر وإمّا مظهر لهذه التربية الإلهية الشاملة ، فبالأولى تظهر لنا عناية الله بالأجنة وتطورها وتصويرها في الأرحام ، ومن أثر هذه الأحكام القدرية يبدو لنا إحكام النمو لجميع الكائنات والطيور والحشرات وتقدير رزقها ومَحْياها وفنائها وأجيالها ، وغرائزها التي ألهمها الله وغرزها في جبلّتها ... فجميع هذه الكائنات الحية خاضعة في نظامها التربوي :

---

(١) تسمى مثل هذه المنظومة في عصرنا (نظرية تربوية) ولكننا أبعدنا آراء ابن القيم عن هذه التسمية لأن النظرية قابلة للأخذ والرّد ، وآراؤه مبنية على القرآن والسّنة .

أي في أساليب نموها وتكاثرها وتعـايشهـا لهـذا النظـام التربوي الإلهي الشـامـل لكل الكائنـات وللكـون بـأسره ، وهـذا من معـاني الرّب أي المربي لجميع الكائنات .

ولما كان الإنسان مخلوقاً للابتلاء والاختبـار ، جرت عليـه أحكام الله التربوية الأمرية ، ليتم بهـا اختبـاره ، وَليُنظَرَ : هل أطـاع أوامر الله في تربيـة أولاده ، وهنـا يـأتي دور العلمـاء الـذين كانوا أعلامـاً في تاريخ الإسلام والتربية الإسلامية ، يدلوننا على هـذه النظم والأحكام الإلهية التربوية ...

فالنظـام التربوي الإلهي ، الـذي شرع للبشر ، مشتق من أحكام الله التربوية وهو أصل النظام التربوي الإسلامي ، فهذا النظام عريق في أصـالتـه وانتمائـه إلى ربّ البشر وربّ الكون ، عريـق في مـوافقتـه للفطرة ، وفي حرصه على سعادة البشرية ووحدتها بكل أجنـاسهـا من أقاصي الصين إلى أواسط آسيا وأوروبـا ، إلى مجـاهل أفريقيـا وأمريكا بشطريها ...

ب ـ أن للمولود في هذا النظام التربويّ كياناً معنوياً واجتماعياً ، وتتعلق به أحكام الله التربوية والمـاليـة والجسـديـة ، منـذ أن يولـد ، فهي أحكام إلهيـة ، شرعت من أجل سعـادة البشريـة وبعضهـا يشمـل الطفولـة في المهـد ؛ وهو يحمل اسم أبيـه ، وبنـوّتـه ، منـذ أن يـولـد

حيّاً ؛ فلو توفي أبوه قبل أن يولد لوجبت في حقه زكاة مالـه الموروث له ، يصرفهـا ولي أمره والقيّم عليـه ، وأي تقـدير للطفولـة أعظم من هذا ؟

جـ ـ أن تربية الأولاد أمانة ومسؤولية في عنق الأبوين : بـدليل أن الأبوين ـ أو من يقـوم مقـامهما ـ هم المخـاطبـون والمعنيـون بتنفيـذ أحكام الله الأمريّـة في حق المولـود ، لأن الله قيّمهم عليـه ، أي جعـل كلاًّ منهم قيّماً على أمور تربيتـه ، مـادام المولـود تحت كفـالتـه ، فهـو المطالب بها دونه ، فهذا تكليف وتحديد بـالمسؤوليـة التربويـة ، جـاء من ربّ العالمين ، لا مجال لدرئه ، أو التنصّل منـه ، أو التقصير فيـه ، وقـد جـاء في التصريح بـالمسؤوليـة التربويـة على الأب والأم كما نقلـه ابن القيم عن صحيـح البخـاري من حـديث نـافـع عن ابن عمر عن رسـول الله ﷺ : « كلكم مسـؤول عن رعيتـه ، فـالأمير راع على الناس ، وهو مسؤول عن رعيته . والرجل راع على أهل بيته ، وامرأة الرجل راعية على بيت بعلها وولده وهي مسؤولة عنهم »[1] .

د ـ أن التربيـة واجب من أوجب الـواجبـات الشرعيـة كلف بهـا

(١) المرجع السـابـق ص ١٣٤ ، وانظر صحيـح البخـاري : (عن سـالم عن ابن عمر) برقم ٨٥٣ ، ٣٠٤/١ ، بتحقيق د . مصطفى ديب البغا . الناشر دار ابن كثير ـ دار اليمامة دمشق ـ بيروت ، وبلفـظ « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيتـه » والمطبوع عام ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م .

الآبـاء والأمهـات ، وقـد أورده ابن القيم تحت عنـوان : البـاب الخامس عشر : في وجوب تـأديب الأولاد وتعليمهم والعـدل بينهم ، كما صرح بـوجـوب أن يُجَنَّب الطفـل ارتكاب المحرمـات والفـواحش والكبائر ، فهذا التمكين محرم على من ولّي أمر تربيته كتحريمـه عليـه لو كان مكلفاً . قال ابن القيّم :

« فصـل ـ ويجنّبـه لُبس الحرير ، فـإنـه مفسـد لـه ، ومخنث لطبيعته ، كما يجنّبه اللواط ، وشرب الخمر ، والسرقة والكذب ...

والصبي ، وإن لم يكن مكلفاً ، فوليه مكلف ، لا يحل لـه تمكينـه من المحرم ، فـإنـه يعتـاده ، ويعسر فطـامـه عنـه ، وهـذا أصح أقوال العلماء . واحتجّ من لم يره حراماً عليـه ، بـأنـه غير مكلف ، فلم يَحْرم لبسه للحرير ، كالدابة . وهذا من أفسد القياس ، فإن الصبي ، وإن لم يكن مكلفاً ، فإنه مستعـدّ للتكليف ، ولهـذا لا يُمكَّن من الصلاة بغير وضـوء ، ولا من الصـلاة عريـانـاً ونجسـاً ، ولا من شرب الخمر والقمار واللواط »[1] .

وهذا التكليف التربوي عام يشمل كل ما يستطاع تلقينـه للمولود أو تعويـده عليـه أو تجنيبـه إيـاه ... وهـو من العـام الـذي يخصصـه حديث :

---

(١) تحفة المودود ص ١٤٤ ، (مرجع سابق) .

« ذروني ماتركتكم ... فإذا أمرتكم بشيء فخذوا منه مااستطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه »[1] ، رواه أحمد ومسلم والنسائي وابن ماجه[2] .

فخص إتيان المأمور بالاستطاعة ، ولم يخص ترك المنهي عنه بها ، فوجب على الطفل تركها وولي أمره هو المسؤول عن تجنيبه إياها وإبعاده عما يؤدي إليها ...

هـ - أن للتربية في هذه النظرة التربوية معنيين :

الأول أن المربي ينوب عن المولود في تحقيق ماتعلق به من أحكام الله الأمرية ، وهذا مبني على أن للمولود شخصية اجتماعية وحقوقية محترمة كما رأينا .

الثاني : إعداد الطفل لتحقيق أحكام الله الأمرية حالما يبلغ سنّ التكليف ، ووضعه في الجو النفسي والاجتماعي الذي يحقق ذلك ، وتجنيبه كل ماحرمه الله لئلا يألفه فيصعب إقلاعه عنه .. « حتى إذا بلغ حد التكليف تعلقت به الأحكام ، وجرت عليه الأقلام »[2] بعد أن رُفعت عنه لقوله ﷺ فيما روته عائشة « رُفع القلم عن ثلاثة : عن

(١) صحيح الجامع الصغير برقم ٣٤٢٤ ، ١٥٦/٣ ، للشيخ ناصر الألباني (مرجع سابق) .

(٢) تحفة المودود ، ص ٣ ، (مرجع سابق) .

النـــائم حتى يستيقـــظ ، وعن المبتلى حتى يبرأ ، وعن الصبي حتى يكبر »[1] ، أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه[2] .

وكان رفع الأقلام ، أي رفع التكليف والمؤاخذة عنـه مؤقتـاً حتى يبلغ سن الرشـد والتكليف كما سنرى في مراحـل تطـور الإنسـان عنـد ابن القيم ، ولكن الـذين يتحملـون عنـه بعض التكاليف التربـويـة هم أولياء أمره فيجنبوه المسكرات والمحرمات كما رأينا ، وإلاّ انفرط عقـده وضاع مستقبلـه ، كما قـال ابن القيم مؤكـداً أهميـة المسؤوليـة واليقظـة التربوية والإبعاد الـدائم عن هـذه المحرمـات ، والسهر على نظـافـة من يحيطون بالأطفال .

و ـ أن التربيـــة حـق من حقـوق الله على الأبـوين أو من يقـوم مقامهما ، لا يجوز التفريط فيه ، بدليل قوله : « ... فمـا أفسـد الأبنـاء مثل تفريط الآباء وإهمالهم واستسهـالهم شرر النـار بين الثيـاب .. فكم من والـد حرم ولـده خير الـدنيـا والآخرة ، وعرّضـه لهلاك الـــدنيــا والآخرة ، وكل هـــذا من عـــواقب تفريـــط الآبـــاء في حقـــوق الله ، وإضـاعتهم لهـا ، وإعراضهم عمـا أوجب الله من العلم النـافـع والعمـل الصالح ، حرمهم الانتفـاع بـأولادهم ، وحرم الأولاد خيرهم ونفعهم هو

(١،٢) صحيح الجامع الصغير للشيخ ناصر الدين الألباني برقم ٣٥٠٧ ، (مرجع سابق) .

من عقوبة الآباء »[1] ، وقد أعطى المسؤولية التربوية ماتستحق من الاهتمام حين وصفها بأنها من حقوق الله على الآباء ، وحق الله جدير بأن يوفى ، ثم اعتبر تضييع حقوق الله على الآباء في تربية الأبناء عملاً فظيعاً استحق عليه الآباء العقوبة في الدنيا قبل الآخرة ، شأنها شأن سائر العبادات .

ز ـ استمرار التربية بعد البلوغ حتى الوفاة [2] :

اهتم ابن القيّم بمرحلة ضعف[2] الإنسان حيث قال عنه :

« ثم بعد الأربعين يأخذ في النقصان وضعف القوى على التدريج »[3] ، وقال في موطن آخر : « فإذا اجتمعت لحيته فهو شاب إلى الأربعين ، ثم يأخذ في الكهولة إلى الستين ، ثم يأخذ في الشيخوخة ... فإذا تغيرت أحواله وظهر نقصه فقد ردّ إلى أرذل العمر ، فالموت أقرب إليه من اليد إلى الفم »[4] .

وهكذا امتاز ابن القيّم باستمرار اهتمامه بتطور الإنسان حتى بعد الضعف والشيخوخة ، ليذكره بالموت الذي ينذره بلقاء الله ،

---

(١) تحفة المودود ، ص ١٤٤ ، (مرجع سابق) .
(٢) سيأتي تفصيل دلك في فصل آت من فصول هذا الكتاب .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٨٣
(٤) المرجع السابق ، ص ١٨٤

ليحاسب بين يديه ، على مـدى تحقيق الأهـداف التي من أجلهـا خلق الإنسـان وربي عليهـا ... وهنـا تبرز النزعـة الإنسـانيـة ، التي جعلت ابن القيّم يهتم بتحقيـق كرامـة الإنسـان ومسـؤوليـاتـه في كل مراحـل حياتـه ، ليبقى يقظـاً حيّـاً ، يمـارس إنسـانيتـه ويحقق ذاتـه حتى في أصعب مراحل حياته ...

الفصل الثاني

تطور حياة الجنين ونموه

تمهيد :

اهتم ابن القيم ببحث أطوار نمو الإنسان ، بل بأطوار حياته كلها ، منذ أن كان نطفة في رحم الأم إلى أن يبعث يوم القيامة فيحاسَب فيجازى بالجنة أو بالنار ، وأفرد لذلك باباً في كتابه (تحفة المودود بأحكام المولود) عَنْونَ له بما يلي :

الباب السابع عشر

« في أطوار بني آدم من وقت كونه نطفة إلى استقراره في الجنة أو النار »[1]

والكتاب كله - كما يدل اسمه - ألف بهدف البحث في فترة الرضاع والطفولة الأولى - كما تسمى اليوم عند علماء التربية - ثم أفرد البابين

---

(١) تحفة المودود بأحكام المولود ، ص ١٤٥ (مرجع سابق) .

الخامس عشر والسادس عشر ، لمرحلة تعليم الطفل - ويقابلها اليوم الطفولة المبكرة والمتأخرة - أو مرحلة رياض الأطفال والتعليم الابتدائي ، كما سنرى .

وسنخصص هذا الفصل لعرض آراء ابن القيم ، وتحليله ودراسته لأطوار الجنين ، ثم نقارن تلك الأطوار بما يقابلها في علم الأجنة ، وقد نبين - عرضاً - بعض أهداف ابن القيم من استعراض هذه الأطوار ، وقد نؤجل البعض الآخر إلى حين استخراج بعض المبادئ والأساليب التربوية عند ابن القيم ...

قال ابن القيم : « قال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسانَ من سُلالَةٍ مِن طينٍ ، ثُم جَعلناهُ نطفةً في قَرارٍ مَكينٍ ، ثُم خَلَقنا النُّطفَةَ عَلقةً ، فخَلقنا العَلقةَ مُضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا العِظامَ لحماً ، ثم أنشأناهُ خَلقاً آخرَ ، فتَبارَكَ اللهُ أحسنُ الخالقينَ ، ثم إنكم بعد ذلك لميّتون ، ثم إنكم يوم القيامة تُبعثون ﴾[1] فاستوعب سبحانه ذكر أحوال ابن آدم قبل كونه نطفة ، بل تراباً وماء ، إلى حين بعثه يوم القيامة : فأول مراتب خلقه أنه سلالة من طين ، ثم بعد ذلك سلالة من ماءٍ مهين ، وهي النطفة .. فتمكث كذلك أربعين يوماً ، ثم يقلب الله سبحانه النطفة علقة ، وهي قطعة سوداء من دم ، فتمكث كذلك أربعين يوماً أخرى ، ثم يصيّرها سبحانه مضغة - وهي قطعة لحم -

---

(١) [المؤمنون : ١٢/٢٣ - ١٦] .

أربعين يـومـاً ، وفي هـذا الطـور تقـدّر أعضـاؤه ، وصـورتـه وشكلــه وهيأته »[1] .

وقـد اعتمـد ابن القيم في تحـديـد هـذه الأطـوار الجنينيّــة ـ بعـد القرآن ـ على حديثين صحيحين عن رسول الله ﷺ حيث قال ، بعـد أن أورد مقـاطـع من كـلام (بقراط) في المقـالـة الثـالثـة من كتـاب الأجنة[2] ، قال ابن القيّم :

« قلت : في هذا الفصل حديثان صحيحـان عن رسول الله ﷺ نذكرهما ونـذكر تصـديق أحـدهمـا للآخر ، ثم نتعقب كلام (بقراط) ونبيّن مـا فيــه ... ففي الصحيحين من حـديث ابن مسعـود قــال : حدثنا رسول الله عليـه الصلاة والسلام وهو الصـادق المصـدوق : « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون في ذلـك علقـة مثلَ ذلك ، ثم يكون في ذلك مضغـة مثل ذلـك ، ثم يرسل الله الملـك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات : بكَتْبِ رزقه وأجلـه وشقي أو سعيد ... » وفي صحيح مسلم من حديث حـذيفـة بن أسيـد ، يبلغ به النبي ﷺ ، قال : « يدخل الملك على النطفـة ، بعـدمـا تستقر في الرحم بـأربعين أو خمس وأربعين ليلـة ، فيقـول : يـا رب ، أشقيّ أو

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٤٥

(٢) انظر المرجع السابق ، ص ١٤٧ ـ ١٤٨

سعيد ؟ فيكتبان ، فيقول : يا رب أذكر أم أنثى ؟ فيكتبان ، ويُكتب عمله وأثره وأجله ورزقه ... » فحديث حذيفة يدل على أن ابتداء التخليق عقب الأربعين الأولى ، وحديث ابن مسعود يدل على أنه عقب الأربعين الثالثة فكيف يجمع بينهما ؟ »[1] .

ثم أجاب على هذا الإشكال : « لا ريب أنه عند نفخ الروح فيه وتعلقها به يحدث له في خلقه أمور زائدة على التخليق الذي كان بعد الأربعين الأولى ، فالأول كان مبدأ التخليق ، وهذا تسويته وكمال ما قُدِّر له ، كما أنه سبحانه خلق الأرض قبل السماء ، ثم سوّى الأرض بعد ذلك ، ومهّدها وبسطها وأكمل خلقها[2] ، فذلك فعله في السكن ، وهذا فعله في الساكن ، على أن التخليق والتصوير ينشأ في النطفة بعد الأربعين على التدريج شيئاً فشيئاً ، كما ينشأ النبات ، فهذا مشاهد في الحيوان والنبات ، كما إذا تأملت حلول الفروج في البيضة .. »[3] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٥٢

(٢) وهذا مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ؟ ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام ﴾ [السجدة ١١/٣٢] وقوله : ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها ... ﴾ [النازعات ٣١/٧٩ ـ ٣٣] .

(٣) تحفة المودود ، ص ١٥٥ (مرجع سابق) .

ثم نقل قول بقراط في كتاب (الغذاء) :

« تصوير الجنين يكون في خمسة وثلاثين يوماً ، وحركته في سبعين صباحاً ، وكماله في مئة وعشرة أيام ، ويُتصوَّر أجنّة أخرى في خمسين صباحاً ، ويتحركون التحرك الأول في مئة صباح ويكملون في ثلاث مئة ... قال : وأما الولادة ، فتكون في الشهر السابع والثامن والتاسع والعاشر »(١) .

ثم علق على قول بقراط بقوله :

« قلت : الحركة حركتان ، حركة طبيعية غير إرادية ، فهذه تكون قبل تعلّق الروح به ، وأما الحركة الإرادية فلا تكون إلا بعد نفخ الروح ، ولهذا فرّق بقراط بين التحرك الأول والثاني »(٢) ثم أدلى برأيه قائلاً : « قلت : الذي دلَّ عليه الوحي الصادق عن خلاّق البشر أن الخلق ينتقل في كل أربعين يوماً إلى طور آخر ، فيكون أولاً نطفة أربعين يوماً ، ثم علقة كذلك ، ثم مضغة كذلك ، ثم ينفخ فيه الروح بعد مئة وعشرين يوماً ، كأنك تشاهده عياناً ، وما خالفه فليس مع المخبر به عيان ، وغاية ما معه قياس فاسد ، وتشريح لا يحيط علماً بمبدأ تكوين ما شاهدوه منه ، أو تقليد لواحد غير معصوم ...

(١، ٢) المرجع السابق ، ص ١٥٦

وغـايـة مـامعهم أنهم شرّحوا الحوامل أحيـاءً وأمواتـاً ، فـوجـدوا الجنين في الرحم على الصفة التي أخبروا بهـا ، ولكن لا علم لهم بمـا وراء ذلـك من مبـدأ الحمـل وتغير أحـوال النطفـة »[1] قبـل التشريـح « ... وإنما مع القوم كليات وأقيسة ، وينبغي أن يكون كـذا وكـذا . والنظام الطبيعي يقتضي كذا وكذا .. وأصحّ مابأيـديهم : التشريح ، والاستقراء التام الذي لا يُخرَم ، ونحن لاننكر ذلك ، ولكن ليس فيـه ما يخالف الوحي عن حيـاة الأجنـة أبـداً ... ومثل هـذا لا يـدرك إلاّ بوحي أو مشاهدة ، وكلاهما مفقود عندهم ... »[2] .

التحليل التربوي والعلمي

أصبـح علم الأجنـة علمـاً قـائمـاً بـذاتـه لـه أسـاليبـه التجريبيـة والاستكشافية والجراحية والاستقرائية ، والشعاعية ، والتصويرية ...

ويمكننا أن نستخلص مما سبق ، أن الحضارة الفكريـة الإسلاميـة توصلت في هذا المجال إلى أمور ، جاء العلم الحديث موافقـاً لهـا ، وهي الأصل ، لاعتمادها على الوحي وعلى العلم الذي أنزلـه الخلاّق العليم ... وأهم هذه الأمور ، كما وردت عند ابن القيّم :

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٥٦

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٧

١ ـ « أن الجنين يخلق من ماء الرجل وماء المرأة خلافاً لمن يزعم من الطبائعيين أنه يخلق من ماء الرجل وحده ، وقد قال تعالى : ﴿ فلينظر الإنسانُ مم خُلِقَ ؟ خُلِقَ من ماءٍ دافقٍ ، يَخْرُجُ من بين الصُّلبِ والتَّرائبِ ﴾ قال عطاء وابن عباس : يريد صُلب الرجل ، وترائب المرأة ، وهو موضع قلادتها .. »[١] أي من ماء الرجل وماء المرأة ، والنطفة ـ كما سنرى ـ لا تتم إلا بتلقيح مني الرجل للبيضة الموجودة في مني المرأة .

٢ ـ « الولد يأخذ الشبه من الأم تارة ومن الأب تارة ، بدليل ماذكرنا من حديث عائشة ، وأم سلمة ، وعبد الله بن سلام ، وأنس بن مالك ، وثوبان رضي الله عنهم »[٢] . وقد يكون الشبه لأحد الأجداد « كما في الصحيح أن رجلاً قال للرسول ﷺ : إن امرأتي ولدت غلاماً أسود ، فقال : « هل لك من إبل ؟ » قال : نعم ! قال : « ما لونها ؟ » قال : حمر ! قال : « فهل فيها من أورق ؟ » قال : نعم إن فيها لَوُرقاً ! قال : « فأنّى لها ذلك ؟ »[☆] قال : عسى أن يكون نزعة عرق ! قال : « وهذا عَسى أن يكون نزعة عرق » ..

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٦٦

(٢) المرجع السابق ، ص ١٦٩

(☆) أي من أين لها ذلك .

ـ قال ابن القيم ـ في الحديث ما يدل على اعتبار الشبه ، فإنه ﷺ أحال إلى نوع آخر من الشبه وهو نزع العرق .. »[1] .

وفي مختار الصحاح (وكذا باب نَزَعَ إلى أبيه في الشَّبَه أي ذهب)[2] والعرق هنا الفرع أي الانتماء إلى جد من الأجداد بعيد أو قريب ، ونزع العرق هو الشبه بسبب هذا الانتماء .

وقد توصل علم الحياة (البيولوجيا) في بحوث الوراثة اليوم ، بعد تجارب طويلة وبعد تحليل الجيويين المنوي في نطفة الرجل والمرأة ، إلى أن الصفات الْخَلْقية والمزاجية والمواهب النفسية البارزة ، (تورث) من الآباء أو الأمهات ، أو الأجداد والجدات لأب أو لأُم ، فتنتقل إلى الجنين ، فيحملها معه حتى يشبّ ، وقد سبق ابن القيم إلى القول بالشبه أي بالوراثة البيولوجية اقتباساً من القرآن والسنة وأوضح أدلته وناقش آراء الطبيعيين في عصره في عدد من كتبه منه الكتابان اللذان نقلنا كلامه عنهما وردّه على ما جاء فيهما ، بعد أن نقله كما جاء .

---

(١) ابن القيم : الطرق الحكمية في السياسة الشرعية ، ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ (مرجع سابق) .

(٢) مجد الدين بن أبي بكر الرازي : مختار الصحاح ، ص ٦٥٤ ، من منشورات دار الحكمة بدمشق .

٣ ـ يتطور الجنين في بطن أمه (على التدريج) ماراً بالمراحل التالية :

أ ـ يدخل المني إلى الرحم فيكون نطفة تتكون من ماء الرجل وماء المرأة ، وتستقر في الرحم فيُجْمَع خلقه ويتكون في أربعين يوماً ، « وفي هذه المدة يتم تلقيح جرثومة من مني الرجل لبُيَيْضة من ماء المرأة ، ثم تتطور النطفة إلى (مخلوق كالتوتة) ، يقضي الأسبوع الثاني من النمو ويسمى في عرف علم الأجنة المعاصر (زمن التعشيش) ويحيط به (الغشاء المشيمي) مكسوّاً بالزغابات الكوريونيّة »[1] وقد عبر الحديث النبوي عن ذلك كله باختصار : « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً » وعبر عنه القرآن بقوله تعالى : ﴿ ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ﴾ وقوله : ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه ﴾ والأمشاج : الأخلاط[☆] وفيه إشارة إلى عملية التلقيح التي يختلط فيها ماء الرجل بماء المرأة . و « (النطفة الأمشاج) هي التي يسميها الطب الحديث (البيضة الملقحة) »[2] وقد أطلق ابن القيّم اسم (النطفة) على هذا الطور الممتد (٤٠)

(١،٢) الطب النبوي والعلم الحديث : د . محمود ناظم النسيمي ، ص ٣٣٤ ، الشركة المتحدة للتوزيع دمشق ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .

(☆) قال محمد بن أبي بكر الرازي : « مشج بينهما خلط .. والشيء (مشيج) أي خليط والجمع (أمشاج) ، على وزن يتيم وأيتام » مختار الصحاح ٦٢٥ (مرجع سابق) .

يوماً لأنها هي أساسه ومبدؤه وهي التي ينشأ عنها (الجسم التوتي) ومن أجل حفظها يخلق الله حولها الغشاء المشيمي .

ب ـ الطور الثاني : طور العلقة ، كما رأينا في كلام ابن القيم عنه إذ قال : « ثم يقلب الله النطفة علقة ، وهي قطعة سوداء من دم ، فتمكث كذلك أربعين يوماً أخرى »[1] . « وفي هذه الفترة تصبح النطفة محاطة بالدم ، ولو أُسقط الجنين لَبَدا قطعة من الدم المتجمد لذلك سمي (علقة) ؛ ولأنه يصبح علوق الجنين برحم أمه ، بواسطة المشيمة ، علوقاً متميزاً وتقوم المشيمة بالمبادلات الغذائية فينتقل بواسطتها دم الأم إلى الجنين ويحصل تبادل الأوكسجين وحمض الفحم على وجه أتم يتلاءم مع متطلبات ما وصل إليه الجنين من تطور »[2] فهذا هو تفسير (العلقة) في الطب المعاصر .

جـ ـ طور المضغة : وفيه يقول ابن القيم : « ثم يصيرها ـ سبحانه ـ مضغة ، وهي قطعة لحم ، أربعين يوماً ، وفي هذا الطور تقدّر أعضاؤه وصورته وشكله ، وهيأته »[3] . « وهو طور اصطلاحيّ إسلاميّ يختلف وقته عن زمن الفترة المضغيّة ـ في الطب الحديث ـ فهو يمتد من اليوم ٨١ ـ ١٢٠ من بدء خلق الجنين ، ويوافق زمناً من

(١) تحفة المودود ، ص ١٤٥ (مرجع سابق) .
(٢) د . محمود ناظم النسيمي ، ص ٣٢٤ (مرجع سابق) .
(٣) ابن القيم : تحفة المودود ، ص ١٤٥ (مرجع سابق) .

تنامي الجنين يبدأ مع تمام تكوّن الأعضاء التناسلية ، وبدء تميّزها في الذكر عنها في الأنثى ، كما شوهد ذلك في حوادث الإسقاط »[1] وقد سبق ابن القيم إلى ذكر تنامي الجنين وتميزه في هذا الطور ـ كما رأينا ـ فقال : « ولا ريب أنه عند نفخ الروح فيه وتعلقها به ، يحدث له في خلقه أمور زائدة على التخليق الذي كان بعد الأربعين الأولى ، فالأول كان مبدأ التخليق ، وهذا تسويته وكمال ماقدّر له ... »[2] .

وبعد فهذه لمحة سريعة عن أطوار الجنين عند ابن القيّم ، كما وردت في الاصطلاح الإسلامي المتميز ، مقارنة بما يقابلها في اصطلاح الطب الحديث ، قصدنا من عرضها البيان ، والإيضاح لما عرضه ابن القيم في هذا الموضوع ، وبيان سبق ابن القيم ـ اقتباساً من القرآن والسنة ـ إلى الكشف عن هذه الحقائق التي أصبحت دليلاً من أدلة الإعجاز العلمي للقرآن والسنة .

---

(١) د . محمود ناظم النسيمي ، ٣٣٥ ـ ٣٣٦ (مرجع سابق) .

(٢) ابن القيم : تحفة المودود ، ص ١٥٥ (مرجع سابق) .

الباب الثالث

في تربية الإنسان من المهد إلى اللحد

الفصل الأول : فترة الولادة وما يجب فيها من العناية الصحيحة بالمولود .

الفصل الثاني : فترة ما بعد الولادة : الاحتفاء بالمولود في أيامه الأولى .

١ ـ التهنئة والبشارة به .

٢ ـ الأذان في أذنه .

٣ ـ العقيقة أو الذبيحة من أجله : دلالتها الاجتماعية والتعبدية .

٤ ـ الاهتمام بجماله وصحته : حلق شعر رأسه .

٥ ـ العناية بتسميته واختيار أفضل الأسماء ، وأثر ذلك في حياته ، استحباب أنواع من الأسماء وكراهة أسماء أخرى ، تغيير الاسم السيئ ولو بعد الكبر .

٦ ـ الختان وفوائده .

الفصل الثالث : فترة الرضاع ومظاهر العناية بالرضيع .

١ ـ بدء الرضاع ووقته وحماية الرضيع مما يؤذيه في أشهره الأولى .

٢ ـ بكاء الرضيع : معناه ووظائفه وفوائده .
٣ ـ الاهتمام بانفعالات الرضيع وصحته النفسية .
٤ ـ الاهتمام ببدء الكلام عند الرضيع .
٥ ـ الاهتمام بمدة الرضاع ومسؤوليته .
٦ ـ إرشاد الأب إلى ترك الغيل لأنه يؤذي الرضيع .
٧ ـ العناية بنبات أسنان الرضيع .
٨ ـ العناية بمشي الرضيع وفطامه على التدريج وبدء إطعامه .
الفصل الرابع : ما بعد الرضاع أو مرحلة بدء التمييز .
الفصل الخامس : مرحلة التمييز .
١ ـ تحديد وقته .
٢ ـ الأساليب والأسس التربوية لهذه المرحلة .
أولاً ـ التربية الوقائية في هذه المرحلة .
١ً ـ الوقاية من المفسدات السمعية .
٢ً ـ الوقاية من الحرص وأخذ مال الغير .
٣ً ـ الوقاية من الكسل والبطالة .
٤ً ـ الوقاية من الإسراف في الشهوات .
ثانياً ـ مراعاة استعدادات الطفل ومواهبه .
ثالثاً ـ إرواء الحاجات الفطرية عند الأطفال .
١ً ـ معنى الحاجات الفطرية .

٢ً ـ ماصرح به ابن القيّم : الحاجة إلى المحبة .

٣ً ـ ما يستنبط من كلام ابن القيّم :

أ ـ الحاجة إلى السلطة الضابطة .

ب ـ الحاجة إلى التقدير .

٣ ـ اعتبار هذه المرحلة بدءاً لسن التعليم .

الفصل السادس : بلوغ السنة العاشرة من العمر وميزات هذه المرحلة .

الفصل السابع : مرحلة المراهقة ومناهزة الاحتلام .

الفصل الثامن : البلوغ : تعريفه ـ وقته وعلاماته ـ المسؤوليات المترتبة غليه .

الفصل التاسع : بلوغ الأشدّ : معناه ودلالاته التربوية .

الفصل العاشر : مرحلة النقصان وضعف القوى : فترات الشيخوخة .

الفصل الحادي عشر : مرحلة الانتقال إلى دار البقاء :

١ً ـ فترة انتهاء الحياة .

٢ً ـ فترة البرزخ وعذاب القبر أو نعيمه .

الفصل الثاني عشر : البعث والحساب ودلالته التربوية .

الفصل الأول

فترة الولادة وملابساتها

وهي فترة انتقال من عالم إلى عالم يغايره ، فتتغير طريقة الحياة والتنفس وتمثل الغذاء ومصدره ، ويخشى على الجنين من الأمراض والمفاجآت ... لذلك يذكر لنا ابن القيّم أفضل المعلومات الطبية التي وصلت إليه في هذا الموضوع مبيّناً حكمة الله وعنايته بالمولود :

أ ـ كما في خروجه من الرحم « فعندما يأذن الله بخروجه ينقلب ، ويصير رأسه إلى أسفل ، فيتقدم رأسه سائر بدنه ؛ هذا باتفاق من الأطباء والمشرّحين . وهذا من تمام العناية الإلهية بالجنين وأمه ، لأن رأسه إذا خرج أولاً كان خروج سائر بدنه أسهل ، من غير أن يحتاج شيء منها إلى أن ينشب[1] ؛ فإن الجنين لو خرجت رجلاه أولاً لم يؤمن أن ينشب في الرحم عند يديه .. وإن خرجت اليدان لم يؤمن أن ينشب عند رأسه ، إما لأنه يلتوي إلى خلف ، وإما لأن السرة

---

(١) نَشِب الشيء في الشيء بالكسر نشوباً : أي علق فيه (مختار الصحاح ص ٦٥٩) (مرجع سابق) .

تلتـوي على عنقـه أو على كتفـه .. فـاقتضت حكمـة أحكم الحـاكمين أن ينقلب في البطن ، فيخرج رأسَه أولاً ثم يتبع الرأسَ باقي البدن »[1] .

ب ـ وفي تغير غذائه عند الولادة ، وجوّه الجنينيّ ، ومـا يتعرض له من الأمراض بسبب ذلك يقول :

« فصـل في أن الأطفـال وهم في حمـل الرحم أقـوى منهم بعـد ولادتهم[2] وأصبر وأشـد احتمالاً لمـا يعرض لهم ..، فـإن أغصـان الشجر وفروعها ، مـادامت لاصقـة بـالشجرة ومتصلـة بها ، لاتكاد الريـاح العواصف تزعزعها ولا تقتلعها . فـإذا فصلت عنهـا وغرست في موضع آخر نالتها الآفة ووصلت إليها بـأدنى ريح حتى يقتلعهـا ... ولمـا كان مفارقة كل مألوف ومعتـاد ، والانتقـال عنـه شـديـداً على من رامـه ، ولا سيما إذا كان الانتقال دفعة واحدة ، فالجنين عنـد مفـارقتـه للرحم ينتقل عما قد ألفه واعتاده في جميع أحواله دفعة واحدة . وشدة انتقاله عليه أكثر من شدة الانتقال بالتدريج ... وهذه أول شـدة يلقـاهـا في الدنيا ، ثم تتواتر عليه الشدائد ... ولذلك يبكي عند ورود هذه الشدة عليه ...

---

(١) ابن القيم : تحفة المودود ، ص ١٧١ ، (مرجع سابق) .

(٢) في (مختار الصحاح) (ولـدت المرأة (ولاداً) و (ولادة) و (أولـدت) : حـان ولادها) ، ص ٧٣٥ ، (مرجع سابق) .

فـالجنين كان يتغــذى في الرحم بمـا يـلائمــه ، وكان يجتــذب ، بالطبع ، المقدار الذي يلائمه من دم أمه ، وبعـد خروجـه يجتـذب من اللبن ما يلائمه أيضاً ، لكنه يجتذبه لشهوته وإرادته ، فيزيد على مقدار مـا يحتـاج إليـه ، مع كون اللبن قـد يكون رديئـاً ومعلولاً ، كما يكون صحيحاً . وكذلـك يعرض لـه القيء والغثيـان ... وتعرض لـه الآلام والأوجـاع والآفـات التي لم تعرض لـه في البطن ، وقـد كان عليـه من الأغشية والحجب ما يمنع وصول الأذى إليه ، فلما وُلد هُيِّئ لـه أغشيـة وحجب أخرى لم يـألفهـا ، وربمـا ضَحِيَ[1] للحر والبرد ، من أجـل استنشـاق الهواء ، وكان في الرحم يجتـذبـه من سرّتـه وهـو ألطف شيء معتدل صحيح ...

وبالجملة فقد انتقل عن مـألوفـه ومـا اعتـاده وهلـة واحـدة ، إلى ما هو أشـدّ عليـه منـه وأصعب . وهـذا من تمـام حكمـة الخلاّق العليم ، ليمرّن عبده على مفارقة عوائده ومألوفاتـه إلى مـا هو أفضل منهـا وأنفع وأوفق له ... »[2] .

جـ ـ وفيما يعرض لـه عنـد الولادة نقل ابن القيم عن ابن الأعرابي قوله :

(١) ضَحِيَ للشمس بـالكسر ضَحـاءً (بوزن خَفِي يَخْفَى خَفَـاء) أي برز لهـا (مختـار الصحاح) ، ص ٣٧٨ ، (مرجع سابق) .

(٢) ابن القيم : تحفة المودود (مرجع سابق) ، ص ١٧٣ ـ ١٧٥

« فإذا انفصل الجنين ، بكى ساعة انفصاله لسبب طبيعي ، وهو مفارقته إلفه ومكانه الذي كان فيه ، ولسبب منفصل عنه ، وهو طعن الشيطان في خاصرته ؛ فإذا انفصل وتمّ انفصاله ، مدّ يده إلى فيه ... »[1] .

التحليل التربوي :

يستنبط الباحث مما ذكره ابن القيم عن حادثة الولادة أموراً تربوية وطبّية ؛ أهمها :

(١) أخذ العبرة لتربية الإيمان بالعناية والحكمة الإلهية : لما في حادث الولادة من الحكمة والدقة في تحرك الجنين وهو سابح في الرحم وانقلاب رأسه إلى أسفل ليكون هو أول عضو يخرج وكيف « تنهتك عنه تلك الأغشية ، وتنفصل العروق التي تمسكه بين المشيمة والرحم ، وتنصبّ تلك الرطوبات المزلقة فتعينه بإزلاقها وثقله ، وانهتاك الحجب ، وانفصال العروق ، على الخروج . فينفتح الرحم انفتاحاً عظيماً جداً ، ولا بدّ من انفصال بعض المفاصل العظيمة ، ثم تلتئم في أسرع زمان ، وقد اعترف بذلك حذّاق الأطباء والمشرحين ، وقالوا :

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٧٦

لا يتم ذلك إلاّ بعناية إلّهية وتدبير تعجز عقول الناس عن إدراك كيفيته ، فتبارك الله أحسن الخالقين »[1] .

(٢) وجوب مضاعفة العناية بالمولود في أيامه الأولى ، والشعور بما يعانيه من مفارقة جوّه الجنينيّ المألوف المريح ، ومجابهة الجو الخارجي القاسي العنيف ، بشكله المفاجئ ، ومساعدته على التآلف مع هذا الجو الجديد ، وتنظيم رضاعته ونظافته حتى لا يتعرض للأمراض ، وحمايته من موجات البرد الشديد والحر الشديد ، ومن كل مسببات المرض ...

وبهذا يربي عند الأمهات حسن الاهتمام والعناية بالمولود الجديد ، في هذه المرحلة الحرجة من أول ولادته ، كما يحقق التوعية اللازمة لهن ليكنّ أمهات ناجحات .

(٣) إشعار الأبوين بمسؤولية تربية المولود حال خروجه إلى الدنيا كما قال ابن القيم : « .. وقبل ذلك ، وهو في الظلمات الثلاث كانت أحكام الله القدرية جارية عليه ومنتهية إليه ، فلما انفصل عن أمه تعلقت به أحكامه الأمرية ، وكان المخاطب بها الأبوين ، أو من يقوم مقامهما في تربيته والقيام عليه .. »[2] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٧٦

(٢) المرجع السابق ، ص ٢

(٤) نظراً لما تتّسِم به عملية الولادة من الأهمية والخطورة فقد كانت تتم غالباً على يد (قابلة) وهي امرأة سبق لها خبرة ودراية بتوليد النسوة وقطع سرة الوليد عند نزوله ، ونحو ذلك مما يقتضيه أمر الولادة .

وقد ذكرت القابلة أكثر من مرة في كتاب (تحفة المودود) لابن القيم ، فيما نقل من الآثار والأحاديث الواردة بشأن ولادة الحسين حفيد رسول الله ﷺ وإبراهيم ولد رسول الله ﷺ فالأول نقله كما يلي : « قال الخلاّل أنبأنا محمد بن أحمد قال حدثني أبي حدثنا حفص بن غياث حدثنا جعفر بن محمد عن أبيه أن النبي ﷺ أمرهم : أن يبعثوا إلى القابلة برجل من العقيقة . رواه البيهقي من حديث حسين بن زيد عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن علي : أن رسول الله ﷺ أمر فاطمة فقال : زني شعر الحسين وتصدقي بوزنه فضة ، واعطِ القابلة رجل العقيقة »[1] .

وفي المرة الثانية قال ابن القيم بعد أن نقل عن صحيح مسلم حديث أنس المبدوء بقول الرسول ﷺ : « ولد لي الليلة غلام ، فسميته باسم أبي إبراهيم .. » قال :

« ثم ذكر حديث أنس : وكانت قابلتها سلمى مولاة

(١) المرجع السابق ، ص ٤٩

رسـول الله ﷺ فخرجت إلى زوجهـا أبي رافـع فـأخبرتـه أن مـاريـة ولدت غلاماً ... »[1] .

فدلَّ الحديثان على أن العادة جرت بتخصيص قابلـة يلجـأ إليهـا عند الولادة لمساعدة المرأة عندمـا يجيئهـا المخـاض ، وإن من السنـة برّ القابلة ومودتها وأن يهدي إليها من العقيقة ...

(١) المرجع السابق ، ص ٦١ ـ ٦٢

الفصل الثاني

فترة ما بعد الولادة

وهي فترة الحفاوة بالمولود وتكريمه والذبح له ، وتسميته وتحنيكه ، وتدل هذه الأمور على اهتمام المجتمع المسلم بالنسل ، عملاً بالسّنة المحمدية التي يحرص عليها ابن القيم ويجعلها منهجاً له .

ومن خلال هذا المنهج يتجلّى اهتمام المجتمع الإسلامي بالمولود بعد ولادته في عدة مظاهر كالبشارة والتهنئة ، وذبح الذبيحة وإقامة الوليمة ، وحسن انتقاء اسمه .

١ ـ **فأما المظهر الأول** فقد عقد له (الباب الثالث[1] : **في استحباب بشارة من وُلد له ولد وتهنئته**) ثم ذكر بشارة الملائكة لإبراهيم وزوجه بما سَيَهَبُهُما الله من الولد كما في قوله تعالى : ﴿ وامرأته قائمة فضحكت . فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ [هود ٧١/١١] وقوله : ﴿ وبشروه بغلام عليم ﴾ [الذاريات ٢٨/٥١] وقوله : ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ [الصافات ١٠١/٣٧] ثم قال : « فإن

(١) المرجع السابق ، ص ١٤

فاتته البشارة استُحِبّ له تهنئته ، والفرق بينهما أن البشارة إعلام له بما يسرّه ، والتهنئة دُعاء له بالخير فيه بعد أن علم به .. ولا ينبغي للرجل أن يهنئ بالابن ولا يهنّئ بالبنت ، بل يهنئ بهما أو يترك ... ليتخلص من سيئة الجاهلية »[1] . ثم بيّن ما ورد من ألفاظ التهنئة بقوله : « وقال أبو بكر بن المنذر في الأوسط ، روينا عن الحسن البصريّ أن رجلاً جاء إليه وعنده رجل قد ولد له غلام فقال له : يهنئك الفارس ، فقال له الحسن : ما يدريك فارس هو أم حمار ؟ قال : كيف نقول ؟ قال : قل : بورك في الموهوب شكرت الواهب ، وبَلّغ أَشُدّه ورزقت برّه »[2] .

٢ ـ المظهر الثاني : الأذان في أذن المولود

وقد اعتمد ابن القيم في ذلك عدة أحاديث أحدها : (عن أبي رافع قال : رأيت رسول الله ﷺ « أذّن في أذن الحسن بن علي حين ولدته فاطمة » رواه أبو داود والترمذي وقالا حديث صحيح)[3] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٤ ـ ١٥

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥

(٣) المرجع السابقول ص ١٦

ولم نذكر الحديثين الآخرين لأن في سندهما ضعفاً كما قال ابن القيم . ثم ذكر بعض حكم هذه السنة وفوائدها فقال :

١ ـ « سرّ التأذين ، والله أعلم ، أن يكون أول ما يقرع سمع الإنسان كلماته المتضمنة لكبرياء الرب وعظمته ، والشهادة التي أول ما يدخل بها في الإسلام فكان ذلك كالتلقين له شعار الإسلام عند دخوله إلى الدنيا ، كما يلقن كلمة التوحيد عند خروجه منها »(١) . ثم قال في بيان **الأثر اللاشعوريّ** الذي تتركه الكلمات الأولى في المولود « وغير مستنكر وصول أثر التأذين إلى قلبه ، **وتأثره به ، وإن لم يشعر** »(٢) وقد ثبت ذلك في علم النفس مؤخراً .

٢ ـ « الفائدة الأخرى : هروب الشيطان من كلمات الأذان ، وهو كان يرصده ، حتى يولد فيقارنه ، للمحنة التي قدرها الله وشاءها ، فيسمع شيطانه ما يضعفه ويغيظه أول أوقات تعلّقه به »(٣) .

٣ ـ « وفيه معنى آخر وهو أن تكون دعوته إلى الله ، وإلى دينه الإسلام ، وإلى عبادته ، سابقة على دعوة الشيطان . كما كانت فطرة الله التي فطر الناس عليها سابقة على تغيير الشيطان لها ونقله عنها »(٤) .

(١، ٢) المرجع السابق ، ص ١٦

(٣، ٤) المرجع السابق ، ص ١٦

فهـذه ثلاث فوائـد تربويـة تقوم : (١) على أن الأذان يترك أثراً عميقاً في منطقة اللاشعور من نفس المولود (٢) وهـذا الأثر يـدعوه إلى الله (٣) ويبعده عن الشيطان .

٣ ـ **المظهر الثـالث من مظـاهر** اهتمام المجتمع المسلم بـالمـولـود : **العقيقة** أي الذبيحـة . وقـد نقل ابن القيم عن الإمـام مـالـك قولـه : « هذا الأمر لا خلافَ فيه عندنا »[٢] وقول يحي بن سعيد الأنصاري : « أدركت الناس وما يَدَعون العقيقة عن الغلام والجـاريـة »[٣] ثم نقل عن جمع من الصحابة أنهم يرون مشروعية العقيقة ، فدلّ على أن المجتمع المسلم كان ، بترغيب من رسول الله ﷺ ، يـذبـح الــذبـائـح ويقيم الـولائم ، فرحـاً بـالمـواليـد ، واستقبـالاً لهم ، وتعريفـاً بقـدومهم ، وما يزال الناس على هذه السنة إلى يومنا .

وقـد اهتم ابن القيم بـأحكام العقيقـة في اثنين وعشرين فصـلاً من كتابه ، فصّل فيها الأدلة[٤] ، وسبب تسميتهـا[٥] (عقيقـة) ، والوقت الذي تستحبّ[٦] فيه ، وأن المقصود بـالعقيقـة إراقـة الـدم ، فلا يجزئ

(١) المرجع السابق ، ص ١٩
(٢) المرجع السابق ، ص ١٩
(٣) المرجع السابق ، ص ١٩
(٤) المرجع السابق ، ص ٢٩ ـ ٣٣
(٥) المرجع السابق ، ص ٢٥ ـ ٢٨
(٦) المرجع السابق ، ص ٣٤

التصدق[1] بثمنها للفقراء ، وأن « كل غلام رهينة بعقيقة حتى يُذبح عنه »[2] كما ورد عن رسول الله ﷺ ، وأن مشروعيتها ثبتت عن الذكر والأنثى[3] : عن الغلام شاتان وعن الجارية شاة .

الفوائد التربوية والاجتماعية للعقيقة :

١ - الحفاوة بالمولود : وقد بيّن ابن القيم ذلك بقوله : « وشرع بوصف الذبح المتضمن لما ذكرناه من الحكم ، فلا أحسن ولا أحلى في القلوب من هذه الشريعة في المولود ، وعلى نحو هذا جرت سنة الولائم في المناكح وغيرها فإنها إظهار للفرح وللسرور بإقامة شرائع الإسلام ، وخروج نسمة مسلمة يكاثر بها رسول الله ﷺ الأمم يوم القيامة تعبداً لله .. »[4] .

٢ - وللعقيقة - عدا عن دلالتها الاجتماعية وهي التعبير عن الفرح والحفاوة - دلالة دينية دلّ عليها الحديث السابق (كل مولود رهينة بعقيقة) قال ابن القيم : « ومن فوائدها أنها فدية يفدى بها المولود ، كما فدى الله سبحانه إسماعيل الذبيح بالكبش .. وأخبر ﷺ أنّ ما يذبح عن المولود ، إنما ينبغي أن يكون على سبيل النسك ،

(١) المرجع السابق ، ص ٣٥

(٢) المرجع السابق ، ص ٣١

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٧

(٤) المرجع السابق ، ص ٤٠

كالأضحية ، والهدي ، فقال : « من أحب أن ينسك عن ولده فليفعل » فجعلها على سبيل النسك كالأضحية التي جعلها الله نسكاً وفداءً لإسماعيل عليه السلام وقربة إلى الله عز وجل ، وغير مستبعد في حكمة الله في شرعه وقدره ، أن تكون سبباً لحسن إنبات الولد ، ودوام سلامته وطول حياته ، في حفظه من ضرر الشيطان ، حتى يكون كل عضو منها فداء كل عضو منه .. »[١] وهكذا تكون العقيقة مصدر تفاؤل بالمولود واطمئنان على مستقبله .

٣ ـ ولها فائدة تربوية دلّ عليها هذا المعنى الأخير الذي شرحه ابن القيم بقوله :

« وقد جعل الله سبحانه النسيكة عن الولد سبباً لفك رهانه من الشيطان الذي يعلق به من حين خروجه إلى الدنيا ، ويطعن في خاصرته ، فكانت العقيقة فداءً وتخليصاً له من حبس الشيطان له .. ومنعه من السعي في مصالح آخرته التي إليها معاده[٢] ... فشرع الله سبحانه للوالدين أن يفكا رهانه بذبح يكون فداه »[٣] وفوق ذلك كله ، فهي شكر لله تعالى على ما وهب ورزق .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٩

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٢

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٣

وفي هذا كله توجيه غير مباشر للأبوين ، كي يربيا مولودهما تربية إسلامية ، حتى يكون ممن يباهي بهم رسول الله ﷺ ، وحتى يفتدوه بهذه التربية من غواية الشيطان ، ومن جميع سبل الشر والضلال التي تأسره وتمنعه من الخير .

٤ - وفيها أيضاً توجيه الأبوين إلى طاعة الله وذكر اسمه على العقيقة عند الذبح والاهتمام بالمولود والشكر عليه ، كما قال ابن القيم :

« قال أبو طالب : سألت أبا عبد الله[١] : إذا أراد الرجل أن يعق كيف يقول ؟ قال : يقول : بسم الله ، ويذبح على النيّة ، كما يضحّي بنيّته ، يقول : هذه عقيقة فلان بن فلان ، ولهذا يقول فيها : اللهم منك ولك . ويستحب فيها ما يستحب في الأضحية من الصدقة وتفريق اللحم ، فالذبيحة عن الولد فيها معنى القربان والشكران والفداء والصدقة وإطعام الطعام عند حوادث السرور العظام ، شكراً لله ، وإظهاراً لنعمته التي هي غاية المقصود من النكاح ، فإذا شرع للنكاح إطعام الطعام ، والنكاح هو الوسيلة إلى حصول هذه النعمة ، فلأن تشرع عند الغاية المطلوبة أولى وأحرى »[٢] .

---

(١) يعني أحمد بن حنبل .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٠

وكانت العقيقة معروفة قبل الإسلام فأبقاها الإسلام ونهى عن المساوئ التي كانت قد تسربت من عادات الوثنية إلى هذا النُّسُك ـ الذي ربما كان موروثاً عن الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام ـ كتلطيخ[1] رأس المولود بالدم تبركاً به ، فأزال الإسلام هذه العادة الجاهلية الوثنية وأبدلهم بها سنة إسلامية صحية ، كما سنرى في الفقرة التالية .

٤ ـ **المظهر الرابع من مظاهر الحفاوة والاهتمام بصحة المولود وجماله ، حلق شعر رأسه والتصدق بوزنه ذهباً أو فضة .**

(عن عليّ أنّ رسول الله ﷺ قال لفاطمة : « زني شعر الحسين وتصدّقي بوزنه فضة » رواه البيهقي من حديث حسين[☆] بن زيد) . قال ابن القيم : « ولما أقرَّ رسول الله العقيقة في الإسلام وأكد أمرها .. نهاهم أن يجعلوا على رأس الصبي من الدم شيئاً ، وسنَّ لهم أن يجعلوا عليه شيئاً من الزعفران ، لأنهم في الجاهلية إنما كانوا يلطخون رأس المولود بدم العقيقة تبرّكاً به .. فأمر بترك ذلك لما فيه من التشبه

(١) ما يزال شيء من هذه العادة سارياً في بعض المجتمعات ، وأذكر منذ طفولتي أن قريباً لنا ذبح ذبيحة لأحد أولاده (فَدْواً) فوسم جبينه بطبعة من الدم بأصبعه .

(☆) المرجع السابق ، ص ٤٩ ولفظه (أن رسول الله ﷺ أمر فاطمة فقال ...) وانظر المرجع السابق ص ٥٧ ـ ٥٩ ففيه ألفاظ وروايات أخرى للحديث وحديث آخر يتحدث عن إبراهيم ولد رسول الله ﷺ .

بـالمشركين ، وعُوِّضوا بمـا هو أنفع للأبوين وللمولود وللمسـاكين ، وهو حلق رأس الطفل ، والتصدّق بزِنَةِ شعره ذهبـاً أو فضـة . وسنّ لهم أن يلطخوا الرأس بـالزعفران الطيب الرائحـة ، الحسن اللون ، بـدلاً عن الدم الخبيث الرائحة ، النجس العين .. »[1] .

ثم بين الفوائد الصحية لهذه السنة فقال :

« وكان حلق رأسه إماطة الأذى عنـه ، وإزالـة الشعر الضعيف ، ليخلفه شعر أقوى وأمكن وأنفع للرأس ، مع مـا فيـه من التخفيف عن الصبي وفتح مسام الرأس .. وفي ذلك تقوية بصره وشمه وسمعه »[2] .

الفوائـد التربويـة في هـذه السنـة : (أ) فـوائـد صحيـة للمـولـود (ب) وفوائد اجتماعية ـ اقتصادية ، تنتج عن الصدقة وانتفـاع الفقراء بها (جـ) وفوائد دينية تحصل بالنية . وقصـد التقرب إلى الله بـاتبـاع هذه السنة النبويـة ، وابتغـاء مرضـاة الله ، بـالصـدقـة والائتمار بـأمر رسول الله ﷺ ، وترك العادات الوثنية الجاهلية ، كالتلطيخ بالـدم . (د) ومنهـا تجميل رأس المـولـود بخروج شعره كثيفـاً متنـاظراً ، فقـد (ثبت في الصحيحين من حديث عبـد الله بن عمر : عن عمر بن نـافع

(١،٢) المرجع السابق ، ص ٤٠ ـ ٤١

عن أبيه عن ابن عمر قال : « نهى رسول الله ﷺ عن القزع[1] ـ والقزع أن يحلق بعض رأس الصبي ويدع بعضه »)[2] .

واعتبر ابن تيمية ، شيخ ابن القيم ، القزع من ظلم الرأس ، والنهي عنه من العدل الذي كان ﷺ يحرص عليه في كل شيء كما نقل عنه ابن القيّم بقوله :

« قال شيخنا : وهذا من كمال محبة الله ورسوله للعدل ، فإنه أمر به حتى في شأن الإنسان مع نفسه ، فنهاه أن يحلق بعض رأسه ويترك بعضه ، لأنه ظلم للرأس ، حيث ترك بعضه كاسياً وبعضه عارياً ، ونظيره : « نهى أن يمشي الرجل في نعل واحدة ، بل إما أن ينعلهما ، أو يحفيهما » والقزع أربعة أنواع :

أحدها أن يحلق من رأسه مواضع من هاهنا وهاهنا . مأخوذ من تقزُّع السحاب وهو تقطّعه .

الثاني أن يحلق وسطه ويترك جوانبه ، كما يفعله شمامسة النصارى .

---

(١) القَزَعُ : قِطَع من السحاب .. وصغار الإبل . وأن يحلق رأس الصبي وتترك مواضع منه متفرقة غير محلوقة تشبيهاً بقَزَع السحاب .. (القاموس المحيط ٦٨/٣ للفيروزابادي) .

(٢) تحفة المودود ، ص ٥٩ (مرجع سابق) .

الثالث أن يحلق جوانبه ويترك وسطه ، كما يفعله كثير من الأوباش والسفل[1] .

الرابع أن يحلق مقدمه ويترك مؤخره .

وهذا كله من القزع والله أعلم »[2] والنهي عنه من طلب الكمال والجمال ، كما هو دأب التربية الإسلامية .

٥ ـ المظهر الخامس من مظاهر الاهتمام بالمولود في الأسبوع الأول من ولادته :

العناية بانتقاء اسم المولود لأهمية ذلك في حياته وقد قسمت هذا البحث كما يلي :

أ ـ وقت التسمية :

يستحب التعجيل بالتسمية لئلا يبقى المولود مجهول الاسم مدة طويلة ، كما قال ابن القيم في الفصل الأول من هذا الباب ، وقد عقده لبيان وقت التسمية فقال : « إن التسمية لما كانت حقيقتها تعريف

---

(١) السُّفل نقيض العَلو . وسِفْلة الناس : أسافِلهم وغوغاؤهم .. القاموس ٣٩٦/٣ (مرجع سابق) . قلت : ويمكن أن يوصف بالمصدر أو اسمه (السفل) أي (الدون) من الناس كما يقولون .

(٢) تحفة المودود ، ص ٥٩ (مرجع سابق) .

الشيء المسمى ، لأنه إذا وجد وهو مجهول الاسم لم يكن له ما يقع تعريفه به ، فجاز تعريفه يوم وجوده ، وجاز تأخير التعريف إلى ثلاثة أيام ، وجاز إلى يوم العقيقة عنه ، ويجوز قبل ذلك وبعده ، والأمر فيه واسع »[1] فأنت ترى كيف بدأ باستحباب التعجيل ، ثم ترك الأمر على سعته مراعاة لظروف الناس .

ب ـ **تحسين الاسم** ، أو حسن انتقائه ، لما بين الاسم والمسمى من علاقة تؤثر في سلوك المولود ومستقبله ، لذلك قال ابن القيم في بيان أثر الاسم على مسمّاه :

« وبالجملة فالأخلاق والأعمال والأفعال القبيحة تستدعي أسماء تناسبها ، وأضدادها تستدعي أسماء تناسبها ، وكما أن ذلك ثابت في أسماء الأوصاف ، فهو كذلك في أسماء الأعلام ، وما سمى رسول الله ﷺ محمداً وأحمد ، إلا لكثرة خصال الحمد فيه ، ولهذا كان لواء الحمد بيده ، وأمّته الحمّادون ، وهو أعظم الخلق حمداً لربه تعالى ، ولهذا أمر رسول الله عليه الصلاة والسلام ، بتحسين الأسماء فقال : « حسنوا أسماءكم » فإن صاحب الاسم الحسن قد يستحيي من اسمه ، وقد يحمله اسمه على فعل ما يناسبه وترك ما يضاده ، ولهذا ترى أكثر السفل أسماؤهم تناسبهم ، وأكثر العلية أسماؤهم تناسبهم »[2] .

---

(١) تحفة المودود ، ص ٦٥ (مرجع سابق) .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٦

واشتق ابن القيم هذا الارتباط بين الأسماء ومعانيها من السنة النبوية فقال : « ومن تأمل السنة وجد معانيَ في الأسماء مرتبطة بها ، حتى كأن معانيها مأخوذة ، وكأن الأسماء مشتقة من معانيها . فتأملْ قوله عليه الصلاة والسلام : « أسلمُ سلّمها الله ، وغفار غفر الله لها ، وعصيّة عصت الله » وقوله ـ لما جاء سهيل بن عمرو يوم الصلح ـ : « سهّل الله أمركم ! » وقوله لبريدة ـ لما سأله عن اسمه فقال (بريدة) قال ﷺ : « يا أبا بكر ! برد أمرنا » ثم قال : « ممن أنت ؟ » قال : (من أسلم) فقال لأبي بكر : « سَلِمنا » . ثم قال : « ممّن ؟ » قال : (من سهم) قال : « خرج سهمك » ... وإذا أردت أن تعرف تأثير الأسماء في مسمياتها ، فتأمل حديث سعيد بن المسيب عن أبيه عن جده قال :

أتيت إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، فقال : « ما اسمك ؟ » قلت : حزن . فقال : « أنت سهل ! » قال : لا أغير اسماً سمّانيه أبي ! . قال ابن المسيب : فما زالت تلك الحزونة فينا بعد ! . رواه البخاريّ في صحيحه ، والحزونة : الغلظة .

وتأمّل ما رواه مالك ، في الموطّأ ، عن يحيى بن سعيد : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لرجل : ما اسمك ؟ قال : جمرة . قال : ابن من ؟ قال : ابن شهاب . قال : ممن ؟ قال : من الحرقة . قال : أين مسكنك ؟ قال : بحرَّة النار . قال : بأيّتِها ؟ قال : بذات

لَظى . قال عمر : أدرك أهلك فقد هلكوا واحترقوا . فكان كما قال عمر »[1] . وفي رواية الشعبي : « فأتاهم فألفاهم قد احترق عامّتهم »[2] .

فدلَّ كلامه وما ساقه من أدلة ووقائع على أن من حسن تربية المولود تسميته باسم ذي معنى جميل ليؤثر فيه وفي سلوكه أثراً حميداً ويدفعه إلى الأعمال الحميدة ، ويحمده الناس به ، ويتفاءلون إذا نادوه به ، وهذا يدعونا إلى بحث (التأثير الاجتماعي للاسم) .

جـ ـ الأثر الاجتماعي للاسم الحسن أو القبيح :

من طبائع الناس ـ وخاصة منهم ذوو المشاعر المرهفة والنفوس الطيبة ـ أن يتفاءلوا بمعاني الأسماء الجميلة ، ويقبلوا على صاحبها بالبشر وحسن التعامل ، وأن يتوقفوا عند الأسماء ذات المعاني التي تكرهها النفوس ، أو يتوجسوا خيفة من أصحابها . وقد أورد ابن القيم عدة أمثلة على ذلك وعقد فصلاً لهذا قال :

« ومنها الأسماء التي لها معان تكرهها النفوس ولا تلائمها ، كحرب ، ومرّة ، وكلب ، وحية ، وأشباهها ، وقد تقدم في الأثر الذي ذكره مالك في مُوَطّئه : أن رسول الله ﷺ قال لِلَقْحَةٍ[☆] : من

(١، ٢) المرجع السابق ، ص ٧٠ ـ ٧١

(☆) أي قال مشيراً إلى شاة حلوب ، سميت كذلك بعد أن لقحها الكبش فحملت فدرّ ضرعها .

يحلب هذه ؟ فقام رجل فقال : أنا ! فقال : ماسمك ؟ قال الرجل : (مُرة) فقال له : اجلس . ثم قال : من يحلب هذه ؟ فقام رجل آخر فقال له : ماسمك ؟ قال : (حرب) فقال له : اجلس . ثم قال : من يحلب هذه ؟ فقام رجل ، فقال : أنا ، قال : ماسمك ؟ قال : (يعيش) فقال له رسول الله عليه الصلاة والسلام : احلب . فكره مباشرة المسمّى بالاسم المكروه لحلب الشاة »[1] أو كأنه كره أن يشرب الحليب من حلْبهِ ، أو من يده .

فإذا أرادَ الأب أن يكون ابنه محبوباً مقبولاً في مجتمعه فليختر له الاسم المقبول أو المحبوب في هذا المجتمع . ولذلك بيّن لنا النبي ﷺ ما يستحب من الأسماء ، وكره الرسول ﷺ أسماء يكرهها المجتمع الإسلامي ، وحرم أسماء يحرمها المجتمع لمنافاتها معاني الإسلامي وعقيدة التوحيد . وعقد ابن القيم لكلٍّ فصلاً في كتابه (تحفة المودود) لخصنا منهما ما يلي :

أمّا ما يُستحب من الأسماء : فالأصل فيه :

أ - عموم حديث ورد (عن أبي الدرداء ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم ،

(١) المرجع السابق ، ص ٧٠

فأحسنوا أسماءكم »)[1] . فترك الأمر للمسلمين ليستحسنوا ما يجدونه حسناً من الأسماء ...

٢ً ـ **أحب الأسماء إلى الله** ، وقد ورد فيها عدة أحاديث أصحها : (عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أحب أسمائكم إلى الله (عبد الله وعبد الرحمن) » رواه مسلم في صحيحه)[2] فهذان نموذجان لما يحب الله من الأسماء .

٣ً ـ **مقاييس عامة للأسماء المستحسنة** . منها :

أَ ـ **أسماء الأنبياء** لما ورد (عن أبي وهب الجشميّ قال : قال رسول الله ﷺ : تسمّوا بأسماء الأنبياء ...)[3] وبهذا يتاح للمسمّى الاقتداء بالنبي الذي سمي باسمه ، واتخاذه نموذجاً ، وقراءة سيرته وأخباره ...

بَ ـ **ماأضيف إلى الله للدلالة على إخلاص العبودية له** . قال ابن القيم : « قال أبو محمد ابن حزم : اتفقوا على استحسان الأسماء المضافة إلى الله ، كعبد الله وعبد الرحمن ، وما أشبه ذلك »[4] وهذا يدعو المسمى إلى الشعور الدائم بالانتماء إلى الله ، وحزبه ، وإلى طاعة أوامره واتباع رسوله ...

(١، ٢، ٣، ٤) المرجع السابق ، ص ٦٦

جـ ـ مايدل على صفات صادقة للجنس البشري لقوله ﷺ في حديث : « تسموا بأسماء الأنبياء ، وأحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن وأصدقها **الحارث وهمام** »[1] فدل على استحباب تحرّي الصدق والواقعية وعدم المبالغة وذلك بتسمية الحارث وهمام ونحوهما .

د ـ وأما مايكره فهو على درجات قد تصل إلى التحريم نذكر منها :

أ ـ تسمية الإنسان اسماً ينطوي على صفة يكرهها أو يسخر منها المجتمع ، قال ابن القيم بعد إيراد آية ﴿ ولا تنابزوا بالألقاب ﴾ :

« ولا خلاف في تحريم تلقيب الإنسان بما يكرهه ، سواء كان فيه أو لم يكن »[2] كالأعرج والأعمش ونحو ذلك .

ثم قال ، بعد ذكر الفرق بين الاسم واللقب والكنية ، مبيناً كراهية المبالغة في الألقاب : « وهذا هو الذي كانت تعرفه العرب ، وعليه مدار مخاطباتهم ، وأما فلان الدين ، وعز الدين ، وعز الدولة ، وبهاء الدولة ؛ فإنهم لم يكونوا يعرفون ذلك ، وإنما أتى هذا من قبل العجم »[3] ويُشتمُّ من كلامه كراهته للمبالغة في المدح عن طريق الألقاب الفخمة التي لاتصدُق على من أطلقت عليه من

(١) المرجع السابق ص ٦٦

(٢،٣) المرجع السابق ، ص ٨٠

السلاطين أو الأمراء أو العلماء ، أو يقصد بها التعالي وتزكية النفس وهذا ما كرهه الرسول ﷺ لإحدى زوجاته فغيّر اسمها كما ثبت « في صحيح البخاريّ عن أبي هريرة أن (زينب) كان اسمها (بَرّة) فقيل : تُزكّي نفسها ! فسماها رسول الله ﷺ (زينب) »[1] ليبعد عنها كلام الناس ، ونقد المجتمع لذلك الاسم : كلما نوديت به حزّ في نفسها ما يقال عنه من أنها تزكي نفسها به .

فكره ابن القيم نوعين من الأسماء :

ألقاب أو أسماء يكرهها المسمّى ، أو تجعله موضع سخرية وهمز ونبز .. وألقاب فيها مبالغة ، لا تنطبق على المسمّى بل يراد بها الشهرة والمباهاة . وكلاهما يترك أثراً نفسياً وتربوياً سيئاً ، فالأول يورث إحباطاً في النفس أو عدواناً على المجتمع ، والثاني يورث غروراً واستهتاراً ، أو تعالياً وتعاظماً !.. ويصبح الناشئ في كلا الحالين غير سوي في سلوكه وتعامله .

٢ ـ تسمية المولود باسم يفيد العبودية لغير الله . قال ابن القيم : « قال أبو محمد ابن حزم : (اتفقوا على تحريم كل اسم معبّد لغير الله :

---

(١) المرجع السابق ، ص ٧٦ وانظر صحيح البخاري برقم ٥٨٣٩ ٢٢٨٩/٥ (مرجع سابق) .

كعبد العزّى ، وعبد هبل ، وعبد عمرو ، وعبد الكعبة) فلا تحل التسمية بعبد علي ، ولا عبد الحسين »[1] .

وهذا لا يمنع من الإخبار عمن سبق أن سموا بمثل هذه الأسماء ، وفي هذا يقول ابن القيم :

« وأما قوله - ﷺ - أنا ابن عبد المطلب ، فهذا ليس من باب إنشاء التسمية بذلك ، وإنما هو من باب الإخبار بالاسم الذي عرف به المسمى دون غيره ، والإخبار بمثل ذلك على وجه تعريف المسمى لا يحرم فقد كان الصحابة يسمون بني عبد شمس ، وبني عبد الدار ، يُذكرون بأسمائهم هذه ولا ينكر عليهم النبي ﷺ ، فباب الإخبار أوسع من باب الإنشاء ، فيجوز فيه ما لا يجوز في الإنشاء »[2] .

وحرمت هذه التسمية لما تتركه في نفس الناشئ من الشعور بالعبودية والذل لغير الله . مما قد يؤثر في عقيدته وفطرته الموحدة ، وقد انتشر ذلك في بعض الطوائف اليوم ، وعولجت هذه المشكلة في المملكة العربية السعودية بإضافة كلمة رب على أسماء الوافدين الذين سبقت لهم هذه التسمية المحرمة ، فيصبح (عبد رب الحسين) بدلاً من (عبد الحسين) و (عبد رب الرسول) وهكذا دواليك ، فجزى الله

---

(١) تحفة المودود (مرجع سابق) ص ٦٦

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٧

علماءها وحكامها عن المسلمين خير الجزاء وهذا أسلوب ميسّر لمن يريد تغيير اسمه إن كان من هذا القبيل .

٣ً ـ تسمية المولود أو غيره باسم يضاهي أسماء الله ، كملك الملوك وسلطان السلاطين ، أو بأسماء الرب تبارك وتعالى ، أو صاحب الجلالة ...

أ ـ « فلا يجوز التسمية بالأحد والصمد ، ولا بالخالق ، ولا بالرازق ، وكذلك سائر الأسماء المختصة بالرب تبارك وتعالى ولا تجوز تسمية الملوك بالقاهر والظاهر ، كما لا يجوز تسميتهم بالجبار والمتكبر ، والأول والآخر والباطن »[1] . ثم نقل عن أبي داود في سننه ، بسنده عن شريح عن أبيه هانئ (أنه لما وفد إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى المدينة مع قومه ، سمعهم يكنونه بأبي الحكم ، فدعاه عليه الصلاة والسلام ، فقال : « إن الله هو الحكم ، وإليه الحكم . فَلِمَ تُكْنَى أبا الحكم ؟ » فقال : إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني ، فحكمت بينهم ، فرضي كلا الفريقين . فقال رسول الله ﷺ : « ماأحسن هذا ! فمالك من الولد ؟ » قال : لي شريح ، ومسلمة ، وعبد الله . قال : « فمن أكبرهم ؟ » قلت : شُرَيح . قال : « فأنت أبو شريح »)[2] . وقد حرمت هذه الأسماء لما تتركه في النفس من

(١،٢) المرجع السابق ، ص ٧٣ ـ ٧٤

الطغيـان والظلم ونشر الفسـاد والغرور كما قـال تعـالى : ﴿ إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم ﴾ .

بَ ـ وأما الأسماء التي تضاهي أسماء الله ، فحرّمها رسول الله ﷺ بقولـه : (« أَغْيَـظُ رجل عنـد الله يوم القيـامـة : رجـل يسمى ملـك الأمـلاك ؛ لا ملـك إلا الله » رواه مسلم)[1] . ويُلحـق بهـذا كراهـة التسمّي بما اختص به الرسول من الصفات ، قال ابن القيم : « وكذلـك تحرم التسمية بـ (سيد النـاس) و (سيـد الكل) كما يحرم (سيـد ولـد آدم) فإن هذا ليس لأحد إلاّ لرسول الله ﷺ وحده »[2] .

جـَ ـ « وأمـا الأسماء التي تطلـق عليـه ـ سبحـانـه ـ وعلى غيره ، كالسميع والبصير ، والرؤوف والرحيم ، فيجـوز أن يُخبَر بمعـانيهـا عن المخلوق ، ولا يجوز أن يُتسمّى بها على الإطلاق ، بحيث يطلق عليه كما يطلق على الرب تعالى »[3] .

٤ً ـ التسمية بأسماء القرآن وسوره . قال ابن القيم :

« ومما يُمنَع منـه : التسميـة بـأسماء القرآن وسوره مثل : (طـه) و (يّسَ) و (حمّ) وقد نصّ مالك على كراهة التسميـة بـ (يّس) . ذكره السهيلي . وأمـا مـا يـذكره العـوام : أن (يّسَ) و (طــه) من

(١، ٢) المرجع السابق ، ص ٦٧ ـ ٦٨

(٣) المرجع السابق ، ص ٧٤

أسماء النبي عليه الصلاة والسلام ، فغير صحيح ، ليس في ذلك حديث صحيح ، ولا حسن ، ولا مرسل ، ولا أثر عن صحابي وإنما هذه الحروف : مثل (الۤمۤ) ، و (حۤمۤ) ، و (الۤرۤ) ونحوها »[1] .

وحكمة هذا المنع ظاهرة ، فهي ألفاظ افتتحت بها سور القرآن وحروف من المعجم ، لم تتداول بين الناس بمعنى معين مقصود ، فلا علاقة لها بأسماء البشر . والتسمية بها من قبيل وضع الشيء في غير موضعه ، أو ابتذال هذه الألفاظ القرآنية التي افتتحت بها بعض السور لبيان أهميتها ، أو لبيان عجز البشر عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن مع أنه مركب من نفس الحروف التي يركّبون منها كلامهم ... كالطاء ، والهاء ، والياء ، والسين ...

هـ ـ ومما يلحق بهذا المبحث : (تغيير اسم المولود أو الكبير باسم آخر لمصلحة تقتضيه)[☆] . فقد غيّر النبي ﷺ اسم (عاصية) وقال : أنت (جميلة) . واسم (برّة) إلى (زينب) ، واسم (أصْرَم) إلى (زرعة) ...

قال أبو داود : وغيّر رسول الله ﷺ اسم العاص ، وعزيز ،

---

(١) المرجع السابق ، ص ٧٤ ـ ٧٥

(☆) بهذا المعنى عنون ابن القيم الفصل الثالث ص ٧٦ ، من الباب الثامن ص ٥٩ الذي خصصه لتسمية المولود وأحكامها وفيه عشرة فصول عرضنا أهمها .

وعقلة ، وشيطان ، والحكم ، وغراب ، وشهاب ، وحباب ، فسماه هاشماً . وسمى (حرباً) : (سلماً) ، وسمّى (المضطجع) : (المنبعث) قال أبو داود : تركت أسانيدها للاختصار[1] ..

وكل هذه الأسماء بدّلت لمعناها السيئ فاستبدل به ضده على الأغلب إلاّ (برّة) وقد مرَّ معنا سبب تغييره . وغيّر اسم (العاصي) فسماه (مطيعاً)[2] .

لكن هذا التبديل لم يكن على سبيل الوجوب دائماً ، بل كان على سبيل الاستحباب غالباً ؛ يدلّ على ذلك أن جدّ التابعي العالم الجليل (سعيد بن المسيب) لم يرض أن يغير اسمه ، وقال : لاأغيّر اسماً سمّانيهُ أبي[3] - كما مرَّ معنا - فلم يعاتبه النبي ﷺ ولو عاتبه أو أجبره لنُقِل إلينا ، والحديث رواه البخاري في صحيحه[4] .

وأياً كانت الدرجة التشريعية لتبديل الاسم ، فهو من سنن الإسلام التربوية ، أي من السنن ذات الأثر التربوي المفيد ، فكم من

---

(١) المرجع السابق ، ص ٧٦

(٢) المرجع السابق ، ص ٧٧ . رواه ابن أبي شيبة في مصنفه بلفظ « لم يدرك الإسلام من عصاة قريش غير مطيع ، وكان اسمه العاصي فسماه الرسول مطيعاً » .

(٣،٤) المرجع السابق ص ٧١ ، وكان اسمه (حزناً) فقال له النبي ﷺ : أنت سهل فقال : لاأغير اسماً ... والحديث قد سبق ذكره بتمامه وانظر صحيح البخاري برقم ٥٨٤٠ ٥/٢٢٨٩ (مرجع سابق) .

اسم وَعْرٍ موحش ترك صاحبه معقّداً ، وكم من اسم مضحك جعل مسمّاه هزأة بين الناس ، لا يعرف لنفسه قيمة ولا وزناً ؛ ولا علاج له إلاّ أن يبدأ لنفسه حياة جديدة وعلاقات جديدة باسم مشرق جديد ! وذلك كله متوقف على قناعة المسمى وموافقته ، لذلك لم يجبر الرسول ﷺ أحداً على تغيير اسمه لكنه عرض عليهم فوافقوا ، وكان المجتمع من حولهم متعاوناً معهم ، رفيقاً بهم ، إيجابياً نحوهم في كل شيء ، ينهض بهم ، ويهيئ لهم كل الظروف المواتية للتكيف مع الاسم الجديد ، ومع كل متطلباته ونتائجه وهكذا سلك الرسول ﷺ بأمته مَسْلك الحكمة والتدرّج في تغيير الأسماء ذات الطابع الجاهلي . وتغيير الأسماء من الوسائل المتبعة لتغيير نظام المجتمع وتوجيهه وجهة جديدة ، وهذا مافعله الرسول ﷺ لتحويل الأمة من مجتمع جاهلي إلى مجتمع إسلامي .

٦ ـ المظهر السادس من مظاهر الاهتمام بالمولود :

الختان : ويمكن بيان معناه وفوائده ومشروعيته ووقته في عدة فصول كما فعل ابن القيم :

١ ـ معناه واشتقاقه :

في القاموس المحيط : « ختن الولد يَختِنُه (بالضم والكسر) فهو

ختين ومختون : قطع غرلته »[1] « والختـان : اسم لفعل الخـاتن ، وهو مصـدر ، كالنزال والقتـال .. يُقـال : ختنت الغلام ختنـاً ، وخفضت الجارية خفضاً .. والقلفة والغرلة هي الجلـدة التي تقطع »[2] من رأس الـذكر « وأمـا ختـان المرأة ، فهي جلـدة كعرف الـديـك فـوق الفرج »[3] .

٢ ـ مشروعيته :

لمـا كانت آراء ابن القيم مبنيـة على أن المربي الأول هـو الله وهـو المشرع للأحكام التربوية ، نـاسب أن يـذكر لنـا كيف شرع الله هـذه السنة التربوية لأبي الأنبيـاء ، إذ بـدأت مشروعيـة الختـان منـذ عهـد إبراهيم أبي العرب وأبي الأنبياء . (ففي صحيح البخـاري من حـديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي عليه السلام : « اختتن إبراهيم وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم » قال يحي بن سعيد : والقـدوم الفـأس)[4] ثم حضّ عليه النبي ﷺ وجعلـه من الفطرة كما ثبت (في الصحيحين من حـديث أبي هريرة قـال : قـال رسـول الله ﷺ : « الفطـرة خمس :

(١) القاموس المحيط ٢١٨/٤ (مرجع سابق) .
(٢) تحفة المودود ، ص ٨٨
(٣) المرجع السابق ، ص ٨٩
(٤) المرجع السابق ، ص ٨٩ ـ ٩٠

الختـان ، والاستحـداد ، وقص الشـارب ، وتقليم الأظفـار ، ونتف الإبط » فجعل الختان رأس خصال الفطرة)[١] .

« والفطرة فطرتـان : فطرة تتعلـق بـالقلب ، وهي معرفـة الله ومحبته وإيثـاره على مـاسواه ، وفطرة عمليـة ، وهي هـذه الخصـال ، وكان رأس فطرة البدن الختان »[٢] .

وأمـا درجـة مشروعيتـه فهي بين الوجـوب والاستحبـاب « على خلاف بين الفقهاء : فقال الشعبي وربيعة والأوزاعي ويحي بن سعيـد الأنصاري ومالك والشافعيّ وأحمد : (هو واجب) . وشدد فيه مالك حتى قال : (من لم يختتن لم تَجُزْ إمـامتـه ولم تقبل شهـادتـه) . ونقل كثير من الفقهاء عن مالك (أنه سنّة) ، حتى قـال القـاضي عيـاض : الاختتان عند مالك وعـامـة العلمـاء سنـة ، ولكن السنـة عنـدهم يؤثم بتركها . فهم يطلقونها على مرتبة بين الفرض وبين الندب .

ونص أحمد في رواية : لا يجب على النساء .. »[٣] .

٣ ـ وأما وقته فيمتد من اليوم السابع إلى ماقبل البلوغ .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٩٣

(٢) المرجع السابق ص ٩٤

(٣) المرجع السابق ، ص ٩٥

يقول ابن عباس : « قبض رسول الله ﷺ وأنا ختين أو مختون (رواه البخاري) »[١] . « والذي عليه أكثر أهل السِّيَر والإخبار أن سنّه كان يوم وفاة النبي ﷺ ثلاث عشرة سنة »[٢] .

ولقول أحمد بن حنبل : « وإن ختن يوم السابع فلا بأس .. وسئل وهب بن منبه عن ذلك فقال : إنما يستحب ذلك في اليوم السابع لخِفّته على الصبيان ، فإن المولود يولد وهو خدر الجسد ، لا يجد ألم ما أصابه سبعاً ، وإذا لم يختن لذلك فدعوه حتى يقوى »[٣] أي إذا لم يُختَن لحين ذلك اليوم السابع فاتركوه حتى يقوى على تحمّل ألم الختان .

٤ ـ وأما فوائده وحكمه فهي : أ ـ تكميل الفطرة . بَ ـ وتكميل الحنيفية .

أ ـ قال ابن القيم : « إنه من محاسن الشرائع التي شرعها الله سبحانه لعباده ، وكمّل بها محاسنهم الظاهرة والباطنة ، فهو مكمل الفطرة التي فطرهم عليها »[٤] كقصّ الظفر والشارب وحلق العانة ونتف الإبط وكلها أعمال يقتضيها مافطر الإنسان عليه من حب

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٠٦

(٢) المرجع السابق ، ص ١٠٧

(٣) المرجع السابق ، ص ١٠٨

(٤) المرجع السابق ، ص ١٠٩

النظافة والتجميل ، والبعد عن القذارة والقبح ، والتخلص من الروائح والأوساخ والنجاسات التي تعلق إمّا في الشعر حول الفرج ، وإما في الغرلة في آخر مجرى البول عند خروجه . قال ابن القيم :

« فالغرلة أقبح في موضعها من الظفر الطويل ، والشارب الطويل ، والعانة الفاحشة الطول ، ولا يخفى على ذي الحسّ السليم قبح الغرلة وما في إزالتها من التحسين والتنظيف والتزيين .. »[1] .

بَ ـ وأما تكميل الحنيفية « فإن الله عز وجل لما عاهد إبراهيم ووعده أن يجعله للناس إماماً ، وعده أن يكون الأنبياء والملوك من صلبه ، وأن يكثر نسله ، وأخبره أنّه جاعِلٌ بينه وبين نسله علامة العهد أن يختنوا كل مولود منهم ، ويكون عهدي هذا ميسماً في أجسادهم . فالختان علم للدخول في ملة إبراهيم ، وهذا موافق لتأويل من تأوّل قوله تعالى : ﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ﴾ على الختان .

فالختان للحنفاء بمنزلة الصبغ والتعميد لعبّاد الصليب .. »[2]
و « صبغة الله هي الحنيفية التي صبغت القلوب بمعرفته ومحبته ، والإخلاص له ، وعبادته وحده لا شريك له ، وصبغة الأبدان بخصال

---

(١) المرجع السابق ، ص ١١١

(٢) المرجع السابق ، ص ١٠٩ ـ ١١٠

الفطرة : من الختـان والاستحـداد وقص الشـارب وتقليم الأظفـار ... فظهرت (فطرة الله) على قلوب الحنفاء وأبدانهم ... فلا صبغة أحسن من الإسـلام ولا أطهر ... مـع مـا في الختـان من الطهـارة والنظـافـة وتعديل الشهوة »[1] .

(١) المرجع السابق ، ص ١١٠ ـ ١١١

الفصل الثالث

فترة الرضاع

وتظهر عناية التربية الإسلامية بالرضيع في عدة مظاهر نأخذ منها ماوجدنا عند ابن القيم ، فقد اهتم بأيام الرضاع الأولى وضرورة الاسترضاع ، وبمسؤولية الإرضاع ومدته ، وببكاء الرضيع ، وقماطه ، وبنبات الأسنان وما يرافقه من أعراض وقَيءٍ أو إسهال أو عكسه ، وبالفطام والتدرّج فيه ، وسنتكلم عن كل من هذه المظاهر لإيضاح ماجاء فيها عن ابن القيم

١ ـ بدء الرضاع :

ففي أيام الرضاع الأولى يرى ابن القيم « أن يكون رضاع المولود من غير أمه بعد وضعه يومين أو ثلاثة ، وهو الأجْوَد ، لما في لبنها ـ ذلك الوقت ـ من الغلظ والأخلاط »[1] ، مما يسبب قلة لبنها ، مع شدة حاجة المولود إلى الغذاء بعد انتقاله المفاجئ وانقطاعه عن التغذي من رحم أمه وما عاناه من هذا الانتقال .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٣٧

« بخـلاف لبن من قـد استقلت على الرضـاع »[1] ، أي استمرت عليه مما يجعل لبنها أكثر سيولة وإدراراً . « وكل العرب تعتني بـذلـك حتى تسترضع أولادها عنـد نساء البـوادي .. »[2] ، وفي هـذا رحمـة بالنفساء التي خرجت من معركة المخاض ضعيفة مهزولـة لا تقوى على العناية بمولودها .

٢ ـ العناية بالرضيع :

وقد ظهرت هذه العناية عند ابن القيم في عدة أمور :

الأمر الأول من مظاهر العناية بالأطفال الرضّع :

« أن يمنع من حملهم والتطواف بهم ، حتى يأتي عليـه ثلاثـة أشهر فصاعداً ، لقرب عهدهم ببطون الأمهات ، وضعف أبدانهم »[3] . ولئلا يعرضهم ذلـك إلى الإزعـاج ، أو الصّـدمـات ، أو التردّي والـوقـوع ، أو نقل الأمراض ، أو التـأثر بـالبرد الشـديـد أو الحرّ الشـديـد . فكل هـذه الأمـور لا تتحملهـا أجسـامهم الغضـة الضعيفـة في هـذه الأشهر الأولى . وكذلك الانتقال بهم فجـأة من الـدفء إلى البرد ، ومن الظل إلى الشمس ، قـد يـؤذي أبصـارهم أو رئـاتهم ، فيعرضهم إلى الرمـد أو النزلات الصدرية ...

(١، ٢، ٣) المرجع السابق ، ص ١٣٧

المظهر الثاني من مظاهر العناية بالرُّضّع :

« أن يُقتصَر بهم على اللبن وحده ، إلى نبات أسنانهم ، لضعف معدتهم ، وقوتهم الهاضمة عن الطعام »[1] .

وبهذا سبق ابن القيم إلى توعية الأمهات ، وتحريضهن على الإرضاع ، وقصر تغذية أولادهنّ على لبن الأمومة ؛ لما فيه من مناعة لهم من أمراض الهضم والمعدة والأمعاء وغيرها ، إلى حين قدرتهم على تناول الطعام ، كما قال عن المولود :

« فإذا نبتت أسنانه قويت معدته ، وتغذى بالطعام ، فإن الله سبحانه أخّر إنباتها إلى وقت حاجته إلى الطعام ، لحكمته ولطفه ، ورحمة منه بالأم وحلمة ثديها ، فلا يعضه الولد بأسنانه »[2] .

فدلت عبارته الأخيرة على أنه إنما يعنى باقتصار المولود على اللبن وحده ، يعني لبن الأم أو المرضعة ولا غرو ، فالعرب لم تكن تعرف الزجاجات المرضعة ، التي تملأ بالحليب الاصطناعي ، وتعرض الطفل للأمراض ، ولحرمان ارتضاع العطف والحنان مع لبن الأم ، أو من يقوم مقامها ...

(٢،١) المرجع السابق ، ص ١٣٧

٣ ـ المظهر الثالث : الاهتمام ببكاء الرضيع

اهتم ابن القيّم بتفسير بكاء الرضيع وبيان بعض وظائفه العضوية ، وأشار إلى وظيفته الغريزية ، وهي الدلالة على الجوع ، إشارة عابرة لأنها هي المألوفة لدى الناس ، ولكنه لفت النظر إلى ما لا يُنتبه إليه عادة من منافع بكاء الرضّع فقال :

« ولا ينبغي أن يشق على الأبوين بكاء الطفل وصراخه ، ولا سيما لشربه اللبن إذا جاع ، فإنه ينتفع بذلك البكاء انتفاعاً عظيماً ، فإنه يروّض أعضاءه ، ويوسّع أمعاءه ، ويفسّح صدره ... ويحمّي مزاجه ، ويثير حرارته الغريزية ، ويحرك الطبيعة .. »[(١)] . وإذا قارنا هذه المفاهيم الطبيّة المنتشرة آنذاك والتي استخدمها ابن القيّم ، بما يقابلها في عصرنا ، وجدنا أن لبكاء الطفل فوائد في نظر ابن القيّم ، يمكن ترجمتها إلى مصطلحات هذا العصر التربوية والصحيّة كما يلي :

١ ـ أن بكاء الطفل ليس مؤذياً للرضّع ، فلا ينبغي أن يصعب على الأبوين ، أو يسبب لهما القلق والغم ؛ بل إن هذا البكاء يفيده من وجوه متعددة .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٣٨

٢ً ـ أن الدلالة الأولى لبكاء الرضيع هي أنه علامة على الجوع ، فيسارع المسؤول عنه إلى تغذيته ، ولولا البكاء لمات جوعاً لا يشعر به أحد .

٣ً ـ من منافع بكاء الرضيع ترويض بعض أعضاء النطق ، فالمناغاة أصلها بكاء تَعَلُّل (أي دَلَع) وهي أول درس يتعلم به النطق ، فيعترض بعض هذه الأعضاء ـ كاللهاة أو مؤخرة اللسان ـ طريق الزفير الذي يخرج مع البكاء فيحدث حرف الغين ، مثلاً ، فإذا روض شفتيه مع البكاء ، خرج بالمصادفة حرف الميم أو الباء ، وهو ما يظنه الأبوان دعوة لهما أو لأحدهما ، وهكذا يتعلم الكلام عن طريق هذا البكاء والصراخ وترويض أعضاء النطق ، وخاصة إذا استجاب الأبوان لألفاظه التي خرجت منه بغير قصد منه .

٤ً ـ توسيع الرئتين ، لأن الزفير الطويل الذي يخرج مع البكاء ، يحتاج الطفل في مقابله ، إلى شهيق عميق ، فيتنهّد بين البَكْوَةِ والأخرى مُستنشقاً ؛ ويجدّد بذلك هواء الرئتين ، ويطرح فضلات غاز الفحم من الدم ، لذلك قال ابن القيّم : « ويحرك الطبيعة لدفع ما فيها من الفضول »[1] ، أي من الفضلات كغاز الفحم .

٥ً ـ أما أنه « يُحمّي مزاجه ويثير حرارته الغريزية »[2] : فإن

(١،٢) المرجع السابق ، ص ١٣٨

بكاء الرضيع يثيره ليعبّر عن عدة حاجات غريزية ، كالحاجة إلى المحبة والعطف والاهتمام ، أي الحاجة إلى أن يكون موضوع اهتمام الآخرين ، هذا عدا عن حاجته إلى الغذاء وإزالة الأذى عنه من بول وبراز ، ونحوه ، فإذا بدأ بكاءه بسبب وجع ألمّ به ، فإنّ اهتمام الآخرين به يثير عنده الحاجة الغريزية إلى العطف والمحبة ، وقد يثير البكاء استعداده المزاجي أو الغريزي للتعبير عن نفسه ببعض الانفعالات التي تنشأ مبكراً عند المولود ، كالتعبير عن الضّجر وعدم الارتياح ، أو الغضب والتهيّج ، وبذلك تتكون شخصيته « فهو من الناحية النفسية مجموعة من الدوافع والنزعات التي تتجه إلى التعبير عن نفسها عن طريق الاتصال بالعالم الخارجي »[1] ، والبكاء من أهم وسائل هذا الاتصال .

٤ ـ المظهر الرابع : الاهتمام بانفعالات الرضيع وصحته النفسية :

من المعروف أن الدول والحكومات الراقية ، تمنع أفلام الرعب ، لما لها من تأثير سيء على الأطفال والحوامل ، أو على الأخلاق والقيم بصورة عامة .

---

(١) أسس علم النفس لعبد العزيز القوصي ، ص ٢٧٤ ، (مرجع سابق) ، وفيه : (أن البكاء في حياة الأطفال أسلوب يساعد على اجتذاب معونة المحيطين وعطفهم) ، ص ٢٨١

وقد سبق ابن القيّم إلى التوصية بتجنيب الرضّع كل الأصوات المزعجة ، والمناظر الفظيعة ، كما صرّح بذلك في قوله :

« وينبغي أن يوقى الطفل كل أمر يفزعه من الأصوات الشديدة الشنيعة ، والمناظر الفظيعة ، والحركات المزعجة ، فإن ذلك ربما أدى إلى فساد قوته العاقلة ، فإذا عرض له عارض من ذلك ، فينبغي المبادرة إلى تلافيه بضدّه ، وإيناسه بما ينسيه إياه ، وأن يُلقَم ثديه في الحال ، ويسارع إلى رضاعه ، ليزول عنه حفظ ذلك المزعج ، ولا يرتسم في قوة الحافظة فيعسر زواله ... »[1] ، ثم يعلل ذلك بقوله :

« ولا يهمل ذلك الأمر ، فإن في إهماله إسكان الفزع والروع في قلبه ، فينشأ على ذلك ، ويعسر زواله ويتعذر »[2] .

وهذا يؤخذ منه فوائد تربوية وسيكولوجية أهمها :

١ ـ أن نجنّب الرضيع خصوصاً والطفل الصغير بصورة عامة كل ما يسبب له الرعب والفزع والانفعالات الشديدة غير المرغوبة .

٢ ـ أن « الحالات التي يصحبها انفعال شديد يختلّ فيها التفكير المنظم »[3] ، كما ثبت في علم النفس المعاصر ، لذلك قال ابن القيّم

(١، ٢) تحفة المولود ، ص ١٣٨ ، (مرجع سابق) .

(٣) أسس علم النفس ، ص ١٣٩ ، (مرجع سابق) .

« فإنّ ذلك ربما أدّى إلى فساد قوته العاقلة »[1] .

٣ ـ ألا يهمل أمر الطفل ويعرض للأمور المفزعة ، « فإن في إهماله إسكان الفزع في قلبه ، فينشأ على ذلك ويعسر زواله ويتعذّر »[2] ، وهذا ماأثبته علم النفس المعاصر جزئيّاً حيث يرون أن « بعض الحوادث المصحوبة بانفعالات شديدة تترك آثاراً ثابتة يصبح من الصعب نسيانها »[3] .

٥ ـ المظهر الخامس : بدء الكلام

اهتم ابن القيّم ببدء كلام الأطفال وأوصى بما يلي :

١ ـ « أن تدلك ألسنتهم بالعسل والملح الأندراني لما فيهما من الجلاء للرطوبات الثقيلة المانعة من الكلام »[4] ، ولعل هذا من الطّب العربي القديم مما كان الناس يستعملونه بناء على التجربة ...

٢ ـ « فإذا كان وقت نطقهم ، فليلقنوا (لا إله إلا الله ، محمد رسول الله) ، وليكن أول ما يقرع مسامعهم معرفة الله سبحانه ، وتوحيده ، وأنه سبحانه فوق عرشه ينظر إليهم ويسمع كلامهم وهو معهم أينما كانوا ... »[5] .

(١،٢) تحفة المودود ، ص ١٣٨ ، (مرجع سابق) .

(٣) أسس علم النفس ، ص ١٤٠ ، (مرجع سابق) .

(٤،٥) تحفة المودود ، ص ١٣٧ ، (مرجع سابق) .

وهـذا يحتـاج إلى وعي ومهـارة في الفهم والكـلام ، ولكن تكرار اسم المولود قد يساعده على النطق والوعي لذلك قال :

« وكان بنو إسرائيل يسمون أولادهم (عمانويل) ومعنـاه (إلهنـا معنـا) ، ولهـذا كان أحب الأسماء إلى الله : عبـد الله وعبـد الرحمن ، بحيث إذا وعى الطفل وعقل علم أنـه : عبـد الله ، وأن الله هـو سيـده ومولاه »[1] .

٦ ـ المظهر السادس : الاهتمام بمدة الرضاع ومسؤوليته :

يرى ابن القيّم وجـوب إرضـاع الطفـل ، تبعـاً لمـا أوجب الله ، لـذلـك يـورد في أول هـذا الفصـل قـولـه تعـالى (وهـو آيـة واحـدة وسنذكرها مقسمة إلى فقرات لنستنبط من كل فقرة حكماً) :

١ ـ ﴿ والـوَالِـداتُ يُرضِعنَ أولادَهُنَّ حَـولَين كامِلَين لِمَنْ أرادَ أنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾ .

٢ ـ ﴿ وَعَلَى الْمَـوْلُـودِ لَـهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْـوَتُهُنَّ بِـالْمَعْرُوفِ ، لاتُكَلَّفُ نَفْسٌ إلاَّ وُسْعَهَا ﴾ .

٣ ـ ﴿ لاَ تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا ، وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ ﴾ .

٤ ـ ﴿ وَعَلَى الوَارِثِ مِثلُ ذَلِكَ ﴾ .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٣٧ ـ ١٣٨

٥ً ـ ﴿ فَإنْ أرادا فِصَالاً عَنْ تَراضٍ مِنهما وتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيهِما ﴾ .

٦ً ـ ﴿ وَإنْ أرَدْتُمْ أنْ تَسْتَرضِعُوا أولادَكُم ، فَلا جُنَاحَ عَلَيكُمْ إذا سَلّمتُم ماآتَيْتُم بالمعروفِ ﴾ [سورة البقرة ٢/٢٣٣] .

ثم قال ابن القيّم[1] :

« فدلّت الآية على عدة أحكام :

أحدها : أن تمام الرضاع حولين كاملين ، وذلك حق للولد إذا احتاج إليه . (وهذا ما يؤخذ من الفقرة ١ً) .

وثانيها : أن الأبوين إذا أرادا فطامه قبل ذلك بتراضيهما وتشاورهما ، مع عدم مضرة الطفل ، فلهما ذلك (وهذا ما يؤخذ من الفقرة ٥ً) من الآية ومن بعض الفقرة (٣ً) .

وثالثها : أن الأب إذا أراد أن يسترضع لولده مرضعة أخرى غير أمه ، فله ذلك ، وإن كرهت الأم ، إلاّ أن يكون مُضارّاً بها أو بولدها فلا يجاب إلى ذلك . (وهذا ما يؤخذ من الفقرة السادسة والثالثة) . فقرر ابن القيّم أن الرضاع حق للطفل في كل الأحوال .

(١) تحفة المودود ، ص ١٣٩ ، (مرجع سابق) .

ولكن تعود مسؤولية الإرضاع وتعهده والإنفاق عليه ، بالدرجة الأولى ، على الأب ، إن كانت الأم مطلقة أو أراد الأب أن يسترضع غيرها ، وعلى الأم والأب معاً ما داما يصدران عن تراضٍ وتشاور بينهما ، وعلى ورثة الأب إن توفي وترك رضيعاً .

وهكذا عيّن ابن القيّم المسؤول عن رضاع الطفل في كل الأحوال وهي مسؤولية تربوية لا يستهان بها ، ولم يترك الأمر سائباً لئلا يضيع حق الطفل في الرضاع وتنهار صحته ، ويتوقف أو يبطؤ نموه ، وقد يترك ذلك أثراً سيئاً في صحته الجسمية والنفسية على مدى الحياة .

٧ ـ المظهر السابع من حرص ابن القيّم على مصلحة الرضيع :

« إرشاد الأب إلى ترك ما يضعف الولد ويقتله »[١] ، أي إلى ترك الغيل ، أو الغيلة ، و « الغيلة : يأتي الرجل امرأته وهي تُرضِع »[٢] ، فيزعج الرضيع ويسبب لأمّه الحمل فينقطع عنه الإرضاع وهو مصدر غذائه .. كما قال في شرح حديث « لا تقتلوا أولادكم سرّاً ، فوالذي نفسي بيده إنّ الغيل ليدركْ الفارس فيُدَعْثِره »[٣] ، قال ابن القيّم ـ نقلاً عن طائفة من أهل العلم ـ

(١) المرجع السابق ، ص ١٤٢

(٢،٣) المرجع السابق ، ص ١٤١ ، وهو من كلام أسماء بنت يزيد بعد أن روت حديث =

« فإن هذا نهي كالمشورة عليهم والإرشاد لهم إلى ترك ما يُضعف الولد ويقتله ، قالوا : والدليل عليه : أن المرأة المرضع إذا باشرها الرجل ، حرّك دم الطمث وأهاجه ... فلا يبقى اللبن حينئذٍ على اعتداله وطيب رائحته . وربما حبلت الموطوءة ، فكان ذلك من شر الأمور ، وأضرها على الرّضيع المتغذّي بلبنها ، وذلك أن جيّد الدّم حينئذٍ ينصرف في تغذية الجنين الذي في الرحم ، فَيَنفَدُ من غذائه ...

فمتى حملت المرضع ، فمن تمام تدبير الطفل أن يُمنع منها .. فهذا وجه المشورة عليهم والإرشاد إلى تركه . ولم يحرّمه عليهم ، فإن هذا لا يقع دائماً لكل مولود ـ وإن عَرَض لبعض الأطفال ـ فأكثر الناس يجامعون نساءهم وهن يرضعن ، ولو كان هذا الضرر لازماً لكل مولود لاشترك فيه أكثر الناس ... » [1] .

وهكذا لجأ ابن القيّم ، والعلماء الذين نقل عنهم ـ حين وجدوا في الأمر حديثين أحدهما ينهي ، والآخر يبيح ـ لجؤوا إلى استقراء واقع الأمر الشائع في هذا الموضوع ، ولا سيا أن الرسول ﷺ احتج بهذا الواقع حين أباح فقال :

= « لا تقتلوا أولادكم سرّاً ... » رواه أحمد ، وأبو داود وابن ماجه[☆] ، (والدعثرة) الهدم والكسر ، كما في القاموس ٢/٢٩

(١) تحفة المودود (مرجع سابق) ، ص ١٤٢

(☆) انظر صحيح الجامع الصغير برقم ٧٢٦٨ ، ٦/١٦٧ ، ط المكتب الإسلامي ـ بيروت .

(« لقد هممت أن أنهى عن الغيلـة ، فنظرت في الروم والفرس ، فـإذا هم يغيلون أولادهم ، فـلا يضر أولادهم ذلـك شيئـاً .. » الحـديث رواه مسلم في الصحيح)[1] . لذلك ختم ابن القيم هذا الفصل بقوله :

« وعلى كل حال ، فالأحوط ، إذا حبلت المرضع ، أن يمنع منهـا الطفل ، ويلتمس له مرضعاً غيرها . والله أعلم » .

وهكذا نرى مـدى حرصـه التربوي على مصلحـة الرضيع وصحـة نموه وسلامة تغذيته ، الذي جعله يأخذ بالأحوط ، بعد أن قرر ـ من الناحية التشريعية ـ أن النهي النبوي عن الغيل كان للإرشـاد وبيـان الأفضل ، لا للتحريم .

٨ ـ المظهر الثامن : الاهتمام بنبات الأسنان :

ممـا يـدعو إلى العنـايـة بـالرضيع نبـات أسنـانـه وقـد أفرد لـه ابن القيم فصلاً ، أورد فيه وصفاً للحالـة التي يمرّ بهـا الرضيع ، ثم ذكر أسلوب معالجتها ، فقال في :

أ ـ وصف الأعراض : « يتغير حـال المولود عنـد نبـات أسنـانـه

---

(١) تحفة المودود (مرجع سابق) ص ١٤١ ، وأورده الشيخ الألبـاني في صحيح الجـامع الصغير (مرجع سابق) برقم ٥٠٢١ عن جـدامـة بنت وهب ، مشيراً إلى وجوده في موطأ مالك ومسند أحمـد وصحيح مسلم ، وانتهى الحـديث عنـد قولـه « فلا يضر أولادهم » صحيح الجامع الصغير (مرجع سابق) .

ويهيج به القيء والحميات وسوء الأخلاق ، ولا سيما إذا كان نباتها في وقت الشتاء والبرد ، أو في وقت الصيف وشدة الحر ، وأحمد أوقات نباتها : الربيع والخريف »[1] .

٢ً ـ وفي توقيت نبات الأسنان قال : « ووقت نباتها لسبعة أشهر ، وقد تنبت في الخامس ، وقد تتأخر إلى العاشر »[2] فذكر معظم الاحتمالات بعد ذكر الوقت الغالب ، متبعاً أسلوب الاستقراء والاستقصاء .

٣ً ـ ثم وصف أسلوب المعالجة فقال : « ينبغي التلطف في تدبيره وقت نباتها ، وأن يكرر عليه الحمّام ، وأن يغذى غذاءً يسيراً .. وقد يعرض له انطلاق البطن ، فيعصب بما يكفيه ، مثل عصابة صوف عليها كمون ناعم وكرفس وأنيسون .. فإن كان بطنه معتقلاً عند نبات أسنانه ، فينبغي أن يبادر إلى تليين طبيعته ، فلا شيء أضرّ على الطفل من اعتقال طبيعته ، ولا شيء أنفع له من سهولتها باعتدال .

وأحمد ماتلين به : عسل مطبوخ ، يتخذ منه فتائل ويحمّل بها ، أو حَبَق مسحوق معجون بعسل يتخذ منه فتائل . وينبغي للمرضع ، في ذلك الوقت ، تلطيف طعامها وشرابها ، وتجنب الأغذية المضرّة »[3] .

(١،٢) تحفة المودود ، ص ١٣٩ (مرجع سابق) .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٣٩

ويلاحظ اختلاف منهج ابن القيم في معالجة موضوع التسنين لأنه لم يرد فيه دليل شرعي ، فهو موضوع طبي اتبع فيه منهج الأطباء فبدأ بوصف الحالة العامة والأعراض ، ثم بدأ يذكر أسلوب المعالجة ويصف بعض العلاجات النباتية المعروفة في عصره .

وكان اهتمامه التربوي والصحي بالرضيع واضحاً ، كما كان في المظاهر والمراحل السابقة .

كما كان مهتماً بمنهج الاستقراء ، في هذه الظاهرة ، وفي ظاهرة الغيل . وهذا موافق للمبدأ الثالث من مبادئه التي ستأتي في التربية العقلية ، وسنضرب عليها أمثلة من بحثه في تطور الجنين .

٩ ـ **المظهر** التاسع والأخير من مظاهر الاهتمام بفترة الرضاع :

المشي والفطام : وقد ترك لنا ابن القيم وصايا صحية تربوية نفيسة في هذا الموضوع مثل :

أ ـ التحذير من « أن يحمل الطفل على المشي قبل وقته ، لما يعرض في أرجلهم بسبب ذلك من الانفتال والاعوجاج بسبب ضعفها وقبولها لذلك »[١] . وهذا ما يحذر منه أطباء الأطفال ولكن ابن القيم لم يحدد الوقت المناسب للمشي ولعله ترك تحديده لاختلافه عند الأطفال باختلاف بنيتهم وطبيعتهم ...

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٤١

٢ ـ بحث ابن القيم في وقت الفطام ، على وجوه :

الوجه الأول : في نهاية العام الثاني وبداية الثالث من عمر المولود ، وهو الأصل والأفضل ، وفقاً لما رأينا من قول ابن القيم « إن تمام الرضاع حولين »[1] عملاً بالآية الواردة في ذلك (الآية ٢٢٣ من سورة البقرة) .

الوجه الثاني : يمكن فطام الطفل قبل ذلك أو بعده لمصلحة أو ضرورة بشرطين : الأول : أن يتم ذلك بين الأبوين « بتراضيهما وتشاورهما »[2] كما قال . والثاني : « عدم مضرة الطفل »[3] لأن مصلحة الطفل مرجحة على كل الاعتبارات .

٣ ـ ثم بيّن ابن القيم أفضل أوقات السنة للفطام فقال :

« وأحمدُ أوقات الفطام إذا كان الوقت معتدلاً في الحر والبرد ، وقد تكامل نبات أسنانه وأضراسه ، وقويت على تقطيع الغذاء وطحنه ، ففطامه عند ذلك الوقت أجود له ، ووقت الاعتدال الخريفي أنفع في الفطام من وقت الاعتدال الربيعي ؛ لأنه في الخريف يستقبل الشتاء ، والهواءُ يبرد فيه ، والحرارة الغريزية تنشأ

(١، ٢، ٣) المرجع السابق ، ص ١٣٩ وقد سبق تفصيل ذلك في بحث (مدة الرضاع ومسؤوليته) .

فيه وتنمو ، والهضم يزداد قوة ، وكذلك الشهوة »[1] . وهكذا بيّن لنا أفضل الأوقات معتمداً على تأثر الجسم والغريزة البشرية بالتغيرات الجوية في فصول السنة ، وعلى استعداد الرضيع للفطام .

٤ ـ أن يكون الفطام على التدريج .

وهذا يذكرنا بمبدأ التدرج في التطور عند ابن القيم ، وسيأتي ذكره في المبدأ الثالث من مبادئ التربية العقلية عنده ، فإذا ثبت عنده أن نمو الإنسان وتطوره يكون (على التدريج)[2] فكذلك يجب أن يكون التعامل معه وتربيته (على التدريج) وهذا ما طبقه ابن القيم على الفطام فقال :

« ينبغي للمرضع إذا أرادت فطامه ، أن تفطمه على التدريج ، ولا تفاجئه بالفطام وهلة واحدة ، بل تعوّده إياه وتمرّنه عليه ، لمضرة الانتقال عن الإلف والعادة مرة واحدة »[3] .

ويذكرنا هذا أيضاً بما تميّز به ابن القيم من شدة العناية بالمولود أول عهده بالانفصال عن أمه ، حين « ينتقل عما قد ألفه واعتاده في جميع أحواله دفعة واحدة ؛ وشدة انتقاله عليه أشد من شدة الانتقال

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٤٠

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٥

(٣) المرجع السابق ، ص ١٣٩

بالتدريج »[1] . لذلك أوصى هنا ـ كما أوصى هناك ـ بضرورة العناية بالمولود نظراً لأهمية كل من الحالتين وخطورتها على المولود .. فهو يوصي هنا بالاعتدال وينهى عن تمكين الأطفال من الإكثار من الطعام فيقول :

« ومن سوء التدبير للأطفال : أن يُمَكّنوا من الامتلاء من الطعام وكثرة الأكل والشرب »[2] وهذا مايحصل لأغلب الأطفال نظراً لفرح الطفل بأسنانه ، ورغبته الغريزية في تناول كل ماتقع يده عليه لتجريب هذا السلاح الجديد الذي يقوّي عنده غريزة الإقبال على العض والقضم ونحو ذلك ، لذلك يقول في تمام كلامه السابق :

« ومن أنفع التدبير لهم أن يعطوا دون شبعهم ليجود هضمهم وتعتدل أخلاطهم ، وتقل الفضول في أبدانهم ، وتصح أجسادهم ، وتقل أمراضهم لقلة الفضلات الغذائية ... فإن الصبيّ إذا امتلأ وشبع ، فإنه يكثر النوم من ساعته ، ويسترخي ، ويعرض له نفخة في بطنه ورياح غليظة »[3] .

وكما أوصى ابن القيم بالفطام على التدريج ، كذلك أوصى في إطعام الطفل فقال :

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٧٤

(٢،٣) المرجع السابق ، ص ١٤٠

« وينبغي تدريجهم في الغذاء ؛ فأول ما يطعمونهم من الغذاء : اللبن ، فيطعمونهم الخبز المنقوع في الماء الحار واللبن الحليب »[1] أي في مزيج منهما ، وهذا يقابله في عصرنا تمديد اللبن وتخفيفه حتى يناسب معدة الطفل وقدرته على الهضم . وتخصيص الماء (بالحار) يقابله اليوم الماء المعقم بالغليان ، فإذا قويت معدته على هضم هذا الطعام الخفيف انتقل إلى غيره ، كما قال :

« ثم بعد ذلك الطبيخ ، والأمراق الخالية من اللحم »[2] وهذه المرحلة الثانية تقتصر على الخضار المسلوقة ، وأنواع الحساء المختلفة ... « ثم بعد ذلك ، ما لطف جداً من اللحم ، بعد إحكام رضّه رضاً ناعماً .. »[3] وهكذا يُبدأ بإطعامه اللحم المسحوق الناعم لئلا تتأذى معدته في هضمه ، ثم يقوى على التدريج حتى يأكل كل أنواع الطعام باعتدال ، ومن غير بطر ولا امتلاء ...

(١، ٢، ٣) المرجع السابق ، ص ١٣٧

الفصل الرابع

ما بعد الرضاع أو مرحلة بدء التمييز

يرى ابن القيم ـ على مبدئه في تـدرّج النمو ـ أن التمييز قـد ينشـأ عند الطفل في سن مبكر منذ أن يكون له شهران في المهد .

فهو « يضحك عند الأربعين ، وذلك أول ما يعقل نفسه ، فإذا تم له شهران رأى المنـامـات ، ثم ينشـأ معـه التمييز والعقل على التـدريج شيئاً فشيئاً إلى سن التمييز »[1] .

ويؤخذ من هذا النص أن ابن القيم يفرق بوضوح بين نشأة التمييز وبـدئـه على التـدريج ، وبين سن التمييز وحصولـه وتمـامـه . لأن سن التمييز لـه نتـائج ، وقـد تتوقف عليـه أحكام فقهيـة كالأمر بـالصلاة ، وأحكام علميـة ، كالأخـذ بروايـة الطفل المميز ، وقبـول حـديثـه عن رسول الله ﷺ كما سنرى ذلك في حينه .

ولكن هذا التفريق إنما كان واضحاً في محاولة الفقهاء تحديـد سن التمييز الحقيقي الـذي يتمتع بـه إدراك الطفـل ، لمـا يتـوقف عليـه من

(١) المرجع السابق ، ص ١٧٦

أحكام في العبادات ونقل العلم ، أما الأحكام والتوصيات التربوية ، فلا يجد الباحث فيها حدّاً واضحاً بين ما يقصد به سن ما قبل حصول التمييز ، وما بعده .

وغاية ما في الأمر أن ابن القيم يعتبر مرحلة ما بعد الرضاع إلى سن التمييز مرحلة تترسّخ فيها العادات الانفعالية والْخُلُقية . لذلك يعتبرها مرحلة حسّاسة تؤثر فيما بعدها إلى آخر العمر فيقول :

« ومما يحتاج الطفل إليه غاية الاحتياج ، الاعتناء بأمر خُلُقه ، فإنه ينشأ على ما عوّده المربي في صغره : من حرد ، وغضب ، ولجاج ، وعجلة ، وخفة مع هواه ، وطيش ، وحدّة ، وجشع ، فيصعب عليه في كبره تلافي ذلك ، وتصير هذه الأخلاق صفات وهيئات راسخة له . فلو تحرز منها غاية التحرّز فضحته ـ ولا بد ـ يوماً ما ، ولهذا تجد أكثر الناس منحرفة أخلاقهم ، وذلك من قبل التربية التي نشأ عليها »(١) .

والذي يُرَجِّح بكورَ المرحلة المقصودة في هذا النص ، جملتُه الأخيرة : « وذلك من قبل التربية التي نشأ عليها » فالمعنى اللغوي للفظ (نشأ : حَيِيَ ، وربا ، وشبّ ..)(٢) وهذا يدل على قفزة في

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٤٢

(٢) القاموس المحيط ٣٠/١ (مرحع سابق) .

النمو ، وهو مايحصل في نهاية فترة الرضاع .

وقد جاء هذا النص بعد كلام ابن القيم عن (الغيلة) وهي تحصل غالباً قبيل نهاية فترة الرضاع .

ولو تأملنا الأمور التي عددها ابن القيم (من حرد وغضب ... إلخ) لوجدنا أنها تَرسخ في نفس الطفل لمجرد تعامله مع المربي : كسرعة استجابته لغضب الطفل أو حرده ، أو لجاجه ... فيعطيه مطلوبه ، أو يسارع إلى حمله وتدليله ولو كان مخطئاً . لذلك صدّرها بقوله : « فإنه ينشأ على ماعوده المربي » .

أما مايحتاج الطفل إلى أن يعقله ويحفظه فهو في المرحلة التالية ، كمجالس اللهو والباطل والغناء ... كما سنرى .

فالطفل بعد الرضاع تنطبع في نفسه أساليب المربي في التعامل معه ، فإن تعامل معه بتسرّع وطيش وحدة مزاج ، نشأ على هذه الأخلاق والخصال ، وصارت عادات ثابتة « وتغيير العوائد من أصعب الأمور ، يحتاج صاحبه إلى استجداد طبيعة ثانية . والخروج عن حكم الطبيعة عسر جداً »[1] .

---

(١) تحفة المودود ، ص ١٤٣ (مرجع سابق) .

الفصل الخامس

مرحلة التمييز

١ ـ **تحديد وقته** : تدل النصوص وأقوال الفقهاء على أنّ بدء مرحلة التمييز يُراوِح بين الخمس والسبع . لذلك قال ابن القيم :

« وليس له سن معين ، بل من الناس من يُميّز لخمس : كما قال محمود بن الربيع : (عَقَلتُ من النبي ، عليه الصلاة والسلام ، مجّة مجّها في وجهي وأنا ابن خمس سنين من دلو)[☆] في بئرهم ، ولذلك جعلت الخمس حداً لصحة سماع الصبي »[1] أي سماعه العلم ونقله لحديث الرسول ﷺ ثم قال مؤكداً سن السابعة :

« فإذا صار له سبع سنين دخل في سن التمييز ، وأمر بالصلاة كما في المسند والسنن من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « مروا أبناءكم بالصلاة لسبع سنين واضربوهم عليها لعشر سنين »[2] فاعتبر التكليف بالصلاة دليلاً على سن التمييز ،

(١ ، ٢) المرجع السابق ، ص ١٧٦ ـ ١٧٧ والحديث الثاني (مروا أولادكم) رواه أحمد وأبو داود والحاكم عن ابن عمرو بإسناد حسن (صحيح الجامع الصغير للشيخ ناصر الدين الألباني) برقم ٥٧٤٤ ، ط المكتب الإسلامي بيروت بلفظ (وهم أبناء سبع) .

(☆) صحيح البخاري ٤١/١ رقم ٧٧ (مرجع سابق) .

لأنها تحتاج إلى وعي وتمييز بين حالة الوضوء (الاستعداد للصلاة) وحالة انتقاض الوضوء وعدم السماح بالصلاة . ثم بين حالة القيام في الصلاة وما يقرأ فيها من القرآن ، وحالة الركوع والسجود ، فلكل ركن من أركان الصلاة وضعية وأذكار معينة ، ووقت أو ترتيب معين لا يجوز تغييره ، فلا يتم أداء جميع الأركان على وضعها المطلوب إلا بوعي وتمييز ، واحتج بعض العلماء بالتمييز بين الأب والأم تمييزاً تابعاً لمصلحته : مع أي منهما يذهب إذا خيّر ؟

واحتجوا بأن الرسول ﷺ خيّر عدداً من الأطفال بين أمهم وأبيهم ، في وقائع مختلفة متعددة ، لكن ابن القيم لم يجد فيها دليلاً على سن معينة إذ قال : « وأما تقييد وقت التخيير بسبع فليس في الأحاديث المرفوعة اعتباره »[1] . ثم ختم هذه الأحاديث والآثار بقوله :

« .. فليس في أحاديث التخيير ، مرفوعها وموقوفها ، تقييد بالسبع ، والذي دلت عليه أنه متى ميّز بين أمه وأبيه خُيّر بينهما والله أعلم »[2] .

---

(١) تحفة المودود ، ص ١٧٧ (مرجع سابق) .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٧٨

ثم أتى على الأدلة التي جيء بها حول قبول إسلام الطفل ، ليُستدَلّ بها على سن التمييز ، فأجاب على هذا الاستدلال بقوله :

« ولذلك : صحةُ إسلامه ، لا تتوقف على السبع ، بل متى عقل الإسلام ووصفه صحَّ إسلامه »[1] ولكن مع ذلك استأنس بحديث الأمر بالصلاة وبرأي أحمد بن حنبل في جعله مقياساً لصحة إسلام الطفل فقال :

« ورُوي عن أحمد : إذا كان ابن سبع سنين ، فإسلامه إسلام ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال : « مروهم بالصلاة لسبع »[☆] فدلَّ على أن ذلك حدٌّ لأمرهم وصحة عبادتهم ، فيكون حداً لصحة إسلامهم ... »[2] .

ويبدو لي من الجمع بين هذه الآراء والروايات أن سن التمييز الأصلية هي بلوغ الطفل سبع سنوات ، فإن ميّز بعضهم فيما دون ذلك قُبِل تمييزه فيما دلّ ، وصحت الدلائل ، على أنه تمييز صحيح ، فيقبل ذلك منه في حدود الأمر الذي ميّزه .

(☆) صحيح البخاري ٤١/١ رقم ٧٧ (مرجع سابق) . ورواه أحمد وأبو داود والحاكم بلفظ « مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين ... » صحيح الجامع برقم (٥٧٤٤) (مرجع سابق) .

(١،٢) تحفة المودود ، ص ١٧٨

٢ ـ **الأساليب والوصايا التربوية** لهذه المرحلة ، وهي تسري على عموم الأطفال في السن المذكورة أو قبلها بقليل وأهمها :

أولاً ـ التربية الوقائية :

كثير من الأمور الضارة والمحرمة إذا عقلها الطفل وأقبل عليها بوعي علقت بسمعه وقلبه فيصعب مفارقتها ، لذا يوصي ابن القيم ـ سيراً مع أسلوبه الوقائي ـ بالوقاية منها . وأهمها :

أ ـ الوقاية من المفسدات السمعية :

قال ابن القيم : « وكذلك يجب أن يجتنب الصبي ـ **إذا عقل** ـ مجالس اللهو والباطل والغناء ، وسماع الفحش ، والبدع ، ومنطق السوء . فإنه إذا علق بسمعه عسر عليه مفارقته في الكبر ، وعزّ على وليه استنقاذه منه ، فتغيير العوائد من أصعب الأمور »[1] .

ويقاس على ما مضى كل ما يفسد خلق الطفل عن طريق السمع ، فيجب أن يتجنبه وقاية له من النتائج الوخيمة المترتبة على اعتياد هذه المسموعات البذيئة الضارة ، وربما اعتاد التلذذ بها ، فلا يستطيع مفارقتها إلا بجهد عسير المنال ، وكان من اليسير وقايته منها ، فدرهم وقاية خير من قنطار علاج .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٤٢ ـ ١٤٣

٢ - الوقاية من البخل أو من ذل الطلب وأخذ مال الغير :

وهنا لم يكتف ابن القيم بالبعد والتجنّب ، بل كان إيجابياً فطالب بتعويد الطفل خلق الكرم والعطاء إلى جانب منعه من ذل الاستجداء كما يدل قوله :

« وينبغي لوليه أن يجنّبه الأخذ من غيره غاية التجنب ، فإنه متى اعتاد الأخذ صار له طبيعة ، ونشأ بأن يأخذ لا بأن يعطي ، ويعوده البذل والإعطاء . وإذا أراد الولي أن يعطي شيئاً أعطاه على يده ، ليذوق حلاوة الإعطاء »[1] .

وهكذا استخدم ابن القيم منهجي : التربية الوقائية ، والتربية السلوكية الإيجابية معاً فلم يترك الطفل عنصراً منفعلاً يخضع للمنع في كل شيء ، بل جعله أيضاً عنصراً إيجابياً فعالاً حين طالب بجعله معطاءً ، وبتدريبه على العطاء ، ليذوق لذة الإعطاء ويشعر بكيانه في مجتمعه ، وأنه عنصر منتج معطاء ...

٣ - الوقاية من الكسل والبطالة :

وهنا أيضاً يريد ابن القيم أن يستفيد الطفل من طاقاته باستمرار ، بتدريبه على الشغل والإنتاج المتواصل ، وألا يستريح إلا

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٤٣

ليستعدّ للشغل ، فقال : « ويجنّبه الكسل والبطالة ، والدعة والراحة . بل يأخذه بأضدادها ، ولا يريحه إلاّ بما يُجمّ نفسه وبدنه للشغل ، فإن للكسل والبطالة عواقب سوء ومغبّة ندم ، وللجد والتعب عواقب حميدة ... فالسيادة في الدنيا ، والسعادة في العقبى لا يوصل إليها إلاّ على جسر من التعب »[1] .

وتدلنا عبارته الأخيرة ، على أنّ علينا أن نعرّف الناشئ بهدفه البعيد والقريب من التعب والجهد الذي نكلفه به ، ليذوق لذة هذا الجهد حينما يستهدف السعادة والسيادة في الدنيا والآخرة ، ولذلك جعل الله لكل جهد ثواباً ، ولكل عمل نتيجة وجزاءً .

ويرى ابن القيم أن يكون منهج الحياة اليومية للناشئ ، مساعداً على النشاط واليقظة ، واستغلال أفضل أوقات النهار والليل ، لضمان هذا النشاط والإنتاج الغزير . كما يدلّ قوله :

« ويعوّده الانتباه آخر الليل ، فإنه وقت قسم الغنائم ، وتفريق الجوائز ، فمستقلّ ، ومستكثر ، ومحروم ، فمتى اعتاد ذلك صغيراً سهل عليه كبيراً »[2] . فإذا انتبه آخر الليل ، استقبل طلوع الفجر بيقظة ونشاط ، فبقي سائر يومه نشيطاً ...

(١، ٢) المرجع السابق ، ص ١٤٣

٤ ـ الوقاية من الإسراف في الشهوات :

وقد عبّر عن ذلك بتجنب (الفضول) (جمع فضل) ، وهو الزيادة في كل شيء عن الحد المألوف لذلك قال :

« ويجنبه فضول : الطعام ، والكلام ، والمنام ، ومخالطة الأنام ، فإن الخسارة في هذه الفضلات ، وهي تفوّت على العبد خير دنياه وآخرته .. »[1] .

ثم وضح الفقرة السابقة وأكملها بقوله :

« ويجنبه مضار الشهوات المتعلقة بالبطن والفرج غاية التجنب ، فإن تمكينه من أسبابها والفسح له فيها ، يفسده فساداً يعز عليه بعده صلاحه »[2] .

وهكذا جمع بين أهم الشهوات التي يميل إليها الطفل ، وأوصى بالاحتراز من أضرارها . فعبّر (بفضول الطعام) ، و (شهوة البطن) ، عن غريزتي الجوع والعطش ، وأوصى بتعديلها وتهذيبها عن طريق منع الطفل من الإسراف والإفراط في المأكل والمشرب .

وعبّر (بفضول الكلام) عن ميل الطفل إلى إثبات ذاته والتعبير عن نفسه في المجتمع بواسطة الكلام ، فإذا استمرأ (فضول الكلام)

(١،٢) المرجع السابق ، ص ١٤٣

تعرض إلى اغتياب الناس والسير بالنميمة والإفساد بينهم ، أو إلى الكذب والتضليل ، أو إلى إفشاء الأسرار ، وخيانة الخلاّن والأقارب . وقد حذر ابن القيم منها أشد تحذير فقال : « ويجنّبه الكذب والخيانة أعظم مما يجنبه السمّ الناقع ، فإنه متى سهّل له سبيل الكذب والخيانة ، أفسد عليه سعادة الدنيا والآخرة .. »[1] .

أما كثرة النوم فإنها تدعو إلى الخبال ، لتراكم بعض السموم في العضلات ، أو في الأمعاء ، لما فيها من فضلات ، أو إلى اعتياد الكسل وكراهية الجدّ والعمل ...

وأما الفضول في مخالطة الأنام فيعني بها مخالطة جلساء السّوء ، أو إضاعة الوقت الطويل ، وتفويت فرص العمل المفيد ؛ من أجل مجرد الاستمتاع بصحبة الأصحاب ، من غير فائدة ولا هدف نبيل ، وجماعات الأطفال والفتيان ، إن لم تراقب وتوجّه ، تعرضت إلى الفساد والإفساد والجنوح وارتكاب الجرائم والمحرمات ...

فإما أن يجنّب الطفل المجتمعات السيئة من جماعات الأطفال ، وبهذا نجنبه (فضول مخالطة الأنام) ، وإما أن يوجه الأطفال إلى تكوين جماعات مدرسية ذات نشاطات وأهداف تنفع المجتمع وترضي رب العالمين ، وأي رفيق يريد الطفل مصاحبته يجب مراقبته .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٤٣

ثانياً ـ مراعاة استعداد الأطفال ومواهبهم ومعاملة كل بحسبه :

سبق ابن القيم إلى ما يسمى في التربية الحديثة ، بمراعاة الفروق الفردية بين الأطفال وتفتيح مواهبهم الفطرية . فقال :

« ومما ينبغي أن يُعتمد : حال الصبي ، وما هو مستعد له من الأعمال ، ومهيَّأ له منها . فيعلم أنه مخلوق له ، فلا يحمله على غيره .. فإنه إن حمل على غير ما هو مستعد له لم يفلح فيه ، وفاته ما هو مهيَّأ له . فإذا رآه حسن الفهم ، صحيح الإدراك جيد اللفظ واعياً ؛ فهذه من علامات قبوله وتهيُّئه للعلم ، لينقشه في لوح قلبه ـ ما دام خالياً ـ فإنه يتمكن فيه ويستقر ويزكو معه ؛ وإن رآه بخلاف ذلك من كل وجه ، وهو مستعد للفروسية وأسبابها : من الركوب والرمي واللعب بالرمح ، وأنه لا نفاذ له في العلم ولم يخلق له ، مكنه من أسباب الفروسية والتمرن عليها ، فإنه أنفع له وللمسلمين .

وإن رآه بخلاف ذلك ، وأنه لم يخلق لذلك ، ورأى عينه مفتوحة إلى صنعة من الصنائع ، مستعداً لها قابلاً لها ، وهي صناعة مباحة نافعة للناس ، فليمكّنه منها . هذا كله بعد تعليمه له ما يحتاج إليه في دينه ، فإن ذلك ميسر على كل أحد لتقوم حجة الله على العبد ، فإن لله على عباده الحجة البالغة .. »[1] .

(١) المرجع السابق ، ص ١٤٤ ـ ١٤٥

ويدل كلامه هذا على أمور تربوية هامة يجب مراعاتها في مرحلة التميز وما بعدها إلى سن الرشد :

١ً - في هذه السن وما بعدها تظهر مواهب الإنسان وتنمو على التدريج ، فيجب اكتشاف هذه المواهب والاستعدادات والقابليات ، ويبدو ذلك من استجابته ومهارته التي يبديها لدى عرضه على المهن المختلفة . ويجب أن يكون المربي ملمّاً بما تحتاجه كل مهنة من استعدادات ومواهب نفسية أو جسمية ، أو أن يستعين بأرباب هذه المهن ، أو يراقبهم ويعايشهم فترة كافية مع مراقبته لما يميل إليه الطفل وما يبديه من استعدادات ، بصورة عفوية ، في حياته اليومية ، وقد تولت المدرسة هذا الأمر وكفت أولياء الأطفال عناءه .

٢ً - أن يفسح له المجال في ممارسة المهنة التي هو مستعد لها ، فهذا أدعى إلى إتقانها ، ونفع المجتمع بما ينتج ويحسن ويقدم من خدمات في مجالها ...

٣ً - لا يجوز بحال من الأحوال إجباره على غيرها « فإنه إن حمل على غير ما هو مستعدّ له لم يفلح فيه ، وفاته ما هو مهيأ له »[١] فالخسارة من وجهين : أولهما ما يحصل عند الطفل من يأس وإحباط وضجر وجنوح وعدوان لإجباره على ما لا ينجح فيه ، ولا يستطيع

(١) المرجع السابق ، ص ١٤٤

النجاح فيه إذا لم يكن في قابلياته التي خلقت معه ما يهيئه له . **والوجه الثاني** أنه يخسر مواهبه التي تهيئه لعمل آخر ، فلا يمارسها ولا يستفيد منها ...

٤ - لابدَّ من حد أدنى من الثقافة الاجتماعية لكل طفل ، أياً كانت المهنة التي يختارها ؛ ليعرف ما هو مطلوب منه تجاه أهداف الحياة في أمته ، ولتحقيق الرسالة التي خلق الإنسان من أجلها ، وهي إخلاص العبودية لله واتباع شريعته في كل شؤون الحياة ، لذلك قال ابن القيم كما رأينا في آخر كلامه : « هذا كله بعد تعليمه له ما يحتاج إليه في دينه . فإن ذلك ميسّر لكل أحد .. »[1] فالمجتمع الإسلامي ييسر لكل طفل ولكل من يدخل الإسلام معرفة هذا الحد الأدنى من أمور الدين .

ثالثاً - إرواء الحاجات الفطرية عند الأطفال ، أو حاجات الطفولة :

أ - تمهيد في معنى الحاجات الفطرية :

حاجات الطفولة متطلبات غريزية عند الأطفال يقتضيها نموهم السليم ، واستمرار سلوكهم السوي ، وقد « وجد بعض المشتغلين بدراسات الأطفال في العيادات السيكولوجية ، أن الغرائز وإن كانت

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٤٥

تفسر سلوك الأطفال ، إلا أنها لا يسهل إدراكها ، ووصلوا إلى تفسيرات أكثر وضوحاً من الغرائز ، وسمّوها بالحاجات . فالطفل يشعر بالحاجة إلى الأمن أو الحاجة إلى التقدير ممن حوله ، أو غير ذلك ... »[1] .

والتقسيم الأكثر فائدة لهذه الحاجات هو الذي « يقول بأن حاجات الطفولة ست وهي : الحاجة للأمن ، والحاجة للمحبة ، والحاجة للتقدير ، والحاجة للحرية ، والحاجة إلى سلطة ضابطة ، والحاجة إلى النجاح »[2] .

وقد سبق ابن القيّم إلى إرضاء بعض هذه الحاجات والمتطلبات عند الأطفال وإلى إظهار الاهتمام ببعضها الآخر ...

٢ً ـ فأما ما صرح بلزوم إرضائه من حاجات الطفولة ، **فهو الحاجة إلى المحبة** قال ابن القيّم (الباب الرابع عشر في استحباب تقبيل الأطفال)[3] . ثم نقل ممّا (في الصحيحين من حديث

---

(١) أسس علم النفس . د . عبد العزيز القوصي ، ص ١٤٧ ، الناشر مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الأولى ١٩٥٠ م .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤٨ ـ ١٤٩

(٣) تحفة المودود ، ص ١٣٢ ، (مرجع سابق) ، والحديثان في صحيح البخاري برقم ٥٦٥١ ، ٥٦٥٢ ، ٢٢٣٥/٥ ، (مرجع سابق) وفيه (فقالوا : تقبلون الصبيان ؟ فما نقبلهم ...) الحديث .

أبي هريرة قال : قبّل رسول الله ﷺ الحسن بن علي ، وعنده الأقرع بن حابس التيميّ جالس . فقال الأقرع : إن لي عشرة من الولد ماقبلت أحداً منهم . فنظر إليه رسول الله ﷺ فقال : « من لا يَرحم لا يُرحم » وفي الصحيحين أيضاً من حديث عائشة ، رضي الله عنها ، قالت : قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا : تقبلون صبيانكم ؟ والله لكنا ماتقبل ! فقال : « أوأملك إن كان الله نزع من قلوبكم الرحمة ؟! »)[1] .

فدلّ الحديثان على وجوب محبة الأطفال ورحمتهم بدليل دعاء رسول الله ﷺ على من لا يحبهم بألاّ يُرحم . وتقديم الباب بعنوان (استحباب تقبيل الأطفال) لا يقتصر بنا على الوقوف عند الاستحباب ، بل إن الاستحباب جزء من الوجوب ، ووجوب الرحمة لهم هو الذي صُرح به في الحديث ، والرحمة تشمل المحبة ، والضم ، والتقبيل ، والحرص على مصلحة الطفل ، وحسن تربيته ... إلخ ، وفي الحديث تعنيف لمن لا يحب أطفاله ، أو لا يظهر حبه لهم ، وفي هذا حكمة نبوية عظيمة فقد ثبت « أن محبة الكبار للطفل عنصر هام لنموه نمواً سوياً ، فالشخص يظل طيلة حياته توّاقاً إلى اليقين بأنه

(١) تحفة المودود ، ص ١٣٢ (مرجع سابق) .

مرغوب فيه ، وبأنه ينتمي إلى جماعة معينة ، ويستطيع الاعتماد على ولاء سواه وإخلاصه »[1] .

كذلك « تبين من نتائج إحدى الدراسات أن ضعف المحبة المتبادلة بين الآباء والأبناء قد يكون عاملاً من عوامل الجنوح ، وربما كان أسوأ من ذلك مصير الأطفال الذين لا يتمردون أو يردون الإساءة ، بل يتحملون آلامهم في صمت ، وعلى صورة قلق ومخاوف »[2] .

وهكذا نجد « أن الحاجة للمحبة تبدو في أن الطفل يريد أن يشبع حبه لأمه ومن حوله ويريد أن يشبع من حبهم له . ويخطئ بعض الآباء إذ يربون أبناءهم تربية عقلية مبنية على مجموعة من القواعد الباردة الخالية من كل عاطفة ، بينما يريد الطفل أن يشعر شعوراً كاملاً بحب والديه له وبحبه لوالديه »[3] .

فلم يكن عبثاً ، ولا مجرد استمتاع بعاطفة المحبة ، أن يقبّل رسول الله ﷺ حفيديه ، ويصف من يستغربون ذلك بأنهم قوم نزع الله الرحمة من قلوبهم ، بل كان ذلك بقصد أن يشرع للأمة تشريعاً تربوياً مفاده إثبات ضرورة إرواء هذه الحاجة بكل أبعادها .

(١، ٢) علم النفس التربوي : آرثر جيتس ورفاقه ، تعريب : إبراهيم حافظ ورفاقه ، ١/١١٦ ـ ١١٧ ، ط مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٤ م .

(٣) أسس علم النفس ، ص ١٤٩ ، (مرجع سابق) .

٣ ـ وأما ما يمكن استنباطه من هذه الحاجـات ، من خلال كلام ابن القيّم ، فهو :

أ ـ **الحاجة إلى السلطة الضابطـة** ، فـالطفل « يود أن يعلم ، من آن لآخر ، مـا يراد منـه عملـه ، ويود أن يتـأكـد من سلوكـه إن كان يوافق عليـه الغير أم لا ؟ فكأن الطفل يحبّ أن تكون أمـامـه سلطـة ضابطة ترشده وتوجهه ... »[1] .

وقـد أكـد ابن القيّم على (وجـوب تـأديب الأولاد وتعليمهم)[2] حين ساق الأدلة على هذا العنوان الـذي قرره فقـال : (قـال تعـالى : ﴿ يـا أيها الـذين آمنـوا قـوا أنفسكم وأهليكم نـاراً وقـودهـا النـاس والحجارة ﴾ [التحريم ٦/٦٦] .

قال علي رضي الله عنه : علموهم وأدبوهم ، وقـال الحسن : مروهم بطاعة الله وعلموهم الخير)[3] ، ثم ساق ابن القيّم في هذا المعنى حـديثـاً في معجم الطبراني (عن جـابر بن سمرة قـال : قـال رسول الله ﷺ : « لأن يؤدب أحدكم ولده خير له من أن يتصدق كل يوم بنصف صـاع على المساكين »)[4] .

---

(١) أسس علم النفس : عبد العزيز القوصي ، ص ١٤٩ ـ ١٥٠ ، (مرجع سابق) .

(٢،٣) تحفة المودود ، ص ١٣٣

(٤) المرجع السابق ، ص ١٣٤

وأهم ما يتضمنه تأديب الطفل : إرشاده وتوجيهه إلى ما يحسن عمله ، وكفّه عما لا ينبغي ولا يليق . وهذا هو أهم وظيفة للسلطة الضابطة التي يحتاجها الطفل لتقويم سلوكه ، وإزالة ارتباكه وحيرته إزاء المواقف الجديدة . وممارسة الأب لهذه السلطة في تأديب ابنه تعتبر مسؤولية أمام الله . « قال عبد الله بن عمر : أدب ابنك فإنك مسؤول عنه : ماذا أدبته ، وماذا علمته ، وهو مسؤول عن برّك وطواعيته لك »[1] ، قال ابن القيّم : « فمن أهمل تعليم ولده ما ينفعه وتركه سدى فقد أساء إليه غاية الإساءة ... »[2] .

ب ـ « أمّا الحاجة للتقدير فإنها تبدو في شغف الطفل بأن نعترف به ونشجعه إذا مَشَى أو تكلم ، ولا نقدم عليه غيره في كل مرة ولا نهمله ونهتم بأخيه ... إلى غير ذلك ... »[3] . وقد ظهر هذا الاهتمام بالأطفال في بحثين من أبواب كتاب تحفة المودود عند ابن القيّم أحدهما :

(الباب الثالث عشر في جواز حمل الأطفال في الصلاة)[4] ، كما ثبت في الصحيحين ...، وعند أبي داود : بينما نحن ننتظر رسول الله ﷺ ، في الظهر أو العصر ، وقد دعاه بلال للصلاة ، إذ

(١) المرجع السابق ، ص ١٣٤

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٦

(٣) أسس علم النفس ، ص ١٤٩ ، (مرجع سابق) .

(٤) تحفة المودود ، ص ١٣١

خرج إلينـــا ، وأمـــامـــة بنت أبي العـــاص بنت زينب (بنت رسول الله ﷺ) على عنقه ، فقـام رسول الله ﷺ في مصلاه ، وقمنـا خلفه وهي في مكانهـا الـذي هي فيـه ، فكبر ، فكبرنـا ، حتى إذا أراد رسول الله ﷺ أن يركع أخذهـا فوضعهـا ، ثم ركع وسجـد ، حتى إذا فرغ من سجوده قام فأخذهـا فردهـا في مكانهـا (على عنقـه) فما زال رســول الله ﷺ يصنــع بهــا ذلـــك في كل ركعـــة ، حتى فرغ من صلاته »[1] .

الموضـع الثـاني الـذي يـؤخـذ منـه تقـدير الأطفــال هـو قـول ابن القيّم :

(فصل ـ ومن حقوق الأولاد العدل بينهم في العطاء والمنع)[2] ، وقد اخترنا منه نصاً عن العدل بين الأطفال . قال ابن القيّم :

« وقـد ذكر البيهقي ... عن أنس : أن رجـلاً كان جـالســاً مـع النّبي ﷺ ، فجـاء بُنَيٌّ لـه ، فقبّلـه ، وأجلسـه في حجره ، ثم جـاءت بنته ، فأخذها فأجلسها إلى جنبـه ، فقـال النّبي ﷺ : « فما عـدلت بينهما ! »[3] ، لأنـه أجلس الطفـل في حجره والبنت إلى جـانبـه ، ثم

(١) المرجع السابق ، ص ١٣٢ ، واللفظ لأبي داود .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٥

(٣) المرجع السـابـق ، ص ١٣٦ ، والحـديث الأخير عن النعمان بن بشير : « اتقـوا الله واعدلوا بين أولادكم » انظر : صحيح البخاري برقم ٢٤٤٧ ، (مرجع سابق) .

قال ابن القيّم : وقال النّبي عليه الصلاة والسلام : « اعدلوا بين أولادكم » ... »[1] .

قال ابن القيّم : (ومن العجب أن يُحمل قوله : « اعدلوا بين أولادكم » على غير الوجوب وهو أمر مطلق مؤكد ثلاث مرات ، وقد أخبر الآمر به أن خلافه جور ، وأنه لا يصلح ، وأنه ليس بحق ، وما بعد الحق إلاّ الباطل ..)[2] .

وتدل هذه النصوص التي اخترناها دلالات تربوية أهمها :

١ً ـ بلغ من تقدير الرسول ﷺ للأطفال ورحمته واهتمامه بهم ، أن يحمل حفيدته أُمامة على عنقه وهو في صلاة الفريضة يؤم الناس ، وأتبعه ابن القيّم في ذلك فقال في استنباط الأحكام من الحديث « وفيه أن العمل المتفرق في الصلاة لا يبطلها إذا كان للحاجة ، وفي الرحمة بالأطفال »[3] ، فاعتبر الرحمة بالأطفال من الحاجات التي تبيح العمل المتفرق والحركات المتعددة في الصلاة ، دون أن تبطلها .

٢ً ـ ومن تقدير الأطفال إظهار الاهتمام بهم والعدل بينهم في هذا

---

(١) تحفة المودود ، ص ١٣٦ ، (مرجع سابق) .

(٢) تحفة المودود ، ص ١٣٥ ، (مرجع سابق) .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٣٢

الاهتمام على السواء ، فلم يرض رسول الله ﷺ من جليسه أن يضع ابنه في حجره وابنته بجانبه ، إذ لم يعدل بينهما بل أظهر الاهتمام بابنه أكثر منه بابنته ، ولذلك قال له رسول الله ﷺ : « فما عدلت بينهما !... » كما رأينا ، وأمر بالعدل بين الأولاد أمراً عاماً ، وهو يشمل العدل في كل شيء ، وقد جاء ابن القيّم بمثالين أحدهما هذا الذي يدل على وجوب العدل بالرحمة والاهتمام ، والآخر حديث النعمان بن بشير ويدل على وجوب العدل في العطاء ، لئلا يحقد بعض الأبناء على بعض ، أو على أبيهم ...

٣ ـ اعتبار بدء هذه المرحلة بدءاً لسن التعليم .

لو رجعنا أدراجنا إلى أول الكلام عن هذه المرحلة ، لوجدنا أن كل ما قيل عن تمييز الطفل وأمره بالصلاة ، دليل على اعتبار هذه المرحلة هي الوقت المفضل لبدء تعليم الطفل .

فالتمييز دليل القدرة على التعلّم ، وحفظ العلم ونقله ، وهذا رأي علماء الحديث ، وهم الذين يؤلفون (المدرسة الفكرية ـ التربوية الأولى) في تاريخ الإسلام ، وهم الذين أوردوا حديث محمود بن الربيع[1] ليستدلوا به على أن سن الخمس سنوات يمثل الحد الأدنى لبدء

---

(١) نقلناه وذكرنا تخريجه في أول هذا الفصل .

التعلم ونقل العلم ، كما قال ابن القيّم « ولذلك جعلت الخمس حدّاً لصحة سماع الصبي »[1] كما رأينا .

وأما الأمر بأمر الطفل بالصلاة وهو ابن سبع سنين ، فهو أيضاً دليل على وجوب بدء تعليم الطفل في هذه المرحلة من العمر ، لأن أداء الصلاة لا يتَم إلا بتعلم أذكارها وما يتلى فيها من كتاب الله ، وما يجب قبلها من الطهارة والوضوء ، وما كان رسول الله ﷺ ليأمرنا أن نأمر أبناءنا بالصلاة من غير أن نعلمهم ما تصح به الصلاة ، وما تبنى عليه من أركان وأذكار وتلاوة قرآن .

وهذا البدء بتعليم القرآن للأطفال منذ السادسة والسابعة ، أو منذ أن تظهر عليهم علامات التميز ، هو الذي جرت عليه أجيال الأمة ، وأرسلت أبناءها إلى الكتاتيب منذ عهد عمر بن الخطاب ، واستمر ذلك إلى يومنا هذا ، حيث حلت المدارس الأولية والابتدائية محل الكتاتيب .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٧٦

الفصل السادس

بلوغ السنة العاشرة من العمر

وفي هذه المرحلة يتميز الطفل بمزيد من النضج والإدراك لذا يجب مراعاة النمو العقلي والمعرفي الذي يبلغه الطفل في هذه السن وتكليفه بما يناسبه . فقد لاحظ علماء النفس التربوي ، في خلال بحثهم للنمو البشري ، أن الطفل بين التاسعة والعاشرة من عمره ، يمر بتغيرات تدل على تمتّعه بمزيد من القدرات الإدراكية ، وأنه ينتقل إلى طور جديد من التفكير وتقدير الأمور ومعرفة الزمان والمكان ، كما قال (جير سيلد) :

« وتشير الأدلة التي أمكن الحصول عليها ، إلى أن الطفل لا يفهم الزمان في معناه التاريخي ، قبل التاسعة أو العاشرة من عمره ... »[1] .

ثم قال مشيراً إلى هذه الفترة من العمر أيضاً :

---

(١) علم النفس التربوي : آرثر جيتس ورفاقه ، تعريب : إبراهيم حافظ ورفاقه ، ٢١٠/١ ، ط مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٤ م .

« فإذا ماتقدم به العمر غدا أكثر قدرة على أن يشغل نفسه بأمور غير مباشرة ، وأن يعالج أموراً معنوية تختلف عن المشكلات المحسوسة »[1] .

وقد سبق ابن القيّم إلى هذا فقال تحت عنوان (فصل - فإذا صار ابن عشر ازداد قوة وعقلاً واحتمالاً للعبادات ، فيضرب على ترك الصلاة ... ضرب تأديب وتمرين) ، ثم قال : « وعند بلوغ العشر يتجدد له حال أخرى يقوى فيها تمييزه ومعرفته ، ولذلك ذهب كثير من الفقهاء إلى وجوب الإيمان عليه في هذا الحال ، وأنه يعاقب على تركه .. وهو قول قوي ، وإن رفع عنه قلم التكليف بالفروع فإنه قد أُعطي آلة معرفة الصانع . والإقرار بتوحيده وصدق رسله ، وتمكّنَ من نظر مثله واستدلاله ، كما هو متمكن من فهم العلوم والصنائع ، ومصالح دنياه ، فلا عذر له في الكفر بالله ورسوله ، مع أن أدلة الإيمان بالله ورسوله أظهر من كل علم وصناعة يتعلمها ... »[2] .

وتتضح لنا من هذه النصوص أمور تربوية خلاصتها :

١ً - أن الطفل في العاشرة تظهر عنده قدرات واستعدادات عقلية لم تكن واضحة قبل ذلك كاستعداده لفهم الزمان التاريخي ، وزيادة

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢١٠

(٢) تحفة المودود ، ص ١٨١ ، (مرجع سابق) .

قدرته على فهم الأمور المعنوية ، كالإيمان بالله ، كما توصلت إليه العلوم النفسية والتربوية المعاصرة .

٢ - أن طفل العاشرة قد أوتي القدرة على النظر والاستدلال كما قال ابن القيّم : « فإنه قد أُعطي آلة معرفة الصانع .. وتمكّن من نظر مثله واستدلاله »[١] ، أي تمكّن من النظر في أدلة وجود الخالق وتوحيده كأمثاله من الراشدين ، « كما هو متمكّن من فهم العلوم والصنائع »[٢] .

٣ - وتدل العبارة الأخيرة على أن عمل الناشئين ، ودخولهم مضمار الصناعات والخدمات الاجتماعية كان يبدأ في العاشرة ، وأن هذا كان شائعاً في ذلك العصر حتى احتج به ابن القيم ، وذلك لأن الكتاتيب لم تكن تعلم الأطفال ، لأكثر من العاشرة .

٤ - أن الطفل في العاشرة يستطيع فهم آيات الله في الآفاق وفي أنفسنا ، كما وردت في القرآن ، وأن كل من بلغه القرآن ، فقد أنذره الله به ، تحقيقاً لقوله تعالى : « ﴿ وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ﴾ - وفي تفسيره قال ابن القيّم - أي ومن بلغه القرآن ، فكل من بلغه القرآن وتمكن من فهمه فهو منذَرٌ به »[٣] ، والإنذار يقتضي

(١، ٢، ٣) المرجع السابق ، ص ١٧٩ ، وأكثرها مقاطع من النص السابق ، وكلها من هذا الفصل الذي عنونه ابن القيّم بقوله (فصل فإذا صار ابن عشر ازداد قوة وعقلاً) ، وفي تخصيص هذا الفصل دليل على تميز هذه المرحلة من الطفولة عند ابن القيّم .

الإيمان ، لأن الله إنما أنذرهم بالعذاب إن لم يؤمنوا بالله وبرسوله ، ويرضوا بالإسلام ديناً ، فهؤلاء أبناء العاشرة ممن تعلموا القرآن أي بلغهم وتمكنوا من فهمه .

٥ ـ نستخلص مما تقدم أن الأطفال في العاشرة ، يجب أن توضّح لهم أدلة الإيمان ومعنى الشهادتين ، وما يلزم عنهما من الخضوع والاستسلام لله وكتابه وسنّة رسوله ، ونصرة دينه ، وأداء العبادات وخاصة أركان الإسلام ، ويؤخذ العهد عليهم بذلك وينذروا ويحذّروا من مذاهب الكفر ونتائجه ، قبل مغادرة الكتاتيب أو المدارس الابتدائية إلى الصناعات الدنيوية ، فمن أبى « فلا عذر له في الكفر بالله ورسوله »[1] ، ويجب أن يكون هذا من أهداف المدارس الابتدائية ووظائفها في هذا العصر .

(١) المرجع السابق ص ١٨٩

الفصل السابع

مرحلة المراهقة ومناهزة الاحتلام

وهي امتداد لسن العاشرة ، وإعداد للاحتلام أو بلوغ سن التكليف ، فليس فيها جديد يذكره ابن القيم سوى التسمية الاجتماعية واللغوية إذ يقول : « فصل ـ ثم بعد العشر إلى سن البلوغ يُسمّى مراهقاً ، أو مناهزاً للاحتلام »[1] ثم ينتقل إلى وصف سن البلوغ وتحديدها بالخامسة عشرة : « فإذا بلغ خمس عشرة سنة عرض له حال آخر يحصل معها الاحتلام »[2] .

ومن هذه العبارة ومن مراجعة كتب اللغة يمكننا أن نستنبط الحقائق التربوية التالية :

أ ـ إن مدة هذه المرحلة تراوح بين أربع سنوات إلى ست أو أكثر ؛ فهي تمتد من العاشرة حتى تظهر علامات البلوغ ، التي سندرسها في المرحلة التالية ، وفيها اختلاف في وقت ظهورها كما قال ابن القيم : « وليس لوقت الاحتلام سن معتاد ، بل من الصبيان من

(١، ٢) المرجع السابق ص ١٨٠

يحتلم لاثنتي عشرة ، ومنهم من يـأتي عليـه خمس عشرة وست عشرة وأكثر من ذلك ولا يحتلم ... »[1] .

٢ً ـ إن المعاني اللغوية للفظ (المراهق) تدل على أمور أهمها :

أ ـ المقاربة (راهق الغلام : قارب الحلم ، ودخل مكـة مراهقـاً : مقـارباً لآخر الـوقت)[2] ويـؤيـده قـول ابن القيم : « أو منـاهِـزاً للاحتلام » .

ب ـ (الرهَـق محركـة : السّفَـهُ والخفـة وركـوب الشر وغشيـان المحارم ...)[3] .

جـ ـ (الرهَـق اسم من الإرهـاق ، وهـو أن تحمـل الإنسـان على مالا يطيقه ..)[4] .

د ـ (الرهَق : العجلة . وهو يعدو الرهَقَى أي يسرع في مشيه ، حتى يرهق طالبه ..)[5] .

٣ً ـ إن بعض هـذه المعـاني اللغويـة تنطبـق على تصرفـات بعض المراهقين ، أو على ظروف المراهـق العـامـة وحـالتـه في النمـو الجسماني السريـع الكبير ، الـذي يسبب لـه بعض الإرهـاق أو الارتبـاك والاضطراب ...

---

(١) المرجع السابق ص ١٨٠

(٢، ٣، ٤، ٥) القاموس المحيط ٢٣٩/٣

إذ « يكون نمو الجسم عند المراهق سريعاً ... ومعنى هذا النمو السريع استنفاد سريع لطاقة الجسم ... ولهذا النمو الجسماني أثره في تيقظ انتباه الغلام لحالته الجديدة من النمو وطول الجسم وطول الأطراف ، وقد يترتب على وعيه هذا وانتباهه ، خجله واضطرابه ، واضطراب حركاته ، ورعونته ، وتغير في سلوكه أثناء المشي والحركة »[1] .

٤ ـ إن تأخر بدء سن المراهقة عند المراهق تابع لتأخر احتلامه أو (بلوغه) فأهم معاني المراهقة وألصقها بالغلام المراهق هو (مقاربة الحلم أو البلوغ) ، وهو مادلّ عليه قول ابن القيم : « يسمى مراهقاً ومناهزاً للاحتلام »[2] ففي معاجم اللغة (نَهزَ الشيءُ : قرب .. وناهزه : داناه) وعلى هذا يكون اللفظان اللذان استخدمها ابن القيم بمعنى المقاربة . وإذا اعتبرنا مدة هذه المقاربة (٤) سنوات ، كما حللنا كلام ابن القيم في أول هذه المرحلة فيمكن ثباتها على ذلك (من ١١ ـ ١٥) ولكنها قد تبدأ من الثانية عشرة إن كان احتلامه وبلوغه يتأخر إلى الـ (١٦) أو السابعة عشرة ، أما إذا ثبتنا بدء المراهقة

---

(١) التربية وطرق التدريس : عبد العزيز عبد المجيد ـ صالح عبد العزيز شحاتة ، ط . دار المعارف بمصر ، الطبعة الأولى .

(٢) تحفة المودود ، ص ١٨٠ (مرجع سابق) .

بالحادية عشرة فيمكن أن تطول مدتها أو تقصر ، وهذا مقتضى كلام ابن القيم إذا أخذناه على ظاهره .

٥ ـ ومن الأسماء التي أطلقها ابن القيم على المراهق (اليافع ، النهام للغلمة)[١] قلت : (واليَفَع ، واليفاع : التل . وأمكنة يَفوعٌ : مرتفعة .. ويفع الغلام راهق العشرين)[٢] فتسميته باليافع دليل على نموّ عظامه السريع ، الذي يجعله مرتفع القامة ، كما تقدم . (والغلمة : شهوة الضراب)[٣] وهذه الشهوة من الأمور التي تصحب البالغ لا المراهق .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٨٣ (والنهمة بلوغ الهمة في الشيء) كما في مختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر الرازي من منشورات دار الحكمة بدمشق .

(٢) القاموس المحيط ١٠٢/٣ (مرجع سابق) .

(٣) المرجع السابق ١٥٧/٤

الفصل الثامن

مرحلة البلوغ

١ ـ تعريفه :

البلوغ هو الاسم الغالب على هذه المرحلة ، وهو مضاف حذف منه المضاف إليه ، والأصل (بلوغ الحلم أو بلوغ سن التكليف) وهذا من إضافة المصدر إلى مفعوله ، ثم حذف المضاف إليه لاشتهاره ومعرفته ، ورغبة في الاختصار ؛ نظراً لكثرة الاستعمال ، ويحلّى بألف ولام التعريف وهي (العهدية) لأن هذه التسمية أصبحت معهودة ، وقد جعلها ابن القيم نهاية لمرحلة المراهقة ، كما رأينا ذلك في قوله : « ثم بعد العشر إلى سن البلوغ يسمى[1] مراهقاً » فأطلق (سن البلوغ) كما ترى على هذه المرحلة التي تلي المراهقة .

٢ ـ وقت البلوغ وعلاماته :

الوقت الغالب للبلوغ ، والذي اشتهر بين الناس هو سن

(١) تحفة المودود (مرجع سابق) ص ١٨٠ ، والإنبات : نبات الشعر في الإبط وفوق الفرج كما سيأتي .

الخامسة عشرة ، وقد يزيد أو ينقص عند بعض الغلمان ، أو الفَتَيات ، وعلاماته متعددة أشهرها اثنتان . وفي ذلك كله يقول ابن القيم عن الناشئ : « فإذا بلغ خمس عشرة سنة ، عرض له حال آخر ، يحصل معها الاحتلام ، ونبات الشعر الخشن حول القبل ، وغلظ الصوت ، وانفراق أرنبة الأنف ؛ والذي اعتبره الشارع من ذلك أمران : الاحتلام والإنبات »[1] . ثم أورد الأدلة من القرآن والسنة على قوله هذا . قال : « أما الاحتلام فقال تعالى : ﴿ يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا لِيَسْتَأذِنْكُمُ الَّذينَ مَلَكَتْ أَيْمانُكم والَّذينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ منكم ثلاثَ مراتٍ .. ﴾ [النور ٥٨/٢٤] ثم قال : ﴿ وإذا بلغ الأطفال منكم الحلمَ ، فليستأذنوا ، كما استأذن الذين من قبلهم ﴾ [النور ٥٩/٢٤] »[2] .

فهذه العلامة الأولى وقد صرح بها الحديث النبوي على شكل أوضح كما نقله ابن القيم قال : (قال النبي ﷺ : « رُفع القلم عن ثلاثة : عن الصبي حتى يحتلم ، وعن المجنون حتى يفيق ، وعن النائم حتى يستيقظ »)[3] فصرح بالاحتلام وهو كما دلت عليه كتب اللغة

---

(١) المرجع السابق ص ١٨٠

(٢) المرجع السابق ، ص ١٨٠ وفي القاموس : الحلم والاحتلام : الجماع في النوم . والاسم الْحُلُم (كعُنُق) القاموس المحيط ٩٩/٤ (مرجع سابق) .

(٣) تحفة المودود ، ص ١٨٠ (مرجع سابق) رواه أحمد وأبو داود والحاكم عن علي وعمر =

والفقه ، أن يرى الفتى في الحلم ما يثير شهوته فيفرز المادة المنوية .

أما العلامة الثانية ؛ فهي أكثر اعتباراً ، لأن لها صفة الاستمرار ، ويصعب إخفاؤها لذلك يتخذها القضاة دليلاً ، كما أمر بذلك الرسول ﷺ وعدد من الصحابة وفيها يقول ابن القيم :

« وأما الإنبات ، فهو نبات الشعر الخشن حول قُبُل الصبي والبنت »[1] ، « واحتج من جعله بلوغاً ، بما في الصحيحين : أن النبيّ ﷺ لما حكّم سعد بن مُعاذ في بني قريظة ، فحكم بأن تقتل مقاتلتهم ، وتسبى ذراريهم ، أمر بأن يكشف عن مؤتزرهم ، فمن أنبت فهو من المقاتلة ، ومن لم ينبت ألحقَ بالذرّيّة[2] .. واستمر على هذا العمل الصحابة رضي الله عنهم بعد النبي ﷺ ... »[3] .

وذكر ابن القيم الخلاف في تحديد سن البلوغ فقال : « وليس لوقت الاحتلام سن معتاد ، بل من الصبيان من يحتلم لاثنتي عشرة ، ومن يأتي عليه خمس عشرة وست عشرة ولا يحتلم ، وأكثر من ذلك ولا يحتلم . واختلاف الفقهاء في السن الذي يبلغ به مثل هذا : فقال

= بلفظ : « .. عن المجنون المغلوب على عقله حتى يبرأ ، وعن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبي حتى يحتلم » وهو صحيح انظر صحيح الجامع الصغير برقم / ٣٥٠٦ / ١٧٩/٣ (مرجع سابق) .

(١، ٢) تحفة المودود ، ص ١٨١

(٣) المرجع السابق ، ص ١٨٢

الأوزاعي وأحمد والشافعي وأبو يوسف ومحمد : متى كمل خمس عشرة سنة حكم ببلوغه . ولأصحاب مالك ثلاثة أقوال أحدها سبع عشرة ، والثاني ثماني عشرة ، والثالث خمس عشرة .. »[1] « وليس عن رسول الله ﷺ في السن حد البتّة »[2] .

ويكمن سرّ هذا الاهتمام البالغ والخلاف الطويل حول سن البلوغ وعلاماته ، فيما يترتب عليه من أحكام ونتائج ومسؤوليات تربوية وحقوقية ، كما سنرى في الفقرة التالية :

٣ ـ النتائج والمسؤوليات المترتبة على البلوغ :

أهم ما في البلوغ تحمل مسؤوليات الحياة والرجولة ، وأجمل ابن القيم هذه المسؤوليات والنتائج في عبارة موجزة فقال : « فإذا تيقن بلوغه ، جرى عليه قلم التكليف ، وثبتت له جميع أحكام الرجل »[3] .

وفي هذا النص على إيجازه أمور كثيرة نستنبط بعضها مثل :

أ ـ تيقّن البلوغ بظهور إحدى علامتيه الرئيستين اللتين سبق ذكرهما ، ويحصل هذا التيقن للبالغ نفسه بالاحتلام ، ولغيره

(١) المرجع السابق ، ص ١٨٠

(٢) المرجع السابق ، ص ١٨١

(٣) المرجع السابق ، ص ١٨٢

بـالكشف عنـه لرؤيـة الشعر ، كما أوضحنـا آنفـاً ، هــذا إذا لم يـوثـق بكلامـه ، أو كان في موقف المتهم الـذي تثبت عليـه العقوبـة إذا ثبت بلوغه ..

٢ - تحميل البـالغ مسؤوليـات التكليف الإلهي . والتكاليف على درجات أعلاهـا وأهمهـا الإيـمـان بـالله ، وتوحيـده ، وتكريس الحيـاة لعبـادتـه ولتحقيق الخضوع الخـالص لجـلالـه ، وهـذا مـابـدأ ابن القيم بتحميله للمراهق منذ الحـاديـة عشرة من العمر ، كما رأينـا في مرحلـة المراهقة - وهي مرحلة إعداد للبلوغ - .

٣ - انتهاء فترة نيابة الأبوين أو من يقوم مقامهما ، عن الطفل في تحقيق أحكام الله الأمرية الجاريـة على الطفل ، فقـد « كان المخـاطب بها الأبوين أو من يقوم مقامهما »[1] نيـابـة عن المولود ، لعـدم قـدرتـه على القيام بها . ثم أخذا يُدَرّبانـه ليـأخـذ بزمـام أموره شيئـاً فشيئـاً ، ويربّيانه على تحقيق كل ما يتعلق به من أحكام الله الأمرية ، ليستقل عن أبويه ، ويقوم بمسؤولياته ، وهذا ممـا يوضح أحـد مَعْنَيَي التربيـة عند ابن القيم ، وفقاً للمنظومـة الأيـديولوجيـة التي عرضنـاهـا في أول بحثه عن الطفولة في مقدمة كتابه (تحفة المودود) .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣

٤ ـ تحقّق المعنى الثاني من معاني التربية عند ابن القيم وهو الإعداد السابق على البلوغ لتحقيق صفات الرجولة ، فإذا ثبت البلوغ « ثبتت للبالغ جميع أحكام الرجل »[(١)] كما قال ابن القيم .

وهذه الأحكام : منها ما يتعلق (بأحكام الله الأمرية) كإقامة العبادات وشعائر الدين وحدود الله ، والجهاد والدعوة إلى الله ...

ومنها ما يتعلق بالعرف الاجتماعي ، كتوفّر صفات الرجولة من نخوة ومروءة وقدرة على التكسب ، والاكتفاء ، والاستقلال ، والفروسية ، وكالصدق والشجاعة .

ومنها ما يتعلق بالمسؤوليات ، كتسليمه ماله إن لم يكن مبذراً ولا سفيهاً ، وكان غنياً ، قد ورث ثروة ؛ وكمسؤولية الدفاع عن النفس ، وإعالة الزوجة والولد إن كان يطلب الزواج ، وكل هذه جرت فيها أحكام الله الأمرية حتى أصبحت عرفاً .

ومنها ما يتعلق بتجنب المحرمات . فقد أصبح مسؤولاً عنها بالذات ، مباشرة ، ومعرضاً للعقوبات والحدود الدنيوية ، وللعقوبات والجزاء الأخروي ، كالرجل تماماً ، لا ينقص عنه في ذلك شيء ، فعلى الأبوين أن يبينا له هذا من قبل البلوغ ويعلّماه أمر دينه ، ويحذراه من الفواحش والمحرمات .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٨٢

٥ً ـ على أن مسؤولية الأبوين لاتنتهي كلياً ، فإذا افتقر البالغ ولم يتيسر له طلب الرزق ، وكانا غنيّين ، فعليهما أن ينفقا عليه ، ويعيناه على طلب الرزق وعلى الزواج كما قال ابن القيم :

(وذكر البيهقيّ من حديث مسلم بن إبراهيم حدثنا شداد بن سعيد عن الحريري عن أبي سعيد وابن عباس . قال : قال رسول الله ﷺ : « من ولد له ولد فليحسن اسمه وأدبه ، فإذا بلغ فليزوجه ، فإن بلغ ولم يزوجه ، فأصاب إثماً فإثمه على أبيه »)[١] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٣٤

الفصل التاسع

بلوغ الأَشُدّ

وهي مرحلة تأتي امتداداً لمرحلة البلوغ ، حيث يشتد البالغ ويستكمل قواه العقلية والجسمية . لذلك ذكرها ابن القيم بعد ذكر البلوغ مباشرة ، دون أن يكون بينهما فاصل أو علامة لهذه المرحلة الجديدة ، وذلك حين قال : « فإذا تيقن بلوغه جرى عليه قلم التكليف ، وثبتت له جميع أحكام الرجل ، ثم يأخذ في أول بلوغ الأشد »(١) ثم استعرض أقوال المفسرين في تعريفها وتحديدها ، وقد اختلفوا في ذلك لاختلاف معانيها في مواطن ورودها من القرآن ، فقد وردت بمعنى الحلم في سورة الحج ٥/٢٢ : ﴿ ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ﴾ لورودها بعد الطفولة ، أمّا في سورة غافر ٦٧/٤٠ في قوله : ﴿ ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً .. ﴾ فتدل الآية على مرحلة بين الطفولة والشيخوخة عبّر عنها بقوله : ﴿ ثم لتبلغوا أشدكم ﴾ .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٨٢

وقد ورد لفظ الأشدّ بمعنى بلوغ الحلم في سورة الأنعام ١٥٢/٦ : ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلاّ بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ﴾ وقد جاء أيضاً معنى هذه الآية في سورة النساء ٦/٤ : ﴿ وابتلوا اليتامى ، حتى إذا بلغوا النكاح ، فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ... ﴾ فإذا جُمعت الآيتان دلّتا على أن بلوغ الأشُدّ بالنسبة إلى اليتيم هو بلوغ النكاح ، أي سن الزواج وهو بلوغ الحلم . لذلك « قال ابن عباس في رواية عطاء عنه : الأشد : الحلم »[1] .

أما ورود الأشد بمعنى بلوغ الأربعين ، فهو دليل على أن المقصود بلوغ غاية الأشدّ حيث يبلغ الإنسان (كمال قوّته وعقله ورأيه)[2] كما قد ورد في سورة الأحقاف ١٦/٤٦ : ﴿ حتى إذا بلغ أشُدَّهُ وبلغ أربعين سنة ؛ قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي ... ﴾ .

وقد جمع الزهري بين هذه المعاني للفظ الأشد كما قال عنه ابن القيّم :

« وقد أحكم الزهري تحكيم اللفظ ، فقال : بلوغ الأَشُدّ يكون من وقت بلوغ الإنسان مبلغ الرجال ، إلى أربعين سنة »[3] قال

(١) المرجع السابق ، ص ١٨٢

(٢) تفسير الجلالين بهامش المصحف الشريف ، ص ٦٦٧ (دار المعرفة ـ بيروت) .

(٣) تحفة المودود ، ص ١٨٢ (مرجع سابق) .

ابن القيم : « فبلوغ الأشد مرتبة بين البلوغ وبين الأربعين ، ومعنى اللفظة من الشدة ، وهي القوة والجلادة ، والشديد : الرجل القوي .. »[1] .

ويؤخذ من هذه النصوص **دلالات تربوية** أهمها :

١ ـ أن مرحلة بلوغ الإنسان أشُدّه تبدأ من وقت البلوغ وتنتهي في سن الأربعين سنة ، والذي فسر الأشد بالحلم عنى أول مرحلة الأشد ولا ينافي استمرارها .

٢ ـ أن نضج العقل الإنساني والقوى البشرية يبلغ (على الأغلب) ذروته في سن الأربعين من العمر ، وفي هذه المرحلة يؤتي الله الأنبياء الحكم والعلم على التدريج ، كما قال تعالى عن يوسف : ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً ، وكذلك نجزي المحسنين ﴾ [يوسف ٢٢/١٢] وقال عن موسى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّه واستَوى آتيْناهُ حُكماً وَعِلماً وكذلك نجزي المحسنين ﴾ [القصص ١٤/٢٨] وفي نهاية هذه المرحلة ينزل الله وحيه على رسله ، كما ثبت عن نبينا محمد ﷺ .

٣ ـ أن الإنسان « بعد الأربعين ، يأخذ في النقصان ، وضعف القوى ، على التدريج ، كما أخذ في زيادتها على التدرّج .. »[2] كما سنرى في المرحلة التالية .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٨٣

(٢) المرجع السابق ، ص ١٨٣

الفصل العاشر

مابعد الأربعين : مرحلة النقصان وضعف القوى

وقد بدأ ابن القيم هذه المرحلة بقوله : « ثم بعد الأربعين يأخذ في النقصان وضعف القوى على التدريج »[1] .

وقد اعتبر ابن القيم ماقبل الأربعين مرحلة شباب ، ثم تأتي الكهولة فالشيب ، قال : « فإذا اجتمعت لحيته ، فهو شابٌ إلى الأربعين ، ثم يأخذ في الكهولة : إلى الستين ، ثم يأخذ في الشيخوخة ، فإذا أخذ شعره في البياض ، قيل : (شابَ) . فإذا زاد قيل : (وَخَطَهُ الشيب) فإذا زاد قيل : شَمَطَ .. ، فإذا انحطت قواه ، فهو (هَرِم) ، فإذا تغيرت أحواله وظهر نقصه ، فقد رُدَّ إلى أرذل العمر ، فالموت أقرب إليه من اليد إلى الفم »[2] .

المعطيات التربوية : يدل هذا النص على بعض الخصائص التربوية التي امتاز بها ابن القيم وإليك أهمها :

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٨٣

(٢) المرجع السابق ، ص ١٨٤

١ - يمتاز ابن القيم ، باهتمامه بكل مراحل تطور الحياة البشرية ، فهو كما اهتم بالنمو والطفولة ، كذلك اهتم بالنقص وتدهور الجسم وانحطاط القوى ونقصها في آخر العمر . وهذا يعكس **عمق النزعة الإنسانية عنده ، وأهمية الحياة بكل مراحلها في نظرته التربوية** الإسلامية الشاملة المتفائلة ، فليست الكهولة والشيخوخة أقل أهمية من الطفولة والشباب .

٢ - كما يمتاز بدقة التقسيم ، فكما استنبطنا عنه المراحل السبع التي ذكرها للطفولة والمراهقة والبلوغ ، كذلك هنا يمكننا أن نقسم مراحل الضعف وتراجع قوى الإنسان إلى الفترات التالية مأخوذة من النص السابق :

أ - الكهولة ، وهي عنده[1] من بعد الأربعين إلى الستين .

ب - الشيخوخة ، وهي ما بعد الستين وتشتمل على فترات ؛ لكل فترة وصف يوصف به الشيخ فهو - كما وصفه ابن القيم نقلاً عن الجوهريّ أحد علماء اللغة - :

(١) شيخ قد شاب (أي أخذ شعره في البياض)[2] .

---

(١) في القاموس : الكهل من وخطه الشيب ورأيت له بجالة ، أو من جاوز الثلاثين أو أربعاً وثلاثين إلى إحدى وخمسين ، القاموس المحيط ٤٧/٤ (مرجع سابق) .

(٢) تحفة المودود ، ص ١٨٤ (مرجع سابق) .

(٢) شيخ وَخَطَـهُ الشيب (أي خـالطـه أو فشـا شيبـه أو استوى سواده وبياضه)[١] .

(٣) شيخ أشمـط ، وعجـوز شمطـاء (أي غلب بيـاض شعرهـا ، يخالطه سواد)[٢] .

(٤) شيخ اشتعل رأسـه ولحيتـه شيبـاً فهو متقعـوس[٣] (أي عمّـه البياض) .

جـ ـ الْهَرَم : والشيخ الْهَرِم : الذي انحطت قواه .

د ـ الارتـداد إلى أرذل العمر وذلـك (إذا تغيرت أحـوالـه وظهر نقصه)[٤] .

٣ً ـ كذلك يمتاز ابن القيم باستمرارية تحقيق الأهداف الاعتقاديـة ـ أو كما تسمّى اليـوم : الإيـديـولـوجيـة التربـويـة ـ في جميـع أبحـاثـه التربوية فهو هنـا لم ينسَ أن يـذكّر الشيخ الهرم الـذي ارتـد إلى أرذل العمر ، بالموت ، الذي ينذره بلقاء الله ، ... ليحاسب ، بين يـديـه ، على مقدار تحقيقه الأهـداف التربويـة التي من أجلهـا خلق الإنسـان ،

---

(١) القاموس المحيط ٣٩١/٢ (مرجع سابق) .

(٢) المرجع السابق ٣٦٩/٢

(٣) تَقَعوَسَ الشيخُ : كبر ، والبيتُ : تهدم (المرجع السابق) ٢٤١/٢

(٤) تحفة المودود ، ص ١٨٤ (مرجع سابق) .

ورَبِيَ ونشأ وترعرع ، ثم بلغ أشده ، ثم آل إلى الهرم والشيخوخة فالموت ، إذ يقول في التعقيب على فترة (الارتداد إلى أرذل العمر) يقول : « فالموت أقرب إليه من اليد إلى الفم »[1] .

وهذا يعني اهتمام ابن القيم بكرامة الإنسان ومسؤوليته إذ يذكّره بمثله الأعلى ، في كل أحواله ومراحل حياته ، ليبقى يقظاً حياً ، يمارس إنسانيته ويحقق ذاته حتى في أصعب مراحل حياته .

(١) المرجع السابق ، ص ١٨٤

الفصل الحادي عشر

مرحلة الانتقال من دار الفناء إلى دار البقاء

وفي هذه المرحلة تجنى ثمار التربية والعمل الذي قدمه الإنسان في هذه الدنيا ، وتتحقق النتائج التي رتبها الله(☆) على الأعمال ، بعد أن تتحقق مسؤولية الإنسان ، فيسأل عن كل أعماله وسلوكه واعتقاده وتربيته لنفسه وولده في الحياة الدنيا ، ويتذكر كل إنسان الأسباب التي اتخذها في الحياة الدنيا ، فأوصلته إلى ما وصل إليه في الحياة الآخرة من نتائج ، فهذه المرحلة تحقق الجانب الأهم من إنسانية الإنسان ومسؤوليته . فذكر هذه المرحلة متمم وموضح للأسس الاعتقادية التي بنى عليها ابن القيم إيديولوجيته التربوية ، كما رأينا ، لذلك سنذكرها بشيء من التفصيل لنستنبط منها بعض تلك الأسس الاعتقادية وهي أيضاً تنقسم إلى فترات كالتالي :

١ ـ فترة الانتقال من الحياة الدنيا إلى البرزخ :

قال ابن القيم : « فإذا بلغ الأجلَ الذي قُدِّرَ له ، واستوفاه ،

(☆) وفقاً لأهم مبادئ التربية العقلية عند ابن القيم كما سنرى .

جاءته رسل ربه عز وجل ، ينقلونه من دار الفناء إلى دار البقاء ...
ثم دنا منه الملك الموكل بقبض الأرواح فاستدعى الروح ؛ فإن كانت روحاً طيبة قال : اخرجي أيتها النفس الطيبة ، كانت في الجسد الطيب ، اخرجي حميدة ، وأبشري برَوْح ورَيْحان ، ورب غير غضبان ... ثم يصعد بها للعرض الأوّل على أسرع الحاسبين ... فتحيّي ربها ... ثم يخرج لها التوقيع بالجنة ، فيقول الرب جلّ جلاله : « اكتبوا كتاب عبدي في علّيين » ... فإذا وضع في لحده وتولّى عنه أصحابه دخلت الروح معه ... فأتاه حينئذ فتّانا القبر .. يسألانه : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيُّك ؟ فيقول : ربي الله ، وديني الإسلام ، ونبيي محمد ، فيصدقانه ويبشرانه بأن هذا الذي عاش عليه ومات عليه ، وعليه يبعث .. »[1] .

« وأما النفس الفاجرة فبالضد عن ذلك كله ، إذا أُذنت بالرحيل ... قال ملك الموت : اخرجي أيتها النفس الخبيثة ، كانت في الجسد الخبيث .. أبشري بحميم وغسّاق ... ويوجد لها كأنتن رائحة جيفة على وجه الأرض .. ثم يصعد بها إلى السماء فلا تفتح لها أبواب السماء ، ثم يجيء النداء من رب العالمين : اكتبوا كتابه في سجين وأعيدوه إلى الأرض ...

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٨٤

فإذا وضع في اللحد أعيدت إليه ، وجاء الملكان فسألاه عن ربه ودينه ونبيه ، فيتلجلج ويقول : لاأدري ، ثم يضربانه ضربة ، يصيح صيحة يسمعه كل شيء إلا الثقلين ... »[1] أي الجن والإنس .

الدلائل التربوية : ليست هذه النصوص مجرد أمور غيبية ، وحَسْبُ ، بل إن العمل بمقتضاها ـ وهو من تمام الإيمان بها ـ يتطلب أن نستنبط منها نتائج تربوية نربي عليها الأجيال أهمها :

أ ـ أن التربية يجب أن تشمل الروح ـ أو النفس ـ والجسد معاً ، وعلى هذا ـ يُبدأ بحساب الإنسان عند الموت فإن كانت نفسه رُبّيت تربية طيّبة قيل لها : « اخرجي أيتها النفس الطيبة ، كانت في الجسد الطيب »[2] ويبشر بأن (هذا الذي عاش عليه ومات عليه) أي رُبي عليه . وإن كانت قد ربيت تربية خبيثة قيل لها : « اخرجي أيتها النفس الخبيثة ، كانت في الجسد الخبيث »[3] لأنه عاش على هذا .

ب ـ أن النفس أو الروح الطيبة هي التي ربيت على الخضوع لربوبية الله وحكمه وشرعه وطلب مرضاته ، واتقاء غضبه ، وعلى

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٨٥ ـ ١٨٦

(٢) المرجع السابق ، ص ١٨٤

(٣) المرجع السابق ، ص ١٨٥ وسيأتي تأكيد هذا المعنى في الفترة الثالثة : الحساب .

اتباع رسوله محمد ﷺ ، والالتزام بدين الإسلام دين التوحيد الذي أنزله الله على أنبيائه ، وختمهم بنبيّه محمد ﷺ فأكمل للبشر دينهم الذي ارتضى لهم ، لذلك كانت هذه الأسس الاعتقادية أول ما يسأل عنه الميت في قبره ، فيجب أن تكون أول ما يربى عليه في طفولته .

جـ ـ أن الروح ـ أو النفس ـ كائن مستقل له خصائصه « وهو جسم نورانيّ علوي خفيف حيّ متحرك ينفذ في جوهر الأعضاء ، ويسري فيها سريان الماء فى الورد وسريان الدهن في الزيتون .. فما دامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من الروح ، بقي مشابكاً لها يفيدها بهذه الآثار من الحسّ والحركة الإرادية »[١] فإذا انتهى أجل الإنسان « فارق الروح البدن وانفصل إلى عالم الأرواح »[٢] وبقي الجسم جثة هامدة لا إحساس فيها ولا حركة .

د ـ أن الروح هي النفس وهي محل استيعاب العلم والمحبة والتوكل والصدق ونحو ذلك ، قال ابن القيم : « أما الروح التي تُتوفّى وتُقبَض فهي روح واحدة وهي النفس »[٣] .

ثم قال في الفرق بين الإحساس والنفس أو الروح (مُشيراً إلى الروح الباصر والروح السامع ...) : « فهذه الأرواح قوى مودعة في

(١،٢) (الروح) لابن القيم ، ص ٢٧٦ ، ط . دار الكتاب العربي ، بيروت ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٢٩

البـدن تموت بموت الأبـدان ، وهي غير الروح التي لا تموت بموت البدن ، ولا تبلى كما يبلى »[1] .

ثم قال في شأن اختصاص الروح أو النفس بقوة المعرفة :

« ويطلق الروح على أخص من هذا كله ، وهو قوة المعرفة بالله ، والإنابة إليه ، ومحبته ، وانبعاث الهمة إلى طلبه وإرادته ، ونسبة هذه الروح إلى الروح ، كنسبة الروح إلى البدن ... وهي الروح التي يؤيد الله بها أهل ولايته وطاعته ... فللعلم روح ، وللإحسان روح ، وللمحبة والإنابة روح ... والناس متفاوتون في هذه الأرواح أعظم تفاوت ، منهم من تغلب عليه هذه الأرواح ، فيصير روحانياً ، ومنهم من يفقدها ، أو أكثرها فيصير أرضياً بهيمياً .. »[2] .

وإذا كانت الروح هي النفس فإن قوله : « فللعلم روح ، وللإحسان روح وللمحبة والإنابة روح » يدل على أن هذه (الأرواح) قوى أو استعدادات أودعها الله في النفس ، كما أن تلك الأرواح الحسّية : (الروح الباصر والروح السامع والروح الشامّ) (قوى مودعة في البدن) كما صرح بذلك ابن القيم ، وهذه القوى

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٣٠

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٣٠

استعـدادات يمكن تنميتها وتربيتهـا ، ويمكن أن تتعطـل بـإهمـالهـا ؛ فتغلب على الإنسان القوى المعنوية (فيصير روحانياً) أو تغلب عليـه القوى الحيوانيـة ـ الشهـوانيـة (فيصير أرضيـاً بهيمياً) ويـؤيـد ذلـك ماسنراه في الفقرة التالية .

هـ ـ أن صفـات النفس تنتـج عن تربيـة القـوى والإستعـدادات النفسيـة وتوجيههـا ، قـال ابن القيم : « وقع في كلام كثير من النـاس أن لابن آدم ثـلاث أنفس : نفس مطمئنـة ، ونفس لـوّامـة ، ونفس أمّـارة ... والتحقيـق أنهـا نفس واحـدة ، ولكن لهـا صفـات ، فتسمّى باعتبار كل صفة باسم . فتسمّى مطمئنة باعتبـار طمأنينتهـا إلى ربهـا ؛ بعبوديتـه ، ومحبتـه ، والإنـابـة إليـه ، والتوكل عليـه ، والرضـا بـه ، والسكون إليه »[1] فبين أن طمأنينـة النفس تحصل بتربيتهـا على محبتـه والتوكل عليه والخضوع له . ووسيلة ذلك التربية بالقرآن كما قال :

« ولا يمكن حصول الطمأنينـة الحقيقيـة إلا بـالله وبـذكره ، وهو كلامـه الـذي أنزلـه على رسولـه ، كما قـال تعـالى[2] : ﴿ الـذين آمنوا وتطمئن قلـوبهم بـذكر الله ، ألا بـذكر الله تطمئن القلـوب ﴾ [الرعد ٢٨/١٣] فالتربية بتلاوة القرآن وفهمه ، والخشوع لمعانيـه والتـأثر

(١) المرجع السابق ، ص ٣٣٠

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٣١

بها ، بل التخلّق بها ، هي الوسيلة للوصول بالنفس إلى صفة الطمأنينة حتى يقال لها : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية ، فادخلي في عبادي وادخلي جنّتي ﴾ [الفجر ٢٧/٨٩-٣٠] .

٢ - فترة البرزخ وعذاب القبر :

وهي فترة مؤقتة بين الحياة الدنيا والآخرة ، تعذب فيها الروح أو تنعّم .

و (البرزخ - في اللغة - : الحاجز بين الشيئين . ومن وقت الموت إلى القيامة ، ومن مات دخله)[1] أي دخل البرزخ ، وهي نتيجة لمرحلة مسؤولية الإنسان وتحقيق إنسانيته وثمرة لأعماله في الدنيا ؛ وتبدأ هذه الفترة بسؤال الملكين في نهاية الفترة السابقة ، عن عقيدة الإنسان التي عاش عليها في حياته الدنيا ، كما رأينا ، ثم يقول ابن القيّم في وصف الحياة البرزخية :

« ثم ينعّم المؤمن في البرزخ على حسب أعماله ، ويعذب الفاجر فيه على حسب أعماله : ويُختَصّ كل عضو بعذاب يليق بجناية ذلك العضو ، فتقرض شفاه المغتابين الذين يمزقون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم بمقاريض من نار ، وتسجر بطون أَكَلَة أموال اليتامى بالنار ، وتلقم أفواه أكَلةِ الربا بالحجارة ، ويسبحون في أنهار الدم ،

(١) القاموس المحيط ٢٥٧/١ (مرجع سابق) .

كما كانوا يسبحون في الكسب الخبيث »[1] ويمتصون بالربا دماء الكادحين وأتعابهم ، بامتصاص أموالهم بغير تعب ولا حق « وتسلط الهموم والغموم والأحزان والآلام النفسانية على النفوس البطالة التي كانت مشغوفة باللهو واللعب والبطالة ، فتصنع الآلام في نفوسهم كما تصنع الهوام والديدان في لحومهم »[2] .

الدلالات التربوية : يدلّ وصف الحياة البرزخية وبدايتها على مبادئ تربوية نلخصها كما يلي :

أ ـ تبدأ الحياة البرزخية بسؤال الإنسان عن إيمانه وعقيدته ، لأنها هي الأساس الذي يجب أن تبنى عليه تربيته ، فيعرف هدفه من الحياة ، وتصبح جميع أعماله وسلوكه مبنية على أساسها ، موجهة بحسبها ، فإن صدق في إيمانه بربه واتباعه لنبيه ، واعترافه بدين الإسلام بُشِّر بالخير ، وإلاّ بُشر بالسوء .

ب ـ ثم يمثل له عمله بشخص يرافقه في قبره حتى تقوم الساعة ، فإن كان عمله صالحاً مرضياً لربه موافقاً لدينه وسنة نبيه « يُقَيَّضُ له شاب حسن الوجه طيب الرائحة ، فيقول : أبشر بالذي يسرّك ... أنا عملك الصالح »[3] وإن كان عمله سيئاً ، صادراً عن كفر بالله وبعد

(١،٢) تحفة المودود ، ص ١٨٦ (مرجع سابق) .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٨٥

عن دينه وعن اتباع نبيه « يُقَيَّض له أعمى وأصم وأبكم ، فيقول : من أنت ؟ فوجهك الوجه يجيء بالشر ! فيقول : أنا عملك السيّئ »[1] ، وبهذا يجعل الله الثواب في الحياة البرزخية دافعاً لكل خير ومنظماً لحياتنا الدنيا على أساس يجعلها مسرحاً للأعمال النبيلة والتضحيات العظيمة .

جـ ـ يعذب المسيء في القبر في حياة البرزخ بحسب أعماله ، و « يُفتح له طاقة إلى النار فيقال : انظر إلى مقعدك من النار »[2] وينال العذاب على كل ذنب بحسبه « فترضّ رؤوس النائمين عن الصلاة المكتوبة بالحجر العظيم ... ويحبس الزناة والزواني في التنور المحمى عليه فيعذب محل المعصية منهم »[3] ويستمر العذاب ـ ويكون الجزاء من جنس العمل ـ حتى تقوم الساعة .

(ويُنعّم المؤمن في البرزخ على حسب أعماله) حتى تقوم الساعة ، فالثواب والعقاب في القبر يشعر الإنسان بالمسؤولية العاجلة عن كل أعماله ، ويربيه تربية نظامية دقيقة ...

د ـ الحياة البرزخية بما فيها من نعيم أو عذاب ، ومن سؤال ، وثواب أو عقاب ، حق وواقع ، حجب الله عن الثقلين أن يروها أو

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٨٦

(٢،٣) المرجع السابق ، ص ١٨٦

يحسّوا بها وهم في هذه الدنيا ، لئلاّ ينصرفوا عن حياتهم الـدنيويـة التي هي موضوع اختبـارهم وابتلائهم ، فـلا بـدّ أن يتم أمر الله ويستكملـوا ماقُدّر لهم في هذه الحياة من أجَل مسمى ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيـا من حيِيَ عن بيّنـة . وحيـاة البرزخ مقـدمـة للبعث والحسـاب وللحياة الآخرة .

الفصل الثاني عشر

البعث والحساب

إن الإدراك الإجمالي ليوم القيامة والإيمان به ، بعد الإيمان بالله وصفاته ، من الأصول التي بنى عليها ابن القيم الأسس الاعتقادية لمنهجه التربوي ، أو لاهتماماته التربوية ، كما يدل عليه قوله في وصف النفس المطمئنة :

« فهذا أول درجات الطمأنينة ، ثم لا يزال يقوى كلما سمع بآية متَضَمِّنة لصفة من صفات ربه ... فهذه الطمأنينة أصل أصول الإيمان ، التي عليها بناؤه ... ثم يطمئن إلى خبره عَمّا بعد الموت من أمور البرزخ وما بعدها من أحوال القيامة ، حتى كأنه يشاهد ذلك كله عياناً . وهذا حقيقةُ اليقين الذي وصف به سبحانه وتعالى أهل الإيمان حيث قال : ﴿ وبالآخرة هم يوقنون ﴾ [البقرة ٤/٢] فلا يحصل الإيمان بالآخرة ، حتى يطمئن القلب إلى ما أخبر الله به عنها ، طُمأنينته إلى الأمور التي لا يشك فيها ولا يرتاب »[1] لذلك آثرنا أن نلخص الوصف السريع لأحداث البعث والحساب ، الذي عرضه

(١) الروح - ابن القيم - ص ٣٣٢ (مرجع سابق) .

ابن القيم ملخصاً من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وقد أحكم التأليف بين عناصره بأسلوبه المشرق السّلس الرصين حيث قال ـ بعد أن انتهى من وصف حياة البرزخ ـ : « ... حتى يأذن الله تعالى بانقضاء أجل العالم ، وطيّ الدنيا ، فَتُمطرَ الأرض مطراً غليظاً أبيض كمني الرجال .. ، فينبتون من قبورهم كما تنبت الشجرة والعشب ، فإذا تكاملت الأجنّة ، وكان وقت الولادة أمر سبحانه إسرافيل ، فينفخ في الصور نفخة البعث ـ وهي الثالثة ، وقبلها نفخة الموت ، وقبلها نفخة الفزع ـ فتتشقق الأرض عنهم ، فإذا هم قيام ينظرون ... فيساقون إلى المحشر حُفَاةً عُرَاةً غُرلاً[1] بُهما ، مع كل نفس سائق وشهيد ، وهم بين مسرور ومثبور ، وضاحك وباك ... حتى إذا تكاملت عدتهم وصاروا جميعاً على وجه الأرض .. نزلت ملائكة السماء فأحاطت بهم ... فبينما هم كذلك ، إذ جاء رب العالمين لفصل القضاء ، فأشرقت الأرض بنوره ، وتميز المجرمون من المؤمنين .

ونصب الميزان ، وأحضر الديوان ، واستدعي بالشهود ، وشهدت يومئذ الأيدي والألسن والأرجل والجلود . ولا تزال الخصومة بين يدي الله سبحانه حتى يختصم الروح والجسد ... »[2] .

---

(١) غرلاً : غير مختونين . بُهماً : ج أبهم (والأبهم : الأعجم ، واستبهم عليه : استعجم فلم يقدر على الكلام) . (القاموس المحيط ٨٢/٤) .

(٢) تحفة المودود ص ١٨٧ (مرجع سابق) .

« فيحكم الله بين عباده بحكمه الذي يحمده عليه جميع أهل السماوات والأرض ... ﴿ وتوفّى كل نفس ما عملت ﴾ [النحل ١١١/١٦] ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ [الزلزلة ٩٩/٧-٨] .

ثم ينادي منادٍ لتتبع كل أمة ما كانت تعبد ، فيذهب أهل الأوثان مع أوثانهم ، وأهل الصليب مع صليبهم ، وكل مشرك مع إلهه الذي كان يعبد ، لا يستطيع التخلف عنه ، فيتساقطون في النار .

ويبقى الموحدون ... فيتجلّى لهم الله في صورته التي رؤي فيها أول مرة ضاحكاً ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : نعم أنت ربنا ، ويخرون لله سجّداً ، إلاّ من كان لا يصلي في الدنيا ، أو يصلي رياءً ...

ويُضرب الجسر (الصراط) ، ويُساق الْخَلْق إليه ، وهو دَحْضٌ مَزلَّةٌ[١] مظلمٌ ، لا يمكن عبوره إلا بنور ، فإذا انتهوا إليه قسمت بينهم الأنوار على حسب إيمانهم وإخلاصهم وأعمالهم في الدنيا ، فنور كالشمس ، ونور كالنجم ، ونور كالسراج ... »[٢] .

---

(١) مكان دَحْض : زلق ، والمزلّة : موضع الزلل وهو الانزلاق في طين أو نحوه (القاموس المحيط) .

(٢) تحفة المودود ، ص ١٨٨ (مرجع سابق) .

« وترسل الأمانة والرحم على جنبتي الصراط ، فلا يجوزه خائن ولا قاطع رحم ... وينصب على جنبيه كلاليب .. تعوق من علقت به عن العبور ، على حسب ما كانت تعوقه الدنيا عن طاعة الله ومرضاته ، فناجٍ مسلّم ، ومخدوش مسلّم ، ومقطّع بتلك الكلاليب ومكردس في النار ... فإذا جاوز المؤمنون الصراط ـ ولا يجوزه إلا مؤمن ـ أَمِنوا من دخول النار ، فيحبسون هناك على قنطرة بين الجنة والنار ، فَيُقتَصُّ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هُذّبوا أُذِن لهم في دخول الجنة »[1] .

« فإذا استقر أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار ، أُتي بالموت في صورة كبش أملح ، فيوقف بين الجنة والنار ... فيقال : هذا الموت ، فيذبح بين الجنة والنار ثم يقال : يا أهل الجنة : خلودٌ ولا موت ويا أهل النار : خلود ولا موت .

فهذا آخر أحوال هذه النطفة التي هي مبدأ الإنسان ، وما بين هذا المبدأ وهذه الغاية أحوال وأطباق ؛ قدّر العزيز العليم تنقل الإنسان فيها ، وركوبه لها طبقاً بعد طبق ، حتى يصل إلى غايته من السعادة أو الشقاوة »[2] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٨٩

(٢) المرجع السابق ، ص ١٩٠

وهذا الوصف يؤدي وظيفة تربوية هامة تتجلى في تربية الحقائق الاعتقادية التالية :

أ ـ أن الإنسان لم يخلق سُدىً ولا عبثاً بل خُلق ليُمتَحَن في هذه الدنيا ، ثم ليسأل بين يدي خالقه ، وجُعِلت حياته الدنيا ، كما جُعل هذا الكون ، مسرحاً لاختباره وامتحانه ، فإذا انتهت هذه المهمّة (وانقضى أجل هذا العالم ، وطويت الدنيا) بُدّلت الأرض غير الأرض وبُعث الناس من قبورهم في هول وفزع ، ليحاسبوا على ماجنت أيديهم ، وليُرَوا نتائج اختبارهم ولينالوا جزاء أعمالهم . ويُخلق الناس خلقاً جديداً يكون موافقاً لما أعدهم الله له من أهوال هذا اليوم ، ومن الخلود في الجنة أو النار .

ب ـ يكون حساب الناس بأرواحهم وأجسادهم ، كما كان بعثهم ، يدل عليه قول ابن القيم : « .. ولا تزال الخصومة بين يدي الله سبحانه ـ حتى يختصم الروح والجسد فيقول الجسد (للروح أو النفس) : إنما كنت ميتاً لا أعقل ولا أسمع ولا أبصر ، وأنت كنت السميعة المبصرة العاقلة تصرفينني حيث أردت ! فتقول الروح : وأنت الذي فعلت وباشرت المعصية وبطشت .. !

فيرسل الله سبحانه ملكاً يحكم بينهما . فيقول : مثلكما كمثل بصير مقعد وأعمى صحيح دخلا بستاناً ، فقال المقعد : أنا أرى الثمار

ولا أستطيع أن أقوم إليها ! وقال الأعمى : أنا أستطيع القيام ولكن لاأرى شيئاً . فقال له المقعد : احملني حتى أتناول لي ولك . ففعلا ! فعلى من تكون العقوبة ! فيقولان : عليهما . فيقول الملك : فكذلك أنتما »[1] .

فهذا الموقف يربي في الإنسان الحذر من المعاصي والخوف من الله واليوم الآخر ، والشعور بالمسؤولية عن كل مابطشت يداه ، أو مشت إليه رجلاه ، أو نطق به لسانه ، أو شفتاه ، أو احتك به جلده ، أو أبصرته عيناه ، أو أكله فمه . فكل هذه الجوارح تشهد على الإنسان بما كتبه الرقيب العتيد ، وما جاء به وأحضره السائق والشهيد !

كما يربى الإنسان على تهذيب غرائزه وإيقافها عند حدود الشرع ، وتعديل أساليب السلوك الغريزي الوحشي ، كالنهب والسرقة ، فيحل محلها الاستثمار ، والزراعة ، والصناعة ، والتبادل التجاري المشروع الذي يرضى عنه الله ، وترتفع الفحشاء ، ليحل محلها الزواج المبني على المودة والرحمة وإنجاب النسل الصالح .. دواليك .

جـ ـ يُقَوَّم الناس ويُصنفون جماعات وفقاً لعقائدهم التي امتحنوا

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٨٧ ـ ١٨٨

بها في الـدنيـا . فمن كان يعبـد غير الله ، يلحق معبوده ، ويُسـاق كل مشرك مع إلهه الذي كان يعبده ، حتى يتساقطوا في النار .

وفي هذا دلالة على أن الانتماء عند الله يكون على أسـاس العقيـدة والعبادة والدين ، فإذا ثبت انتماؤهم لغير الله فلا حـاجـة لأن يحـاسبوا على تفاصيل أعمالهم ، فكلها باطلة قـد حَبطت بسبب شركهم وكفرهم بـالله وبـأنعُم الله ، الـذي خلقهم وأسبـغ عليهم نعمـه ظـاهرة وباطنة ... ! ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة ، يحسبه الظمآن ماءً ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، ووجد الله عنده ، فوفاه حسابه ﴾ على شركه وكفره فيدخله جهنم .

فيجب أن تبنى التربية على إخلاص الولايـة والإيمـان والعبوديـة لله عز وجل ، وهذا ماتقتضيه فطرة الإنسان ومسؤوليته أمـام الله عن عقيدته قبل كل شيء .

د ـ يحـاسب أتبـاع الرسـل (المـوحـدون) على أعمـارهم كيف قضوها ، وعلومهم وما عملوا بها ، وشبابهم وأموالهم وأعمالهم وسائر النعم التي أنعم الله عليهم . ويضرب الجسر (الصراط) فوق جهنم ليمروا عليه « ويختلف مرورهم عليـه بحسب اختـلاف استقـامتهم على (الصراط المستقيم) في الدنيا ... فمارٌّ كالبرق ، وكالريح ، وكالطير ، وكأجاويـد الخيل ، وسـاعٍ ، ومـاشٍ ، وزاحفٌ ، وحـابٍ حبواً »[1] . وهـو جسر

(١) المرجع السابق ، ص ١٨٩

مظلم لا يمكن عبوره إلا بنور فإذا وُزّعت الأنوار « أطفأ الله نور المنافقين على الجسر ... فيقولون للمؤمنين : قفوا لنا نقتبس من نوركم ما نجوز به ، فيقول لهم المؤمنون والملائكة - استهزاءً بهم - : ارجعوا وراءكم - حيث قسمت الأنوار - فالتمسوا هناك نوراً تجوزون به »[1] - ولا رجوع لهم - فيتيهون في الظلام فيقعون في النار فيتهاوون إلى الدرك الأسفل من النار .

وهكذا يحرص ابن القيم على بيان مصير المنافقين ، وأهمية الاستقامة في القول والعمل والثبات على المبدأ والعقيدة ، ليربي الناشئين على ذلك ، ويعدهم لذلك اليوم العصيب .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٨٩

الباب الرابع

بعض مبادئ التربية عند ابن القيّم وأهم تطبيقاتها

تمهيد في تعريف المبادئ التربوية وما سيعرض منها عند ابن القيّم .

الفصل الأول : مبادئ التربية الإصلاحية والعلاجية .

١ ـ مبادئ لمداواة الجسم والنفس وعلاجهما من الأمراض .

أ ـ تعميم المداواة والعلاج على النفس والبدن .

ب ـ توعية المريض والطبيب لتوفير شروط صحة العلاج وتحقيق فوائده .

ـ بعض أساليب تطبيق هذين المبدأين .

(أ) ـ علاج النفس وإصلاحها بالدعاء .

(ب) ـ العلاج الاجتماعي .

(جـ) ـ العلاج الوقائي عن طريق استبعاد أسباب الصراع النفسيّ .

(د) ـ علاج بعض الحالات عن طريق الإبدال والإعلاء .

١ً ـ العلاج عن طريق تربية العواطف السامية لتحل محل الأهواء الضارة .

ـ معنى العاطفة وتكونها .

ـ العاطفة الدينية وأساليب تربيتها .

ـ مقارنة بين محبة الله وعشق الصور .

ـ بعض ميزات الحب الإلهي :

١ ـ كمال الحب الإلهي وشرفه ، ٢ ـ استمراره في الدنيا والآخرة ، ٣ ـ أنه يسمو بصاحبه إلى الفضائل ، ٤ ـ أنه موصول من طرفيه ، ٥ ـ من آثاره قوة شخصية المحب .

٢ً ـ العلاج عن طريق تربية العزم والصبر .

ـ التحليل النفسي والتربوي .

الفصل الثاني : أهم مبادئ التربية العقلية عند ابن القيم :

المبدأ الأول : ترتب النتائج على الشروط المؤدية إليها :

أ ـ تعريفه .

ب ـ أهمية هذا المبدأ وبعض فوائده وتطبيقاته .

١ ـ تحقيق الأهداف التربوية .

٢ ـ تربية الشعور بالمسؤولية .

٣ ـ تربية السلوك وحسن العمل .

٤ ـ تعليل سر الوجود وخلق الإنسان .

٥ ـ تربية العقل على التفكير الصحيح .

٦ ـ تربية العقل على الاهتمام بالنتائج .

٧ ـ هذا المبدأ يحفز على البحث وإغناء العقل بطلب المعرفة .

٨ ـ التخلص من المخادعة والمغالطات المناقضة لهذا المبدأ .

أ ـ كالاحتجاج بالقدر لترك السعي .

ب ـ كالاحتجاج بالتعصب العرقي والطائفي لترك العمل الصالح ، واللجاج في المعاصي والشهوات لأن طائفته تنجيه من العقاب .

جـ ـ وكالاتكال على عفو الله ومغفرته وسوء فهم النصوص في ذلك .

المبدأ الثاني : مبدأ السببية : تعريفه والرد على منكريه .

المبدأ الثالث : إقامة البحث واقتباس المعرفة على الوحي الصادق والمشاهدة والاستقراء .

١ ـ الاعتماد على الوحي .

٢ ـ أهمية المشاهدة والاستقراء في الحصول على العلم الصحيح .

٣ ـ إنكار التقليد الأعمى من غير علم أو برهان .

٤ ـ إنكار بناء المعرفة على فرض يكذبه العقل أو الواقع .

٥ ـ إنكار القياس على كليات لم يثبتها العلم .

٦ ـ موافقة نتائج الاستقراء التام لمعطيات الوحي الصادق .

٧ ـ الاعتماد على التدرج في النمو والتطور .

٨ ـ الاعتماد على المقارنة في بحث النمو والتطور .

من مبادئ التربية عند ابن القيّم

تمهيد

من أهم معاني المبادئ التربوية أنها قواعد مرنة عـامـة تشمل عـدداً من المواقف التربوية المتشابهة ، وتقـدم لهـا حلولاً مبـدئيـة موحـدة ، أو تضع خطوطاً عريضة لتلك الحلول .

وعنـد ابن القيّم العـديـد من هـذه المبـادئ التي تختلف بحسب نوعها ، فهناك مبادئ في التربية العلاجية ، لاتقل أهمية عن نظيراتهـا المعـاصرة سواء في عـلاج النفس أو الجسـد ، وكـذلـك هنـاك مبـادئ (وقائية) ومبادئ في التوعيـة الصحيـة . وهنـاك مبـادئ في التربيـة العقليـة ، تقوم على الفكر الموضـوعي المنهجي ومبـادئ العقـل ، وعلى توعية العقل وإبعاده عن كل أسباب التناقض ، وسنشرح كلاًّ من هذه المبادئ فيما يلي ، مع إيراد أمثلة مستفيضة من التطبيقات المفيـدة التي أوردها ابن القيّم في تحقيق هـذه المبـادئ ، وبيـان آثـارهـا الهـامّـة في مجـالات الحيـاة التربـويـة ، والعـلاجية ، والنفسيـة ، والعـاطفيـة ، والعقلية ، مما يؤكد فائدة هذه المبادئ وآثارها الفعـالـة ؛ وأنهـا ليست مجرد مبادئ نظرية ، بل إنها تنبثق من فطرة الإنسـان ، وتعود عليـه

بإصلاح النفس ، وتقويم النمو ، ويقظة الضمير ، وإيقاظ الوعي الفكري والوجداني ، وتخليص النفس الإنسانية من الصراعات .

وقد اكتفينا بهذه المبادئ ، دون أن نُعنّي النفس فنبحث في كتب ابن القيّم عن نظير ما سُبق إليه من أسس ومن مبادئ تربوية ، كالتي وجدنا عند ابن عبد البر ، وابن تيمية ، والإمام الذهبي ؛ مثل وجوب التعلم ، ونشر العلم ، والدقة والأمانة في نقل العلم ، ومبدأ الفطرة وغيرها ... وذلك لسببين :

الأول خشية الملل من التكرار ، فقد عرضنا تلك المبادئ أكثر من مرة في أكثر من حلقة من حلقات هذه السلسلة ، وإن اختلفت وجهات العرض والنظر عند أولئك الأعلام باختلاف طبيعة كل منهم واهتماماته وأسلوب تفكيره .

الثاني أننا توخّينا هنا عرض المبادئ التي ميّزت ابن القيّم ، ولم يشاركه غيره الاهتمام بها أو العمل بمقتضاها في أساليبه ومؤلفاته ... فابن القيّم ، داعية إلى العقيدة السّلفية واتّباع القرآن والسّنة ، ولكنه ، في الوقت ذاته ، حكيم يعالج أمراض القلوب والنفوس ، ومربٍّ يهتم بأطوار الجنين ، وبالطفولة في جميع مراحلها كما رأينا ، وعقلاني يؤيد آراءه بالحجج الصادرة عن مبادئ عقلية منهجية منطقية ، كما سنرى ، ويؤيد هذه المبادئ بالحجج الشرعية .

فلا أقل من أن نجلّي ، في هذا البحث ، هذا الجانب الذي امتـاز به ، ونوضّح المبادئ التي بنيت عليها أبحـاثـه ووجهـات نظره في هـذه المجالات التربوية ، والعقلية ، والعلاجيـة الإصلاحيـة ، التي انفرد بهـا وامتاز بعرضها مفصلة مع تطبيقاتها ...

وإليك أهم هذه المبادئ مصنّفة في فصول وفقاً لموضوعاتها .

الفصل الأول

مبادئ التربية الإصلاحية العلاجية عند ابن قيّم الجوزية

١ ـ مبادئ لمداواة الجسم والنفس وعلاجها من الأمراض :

يرى ابن القيّم من واجبات العلماء والمربّين العمل على هداية الناس لمعالجة أمراضهم التي تعتريهم ، سواء منها الجسدية ـ العضوية ، أم النفسية ، أم الروحية ، وذلك بتعريفهم بمكامن الداء ، وبالدواء المناسب لكل داء ، ثم يدعو كل مريض إلى معالجة نفسه بما يناسبها .

فقد سئل رحمه الله « ماتقول في رجل ابتُلِيَ ببلِيَّة ، وعلم أنها إن استمرت به أفسدت عليه دنياه وآخرته ؟ وقد اجتهد في دفعها عن نفسه بكل طريق ، فما تزداد إلا توقّداً وشدّة ! فما الحيلة في دفعها ؟ وما الطريق إلى كشفها ؟ »[1] .

---

(١) ابن قيّم الجوزية : الجواب الكافي ، ص ٥ ، الناشر دار الندوة الجديدة ـ لبنان .

فأجاب : (أما بعد فقد ثبت في صحيح البخاري « ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاءً »[1] ، وفي صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « **لكل داء دواء ، فإذا أصيب دواء الداء بَرِئ بإذن الله** »[2]) ، فاتّخذ ابن القيّم من هذا الحديث دستوراً عامّاً للطّب اشتق منه مبادئ للطّب النفسيّ ، نذكر فيما يلي أهمها :

مبادئ العلاج النفسيّ

أ ـ مبدأ تعميم المداواة والعلاج على النفس والبدن :

وفيه قال ابن القيّم : (وهذا يعمّ أدواء القلب والروح والبدن وأدويتها . وقد جعل النّبي ﷺ الجهل داءً ، وجعل دواءه سؤال العلماء .

فروى أبو داود في سننه من حديث جابر بن عبد الله قال :

« خرجنا في سفر ، فأصاب رجلاً منا حَجر ، فشجّهُ في رأسه ، ثم احتلم ، فسأل أصحابه فقال هل تجدون لي رخصة في التيمم ؟ قالوا : ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء . فاغتسل فمات . فلما قدمنا

(١) صحيح البخاري (أول كتاب الطب) ، ٢١٥١/٥ ، رقم الحديث ٥٣٥٤ ، الناشر دار ابن كثير ـ دمشق .

(٢) الجواب الكافي ، ص ٥ ، (مرجع سابق) .

على النّبي ﷺ أخبر بذلك فقال : « قتلوه قتلهم الله ! ألا سألوا إذ لم يعلموا ؟ فإنما شفاء العيّ السؤال » فأخبر أن الجهل داء ، وأن شفاءه السؤال)[1] .

ثم بيَّن ـ رحمه الله ـ أن القرآن ـ بما يحتويه من تربية اعتقادية ، وصحية ، وعاطفية ، وسلوكية ، وتعبدية ، واجتماعية وجهادية ـ شفاء لمن يؤمن به ، ويهتدي بهديه ، ويعمل بمقتضاه ويتأثر بآياته وعبره ، واستدلّ لذلك بقوله تعالى : ﴿ وَلَو جَعَلْنَاهُ قُرآناً أعجميّاً لقَالُوا لَولا فُصِّلَتْ آياتُهُ ؟ أأعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ؟ قُلْ هُوَ لِلَّذِيْنَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ ﴾ [فصلت ٤١/٤٤] . وقوله : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤمِنِينَ ﴾ [الإسراء ١٧/٨٢] . ثم قال : (فهو شفاء للقلوب من داء الجهل والشك والريب)[2] .

وقد سبق ابن القيّم علماء هذا العصر إلى هذا التعميم ، تعميم إصطلاح الداء والدواء أي المرض والعلاج ـ من أجل الشفاء ـ على النفس والجسم ، فقد كان تعميم اصطلاح (الصّحة) على النفس آخر ماتوصّل إليه علماء الصحة النفسية في هذا المجال ، إذ عرّفوا الصحة النفسية تعريفاً يطابق تعريف الصحة الجسمية كما قال الدكتور عبد العزيز القوصي : « وإن صح القياس بين الحياتين الجسمية

(١،٢) الجواب الكافي ، ص ٦ ، (مرجع سابق) .

والنفسية ، أمكن ـ قياساً على ما تقدم ـ أن نعرف الصحة النفسية بالتعريف نفسه ، مع إبدال كلمة (النفسية) بكلمة (الجسمية) ، وعلى هذا تكون الصحة النفسية هي التوافق التام ، أو التكامل ، بين الوظائف النفسية المختلفة ، مع القدرة على مواجهة الأزمات النفسية العادية التي تطرأ عادةً على الإنسان ، ومع الإحساس الإيجابي بالسعادة والكفاية »[1] . وإذا صح إطلاق (الصحة) على النفس والبدن فمن باب أَوْلى إطلاق الداء والدواء على ما يصيبهما أو يشفيهما .

وكذلك سبق ابن القيّم إلى هذا المنهج ـ منهج العلاج النفسيّ بإيجاد التوافق بين الوظائف النفسية ، والأخلاق ، والسلوك ، وباستبعاد الصراعات ـ كما سنرى في المواطن التي عالج فيها أمراضاً تحتاج إلى مثل هذا المنهج .

ب ـ توعية المريض والطبيب قبل البدء بالمعالجة من أجل توفير الشروط اللازمة لتحقيق الهدف من العلاج :

ومن أهم هذه الشروط :

صلاح العلاج واستعداد المريض له من غير مانع يمنع نفاذ

(١) أسس الصحة النفسية ، الدكتور عبد العزيز القوصي ، ص ٦ ، الطبعة الثالثة ، ١٩٤٨ م ـ مطبعة مصر ـ شركة مساهمة مصرية .

العلاج وبراعة الطبيب ، ولما كان المريض ، عند ابن القيّم ، هو الذي يعالج نفسه بالدعاء غالباً بدأ به ابن القيّم فقال :

« فصل : وكثيراً ما نجد أدعية دعا بها قوم فاستجيب لهم ، ويكون قد اقترن بالدعاء اضطرار صاحبه وإقباله على الله أو ... أو ...، فيظن الظّان أن السّر في لفظ ذلك الدعاء ، فيأخذه مجرّداً عن تلك الأمور التي قارنته من ذلك الداعي ، وهذا كما إذا استعمل رجل دواءً نافعاً في الوقت الذي ينبغي استعماله ، وعلى الوجه الذي ينبغي ، فانتفع به ، فإذا ظنّ غيره أن استعمال هذا الدواء بمجرّده كافٍ في حصول المطلوب كان غالطاً . وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس »[1] .

وهكذا سبق ابن القيّم إلى هذا المبدأ الذي يقوم عليه جانب من التوعية الصحية المعاصرة ، فيحذرون الناس اليوم من تناول أي دواء لمجرد تشابه بين حالة مريض ومريض آخر انتفع بهذا الدواء ، دون الانتباه إلى توفر باقي الشروط .

ومن لوازم هذا المبدأ حرص المعالج في العيادة النفسية على كسب ثقة المريض النفسيّ بجدوى العلاج ، ليعالجه الطبيب وهو في ذروة الاستعداد لهذا العلاج .

---

(١) الجواب الكافي ، ص ١٤ ، (مرجع سابق) .

ويحرص ابن القيّم على أن يكون التداوي بالدعاء خاضعاً لهذا الاستعداد ، أي أن يكون الداعي في حالة اضطرار وصدق لجوء إلى الله كما قال :

« ومن هذا أنه قد يتفق دعاؤه باضطرار عند قبر . فيظن الجاهل أن السرّ للقبر ، ولم يعلم أن السرّ للاضطرار وصدق اللجوء إلى الله ... »[1] ، أي لاستعداد المريض . ويلخّص ابن القيّم وجوب توفر الشروط الثلاثة في العلاج النفسيّ : قدرة المعالج ومهارته ، ونفع العلاج وصلاحه ، واستعداد المريض من غير مانع يمنع نفاذ العلاج وقد شبّه ذلك بالسلاح فقال ضارباً مَثَلاً على العلاج بالدعاء :

« والأدعية بمنزلة السلاح ، والسلاح بضاربه ، لا بِحَدّه فقط ، فمتى كان السلاح قاطعاً تامّاً لا آفة به ، والساعد ساعداً قوياً ، والمانع مفقوداً : حصلت به النكاية بالعدو ، ومتى تخلف واحد من هذه الثلاثة تخلف التأثير . فإذا كان الدعاء في نفسه غير صالح ، أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء ، أو كان ثم مانع من الإجابة : لم يحصل التأثير »[2] .

---

(١) **الجواب الكافي** ، ص ١٤ ، (مرجع سابق) .

(٢) **المرجع السابق** ، ص ١٤

وهكذا سبق ابن القيم إلى الأخذ بمبدأ التوعية الصحية وتوفير الشروط اللازمة للعلاج في مجال الصحة النفسية ، وذلك :

أولاً - عن طريق التحذير المسبق من الذنوب والأمراض النفسية وبيانها للوقاية منها .

ثانياً - عن طريق غرس الثقة في نفس كل ذي مرض نفسيّ أو جسميّ ، وطمأنته بأن كل مرض أو أزمة نفسية ، مهما بدت صعبة أو مستعصية على العلاج فإن لها دواء وشفاء ، ومن الممكن علاجها ، ولهذا الغرض ألّف كتاب (الجواب الكافي) وأفرد فصلاً مطولاً في كتاب زاد المعاد من هدي خير العباد[1] ، اعتمد عليه أكثر من كتب في الطّب النّبوي .

ثالثاً - عن طريق بيان شروط صحة العلاج النفسيّ ونفعه ونفاذه في المريض . وبيان بعض الموانع التي تحول دون نفاذه . وقد أتينا آنفاً على ذكر هذه الشروط ، أما الموانع فسنعرض أهمها في معرض البحث عن مبادئ التربية العقلية ، ومنها مخادعة النفس بفهم القدر فهماً خاطئاً ، أو بالاتّكال على العفو والمغفرة من غير تعاطي الأسباب ، أو على حسن الظّن بالله ، أو على صلاح الآباء - كما سنرى

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ، ٨٣/٣ - ٢٦٦ ، ط . محمد علي صبيح بالقاهرة ١٣٥٣ هـ .

مفصلاً ـ وقد خصّ المانع الناشئ عن سوء فهم القدر بالذكر ، وبيّن أن عقيدة القدر لا تنافي التداوي فأورد في ذلك حديثاً (في المسند والسُّنن عن أبي خزامة قال : قلت يا رسول الله أرأيت رُقىً نسترقيها ، ودواءً يُتَداوى به ، وتُقاةً نتقيها ؟ هل ترد من قدر الله شيئاً ؟ فقال : « هي من قَدَر الله » ـ قال ابن القيّم ـ فقد تضمنت هذه الأحاديث إثبات الأسباب والمسببات وإبطال قول من أنكرها ..)[1] ، فبيَّن للمريض أن التّداوي والمعالجة النفسية من الأسباب التي قدر الله بها زوال الأمراض النفسية والجسدية .

أساليب تطبيق هذا المبدأ :

لابن القيّم في محاولة شفاء القلب منهجان سبق المعاصرين إليهما : المنهج العلاجي وهو معرفة الداء واستعمال الدواء حتى يبرأ المريض ـ والمنهج الوقائي ، وهو الطريق الذي يسلكه ، أو ينصح به غيره حتى يَقِي نفسه أو غيره الوقوع في حالة المرض أو الاضطراب النفسي .

ومن الأدوية التي اعتمدها ابن القيّم في كلا المنهجين :

---

(١) المرجع السابق ، ٣/٨٨

أ ـ علاج النفس وإصلاحها بالدعاء والتضرع وصدق الالتجاء إلى الله :

قال ابن القيّم :

(فصل : ومن أنفع الأدوية الإلحاح في الدعاء . وقد روى ابن ماجه في سننه من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من لم يسأل الله يغضب عليه » ، وفي صحيح الحاكم من حديث أنس عن النّبي ﷺ : « لاتعجزوا في الدعاء ، فإنه لا يهلك أحد مع الدعاء »)[1] ، أي لا تفتروا ولا تضعفوا في الدعاء .

ولا يكتفي ابن القيّم بذكر الدواء ، بل يشرح للمريض كيف يعالج نفسه ، وكيف يتناول الدواء . وهذا في الأمور النفسية لا يقل أهمية عن معرفة الدواء ، إن لم يكن أهم منه ، لأن أدوية النفس أمور معنوية وعبادات وأذكار ، فإذا لم تؤخذ على الوجه المطلوب ، وبالمقدار المحدد ، فإنها لا تشفي ولا تعطي النتيجة المرجوّة ، مما قد يسبب نكسة أو حيرة أو إحباطاً عند المريض . كذلك يلاحظ ابن القيّم مدى استعداد المريض ، ومدى تأثير الفاعل وهو الدعاء إذ يقول : « وكذلك الدعاء فإنه من أقوى الأسباب في دفع المكروه ، وحصول المطلوب ، ولكن قد يتخلف أثره عنه ، إمّا لضعفه في نفسه ، بأن يكون دعاءً لا يحبه الله ، لما فيه من العدوان ؛ وإمّا

(١) الجواب الكافي ، ص ٩ ، (مرجع سابق) .

لضعف القلب وعدم إقباله على الله وقت الدعاء ، وإمّا لحصول المانع من الإجابة : من أكل الحرام ، ورين الذنوب على القلوب ، واستيلاء الغفلة والشهوة واللهو ، وغلبتها عليها ... فالدعاء دواء نافع ولكن غفلة القلب عن الله تبطل قوّته .. »[1] .

ويصلح الدعاء للوقاية ، كما يصلح للعلاج ، كما قال ابن القيّم :

(والدعاء من أنفع الأدوية ، وهو عدو البلاء ، يدافعه ويعالجه ، ويمنع نزوله ويرفعه ، ويخففه إذا نزل ، وهو سلاح المؤمن كما روى الحاكم في صحيحه من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الدعاء سلاح المؤمن ، وعماد الدين ، ونور السموات والأرض ... » ، وقد روى الحاكم في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « لا يغني حذر من قدر . والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل »[2]) ، فهو ينفع لعلاج ما يصيب النفس من الأدواء ، وللوقاية مما يُخشَى وقوعه ، كما ينفع في تخفيف الأزمة النفسية تدريجياً حتى تزول .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٧ ـ ٨

(٢) الجواب الكافي ، ص ٩ ، (مرجع سابق) ، ورواه الحاكم عن ابن عمر بلفظ : « الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل فعليكم .. » بإسناد حسّنه الألباني ، انظر صحيح الجامع الصغير برقم ٣٤٠٣ ، ط . المكتب الإسلامي ، ١٥١/٣ ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م .

وهكذا جمع ابن القيّم ، في العلاج بالدعاء ؛ الأسلوب العلاجي والأسلوب الوقائي ، كما جعل منه مثالاً لمبدأ توعية المريض والطبيب ، قبل بدء المعالجة ، ومثالاً لوجوب توفّر الشروط اللازمة لتحقيق الهدف من العلاج ؛ وهي صلاح العلاج ، واستعداد المريض له ، وبراعة الطبيب ، وزوال أي مانع من نفاذ العلاج ، وغرس الثقة في نفس المريض والأمل بالشفاء على أي حال ، أي مهما ازدادت أو تفاقمت الأزمة النفسية .

ب ـ العلاج الاجتماعي :

وهو يأتي بعد معالجة أصل المرض بالدواء المناسب أو بالوقاية ، فيندمج المعافى ، في مجتمع صالح لتستقيم حاله ولئلا ينتكس .. ويرى ابن قيّم الجوزية أن علاج النفس يكون بمرافقة المؤمنين ، والانتظام في مجتمعهم والعمل بنظام سلوكهم الجماعي ، ومحبّتهم وتوحيد الشعور مع مشاعرهم بمحبة ما يحبون وكراهة ما يكرهون ، حتى يُصبح معهم كالجسد الواحد ، وكالبنيان يشد بعضه بعضاً .

قال ابن القيّم[1] مبيّناً أهمية الجماعة المؤمنة في الحفاظ على الفرد ودوام صلاحه :

---

(١) الجواب الكافي ، ص ٧٦ ـ ٧٧ ، (مرجع سابق) ، وقد اخترنا من كلامه الفقرات السابقة وأعطيناها الأرقام المذكورة .

(فصل : ومن فاته رفقة المؤمنين وحسن دفاع الله عنهم - فإن الله يدافع عن الذين آمنوا - فاته كل خير رتّبه الله في كتابه على الإيمان وهو نحو مئة خصلة ، كل خصلة منها خير من الدنيا وما فيها :

١ - فمنها الأجر العظيم ﴿ وسوف يؤتي الله المؤمنين أجراً عظيماً ﴾ [النساء ١٤٦/٤] .

٢ - ومنها استغفار الملائكة حملة العرش لهم ﴿ الذين يحملون العرش ، ومن حوله ، يسبحون بحمد ربّهم ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ [غافر ٧/٤٠] .

٣ - ومنها أمره ملائكته بتثبيتهم ﴿ إذ يوحي ربُّك للملائكة أني معكم فثبّتوا الذين آمنوا ﴾ [الأنفال ١٢/٨] . وبهذا يستمد المُعافَى الثقة بانخراطه في سلك المؤمنين الذين يثبتهم الله .

٤ - ومنها الدفع عنهم شرور الدنيا والآخرة ﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا ﴾ [الحج ٣٨/٢٢] .

٥ - ومنها أن لهم العزة ﴿ ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ [المنافقون ٨/٦٣] . وهكذا يستمد العزّة من الله ثم من مجتمع المؤمنين .

٦ ـ ومنها معية الله لأهل الإيمان ﴿ ... وأن الله مع المؤمنين ﴾ [الأنفال ١٩/٨] .

٧ ـ ومنها الرفعة في الدنيا والآخرة ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم ، والذين أوتوا العلم درجات ﴾ [المجادلة ١١/٥٨] . وكذلك يشعر الفرد بالرفعة والمكانة في صفوف الذين آمنوا .

٨ ـ ومنها إعطاؤهم كفلين من رحمته ﴿ ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله ، وآمنوا برسوله ، يؤتكم كفلين من رحمته ، ويجعل لكم نوراً تمشون به ، ويغفر لكم والله غفور رحيم ﴾ [الحديد ٢٨/٥٧] . فالفرد يستنير بنور الجماعة ويتعرف على أهدافها ومنهجها .

وقد أورد ابن القيّم المزايا والفوائد الناجمة عن الاندماج في المجتمع المؤمن بعد أن بيّن أثر الذنوب والمعاصي في إبعاد الإنسان عن التوافق مع مجتمعه وذلك في قوله :

(ومن عقوباتها أنها تخرج العبد من دائرة الإحسان وتمنعه ثواب المحسنين ... فإذا خرج من دائرة الإحسان فاتته صحبة رفقته الخاصة ، وعيشهم الهنيئ ونعيمهم التام ، فإن أراد الله به خيراً أقره في دائرة عموم المؤمنين ، فإن عصاه بالمعاصي التي تخرجه من دائرة الإيمان ، كما قال النّبي ﷺ : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين

يسرق وهو مؤمن ، ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع إليه فيها النـاس أبصارهم حين ينتهبهـا وهو مؤمن » فـإيـاكم إيـاكم ؛ والتوبـة معروضـة بعد)[1] .

الدلالة التربوية :

يؤخذ من النصوص السابقة نتائج ودلائل تربوية أهمها :

١ ـ أن من أسباب الأمراض والأزمات النفسية القيـام بتصرفـات شاذة تجرح كبرياء النفس ، وتبعدها عن مثلها الأعلى وتحبط عـاطفـة اعتبار الذات عنـد الإنسـان وتخرجـه عن دائرة المجتمع ، وهـذا يعني في اصطلاح الصحة النفسية : إحداث تعارض وصراع نفسيّ ، بين عاطفة اعتبار الذات والرضى عن النفس الناجم عن رضى المجتمع المؤمن ، وبين الميول والشهوات والغرائـز ، وسببـه إرضـاء هـذه الشهـوات بطرق غير مشروعـة ، لاترضى عنهـا الأنـا العليـا ـ أو الضمير ـ عنـد الإنسـان ، ولا المجتمـع ، وهـذا المجتمـع المـؤمن عبر عنـه ابن القيّم بـ (دائرة الإحسـان) أو (دائرة عمـوم المـؤمنين) ، فـإذا اقترف الإنسـان تلـك الـذنـوب ، فـإمـا أن يكفر برقـابـة المجتمـع المؤمن ويخرج من دائرة الإيمان ، وإما أن يشعر بالخوف من الجماعة وبـالقلق وبتـأنيب الضمير حتى يتوب ويقلع عن الذنوب والمعاصي .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٧٦

٢ ـ أن العودة إلى دائرة الجماعة والاندماج فيها ، يعطي المعافى ثقة بالنفس ، واعتزازاً بالمجتمع وشعوراً بعزة الانتماء إليه ، ليعوض النقص ، ويغطي الشعور بالإحباط ، الذي كان يعتريه عندما كان يعاني من أزمته النفسية . وتبدو هذه الثقة والاعتزاز واضحين في الفقرة الخامسة على الخصوص وسائر الفقرات على العموم .

٣ ـ تندمج عقيدة الفرد وتصوراته ، في عقيدة الجماعة وتصوراتها ، فينشأ عن ذلك تصورات مشتركة ، وعقيدة شاملة ، تعطي جميع الأفراد قوة إضافية جماعية فوق قواهم الفردية ، وقد أكّد ابن القيّم على التلازم بين إيمان الفرد ورفقة جماعة المؤمنين ، فاعتبر خسارة كل خير رتّبه الله على الإيمان ، نتيجة حتمية لازمة لمن فاتته رفقة جماعة المؤمنين ، يبدو ذلك واضحاً في مطلع النصّ السابق « ومن فاته رفقة المؤمنين .. فاته كل خير رتبه الله في كتابه على الإيمان ، فلا تحصل خيرات الإيمان ونتائجه النفسية والتربوية والسلوكية إلا في صحبة الجماعة وملازمتها »[1] .

٤ ـ ينتج من الفقرة السابقة ، ومن استقراء الفقرات الثمانية التي نقلناها عن ابن القيّم أن صحة الإيمان وتمامه وثوابه ، أمور لا تحصل إلا برفقة جماعة المؤمنين ، فلزوم الجماعة ورفقتها جزء لا يتجزأ من

---

(١) المرجع السابق ، ص ٧٦ .

العقيدة الإسلامية الصحيحة ، ذلك أن تثبيت العقيدة والإيمان بالله واليوم الآخر إنما يتحقق ويكون أكثر فعالية في جو الجماعة .

٥ ـ ينتج ، أيضاً ، من النصوص الآنفة الذكر من كلام ابن القيّم وما استدل به من الآيات ، أن المادة الأساسية لتكوين التصورات والمشاعر الجماعية المشتركة ، مشتقة من مكونات العقيدة الإسلامية ، كالإيمان بنصر الله ، وتثبيته للجماعة المؤمنة ، وبدفاع الله عنها ، وبأن العزّة لله جميعاً ، وأن الله مع المؤمنين ، وكالإيمان بثواب الله ، وباليوم الآخر وبالجنة والنار والحساب وبتوحيد الله وسائر أركان الإيمان والإسلام مع العمل بمقتضاها في نطاق الجماعة المؤمنة .

جـ ـ العلاج الوقائي عن طريق استبعاد التناقض والصراع النفسي :

يهتم ابن القيّم بما يضمن سلامة النفس أو القلب عن طريق تجنب أسباب المرض والتحذير منه ، وقد استوحى هذا العلاج من قوله تعالى :

﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ [الشعراء ٨٨/٢٦ ـ ٨٩] .

فقال : « والقلب السليم هو الذي سلم من الشرك والغل والحقد والحسد والشّح والكبر ، وحبّ الدنيا والرياسة ، فسلم من كل آفة

تبعـده من الله ، وسلم من كل شبهــة تعــارض خبره ، ومن كل شهـوة تعارض أمره ، ومن كل قاطع يقطع عن الله ...

ولا تتم له سلامته مطلقاً حتى يسلم من خمســة أشيـاء : من شرك يناقض التوحيد ، وبدعة تخالف السّنة ، وشهوة تخالف الأمر ، وغفلـة تناقض الذكر ، وهوى يناقض التجرّد والإخلاص »[1] .

وهكذا أقام سلامة القلب من الأمراض على استبعاد كل ما يسبب (صراعـاً) في النفس الإنسـانيـة ، فـاعتبر كل مـا يسبب التنـاقض مع العقيدة الإسلامية وتعاليم الإسلام ـ الموافقة لفطرة الإنسان ، والمنظمة لحياته وعلاقاته ومجتمعـه ـ داءً ، أو وبـاءً ، ينحرف بـالنفس والمجتمع ، وينوء بـالقلب ، فيجعلـه مظلمـاً غير قـادر على تحمّل أعبـاء الحيـاة ، ولا على التوافق مع هدف الإنسان ومثله الأعلى ، الذي آمن به وكرّس وجوده من أجل تحقيقه ، ولا مع مجتمعه الإسلامي .

وبهذا سبق ابن القيّم علماء الصحـة النفسيـة المعـاصرين إلى هـذا المنهج الطّبي الذي يقوم في المعالجـة (الوقـائيـة) للأمراض النفسيـة ، على إيجـاد التوافق واستبعـاد الصراع بين القـوى والـوظـائف النفسيـة أولاً ، ثم بين الإنسان ومجتمعه ...

---

(١) الجواب الكافي ، ص ١٣١ ، (مرجع سابق) .

ثم اهتدوا إليه في هذا العصر ، كما قـال الـدكتور القوصي في تفسير تعريفه للصحة النفسية : « ومعنى التوافق التام بين الوظائف النفسيـة المختلفـة هـو خلـوّ المرء من النزاع الـداخلي ، كـوقـوعـه بين اتجـاهين مختلفين ، كأنْ يتردد بين تحقيق كرامته في نظر نفسه ، وإشباع جوعه عن طريق السرقة »[1] .

وهـذا يصلـح مثـالاً لـواحـدة من الكليـات الخمس التي اشترط ابن القيّم وقاية الإنسان منها ليظفر بسلامـة القلب (أو النفس) من الأمراض ، وهي التي عبّر عنها بقوله : (ومن كل شهوة تخالف أمره) فشهـوة الطعـام في هـذا المثـال تخـالف أمر الله أي نهيـه عن السرقـة ، أو التعدي على أموال الناس ، إن كان الجائع يستطيع الصبر ، دون أن يموت ، ريثما يصـل إلى الطعـام المبـاح أو الرزق الحـلال . وعلى هـذه الكليـة تقـوم السلامـة من الصراع الـداخلي بين الشهـوات والنزوات الغريزية ، من جهـة ، وكرامـة الإنسـان وصوت ضميره الـذي يستمـد كرامته من امتثاله لأوامر الله عزّ وجلّ ، متبعاً بـذلـك سبيل المؤمنين الذين يعتزّ بهم ، كما رأينا .

أمـا استبعـاد الصراع الاعتقـادي فيقوم على (السلامـة من شرك يناقض التوحيد) ، وتقوم عقيدة التوحيد على إخلاص المحبة الحقيقية

---

(١) أسس الصحة النفسية ، ص ٦ ، (مرجع سابق) .

المؤديـة إلى العبوديـة والخضوع الكامـل ، لله وحـده ، وبـذلـك تجتمـع الوظائف النفسية والرغبات والهموم والانفعالات على تحقيق مـا يرضي المحبوب ، فيستبعد كل صراع كما سنرى .

د ـ علاج بعض الحالات عن طريق الإبدال والإعلاء :

يعالج ابن القيّم (الهوى) من طريقين : « أحدهما حسم مـادتـه قبل حصولهـا ، والثـاني قلعهـا بعـد نزولهـا »[1] . أي إمـا بـالأسلـوب الوقائي ، وإما بالأسلوب العلاجي .

وقد وصف الهوى بأنـه : « داء عضـال ، وسحر قتّـال ، وأنـه من الْخَبَال ، يُسكر العقل ، ويذهل صاحبه ، فلا يملك قلبه ، بل يصبح ملكاً لمن يهوى . فـإنْ لامـه لائم ، اِلْتَـذَّ بملامـه ، ذكراً لمحبوبـه ؛ وإن عذله عاذل أغراه عزله وسار به في طريق مطلوبه »[2] .

فالهوى يأخذ على صاحبه كل طرق التفكير ، فلا يفكر إلا فيمن يهوى ، ويستهوي كل عواطفـه وميـولـه ، فـلا تتجـه إلا إليـه ، فهـو مَهوَى فؤاده ، ومحصلة سعيه واجتهاده ...

وينشأ الهوى عن التعلق بالصور كما قال ابن القيّم :

« فـالتعلُّق بـالصور يوجب فسـاد العقـل ، وعَمَـهَ البصيرة وسكر

(٢،١) الجواب الكافي ، ص ١٩٢ ، (مرجع سابق) .

القلب »[1] . فإذا اشتدّ تعلّقه أصبحت حاله أشبه بصراع المجانين كما مثّل ابن القيّم حال الهاوي بقول الشاعر :

قالوا جُنِنْتَ بمن تهوى ؟ فقلت لهم العشق أعظم ممّا بالمجانين
العشق لا يستفيق الدهرَ صاحبُه وإنما يُصرع المجنون في الحين[2]

لذلك يبدأ ابن القيّم العلاج بالأسلوب الوقائي ، لأن الصور إنما تنطبع في النفس عن طريق التقاط البصر لها ، فأحسن علاج للوقاية من عشق الصور غضّ البصر كما قال : « فأما الطريق المانع من حصول هذا الداء فأمران : أحدهما غضّ البصر »[3] ، ثم يذكر عشر فوائد ، ثم يقول مبيّناً علاجاً وقائيّاً آخر :

« الطريق الثاني المانع من حصول تعلّق القلب : اشتغال القلب بما يصدّه عن ذلك ويحول بينه وبين الوقوع فيه »[4] .

وقد سبق ابن القيّم إلى هذا الأسلوب في الوقاية من بعض المشكلات أو الأمراض النفسية أو الاجتماعية ، ثم أخذ به علماء التربية المعاصرون وسمّوه (إبدالاً) كما قال الدكتور عبد العزيز القوصي :

(١، ٢) المرجع السابق ص ١٩٤
(٣) المرجع السابق ، ص ١٩٣
(٤) المرجع السابق ، ص ١٩٦

« وانشغال المرء بميول مختلفة في وقت معين ، حتى لاتظهر فيه ميول أخرى لا يسهل إشباعها كاملة بطريق يوافق عليه المجتمع ، يسمى (إبدالاً) »[1] .

لكن تطبيق ابن القيّم لهذا الأسلوب كان أحكم وأدق ؛ فقد حرص على أن يجعل الشاغل البديل من جنس الداء الذي يراد صدّ القلب أو النفس عنه لكنه أشد تأثيراً ، لذلك يحلّل داء (الهوى) ليبيّن للمربّي عناصره وليختار البديل المناسب عوضاً عنه فيقول : « وهو - أي الهوى - إما خوف مقلق أو حب مزعج .. فإذا لم يُشغل القلب بخوف ما هو أضر عليه ، أو محبة ما هو أنفع له وخير له .. لم يجد بُدّاً من عشق الصور »[2] .

ويعلّل ذلك بقوله :

« وشرح هذا أنّ النفس لاتترك محبوباً إلاّ لمحبوب أغلى منه ، أو خشيةَ مكروهٍ حصولُه أضر عليها من فوات هذا المحبوب »[3] .

على حين نجد الدكتور القوصي يقول في بيان البديل من وجهة نظر التربية المعاصرة : « ولهذا فليس أمامنا إلاّ أن نربّي في الأولاد ،

---

(١) أسس علم النفس د . عبد العزيز القوصي ، ص ١٤٥ ، الناشر مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٠ م .

(٢،٣) الجواب الكافي لابن القيّم ، ص ١٩٦ ، (مرجع سابق) .

قبل بلوغهم سنّ المراهقة ، ميولاً مختلفة تشغل كل نشاطهم ، كالميول الرياضية والموسيقية والعلمية ، وغير ذلك »[1] ، فكلاهما يستخدم (الإبدال) للوقاية مسبقاً قبل الوقوع في الداء أو الأزمة النفسيّة ...

ولنتابع ابن القيّم وهو يحلل كلاً من مسببات الداء ، والبديل الذي هو أصل أسباب الشفاء ، ويقارن بينهما ليقنع قارئه بالأخذ بهذا البديل على أن البديل هنا هو الرجوع إلى الأصل ، الذي لا يجوز العدول عنه ، بل لا تستقيم الحياة النفسيّة بدونه ؛ والبرهان على ذلك من واجب المربِّي والطبيب النفسيّ ، لأن ابن القيّم يعتمد على قناعة المريض ، ليُقبل على الدواء بتلهّف ، من تلقاء نفسه ، وليعالج نفسه بنفسه ، بعد أن يعرف ويوقن أنه ما تعرض لهذا الداء والشقاء ، إلا بعدما عدل عن الأصل إلى ضدّه ... وإنما وصفتُ هذه العملية التربوية بأنها (إبدال) ـ مع أنها رجوع إلى الأصل ـ بالنظر إلى حالة المريض ، الذي غرق في عشق الصور ؛ أو حالة أمثاله من الشباب الذين يتعرضون لداء الهوى ، وللفتن المحيطة بهم ، والذين لم ترقَ نفوسهم بعد إلى إخلاص المحبة ـ بهذا المعنى الذي سيشرحه ابن القيّم ـ لله وحده ، ولم يذوقوا لذّة إخلاص المحبة له سبحانه ؛ فهم غارقون في حالة حيرة وقلق تضطرب معها عواطفهم وتبحث عن بديل يكون مستَقَراً لها ، فإذا وجدوا البديل ، الذي سنبيِّنه ، وعقلوه ، وتهيأت

(١) أسس علم النفس د . عبد العزيز القوصي ، ص ١٤٥ ، (مرجع سابق) .

نفوسهم له ، ارتقوا بعواطفهم إلى ذلك الحبّ الإلهي . فالعملية يمكن أن تكون عملية (إبدال) و (إعلاء) معاً . فهي إبدال محبوب بمحبوب ورجوع من الحب الطارئ إلى الحب الأصلي الذي غرس في فطرة الإنسان ، وهي إعلاء لأنها تسمو بالنفس من محبة أرضية فانية ، إلى محبة علوية دائمة خالدة .

ولكن هذا الإعلاء يحتاج إلى إعداد مسبق ، كتربية البصيرة وقوة العزيمة كما قال ابن القيّم : « وهذا يحتاج صاحبه إلى أمرين ، إن فقدهما أو فقد أحدهما لم ينتفع بنفسه : **أحدهما** : بصيرة صحيحة يفرق بها بين درجات المكروه والمحبوب ، فيؤثِرَ أعْلى المحبوبَيْن على أدناهما ...

الثاني : قوة عزم وصبر يتمكن به من هذا الفعل والترك ، فكثيراً ما يعرف الرجل قدر التفاوت ، ولكن يأبى له ضعف نفسه وهمته ، وعزيمته على أشياء لاتنفع ... »[1] ، كما يحتاج إلى تبصير وتعريف بحقيقة الداء الذي يرجو الوقاية منه ، والدواء الذي سيرقى بنفسه إليه .

ويحصل العلاج عن طريق تربية العواطف السامية لتحل محل الأهواء الضارة ؛ ولتحقيق ذلك يفصّل ابن القيّم بين طبيعة المحبة

---

(١) الجواب الكافي ، ص ١٩٦ ، (مرجع سابق) .

الربّانيـة ، وطبيعـة الصور ويقـارن بينهما ، وقبل أن نـدخل معـه في غمار هذه المقارنـة تقرب إلى الأذهـان معنى هـاتين العـاطفتين (اللتين يقارن بينهما) في ضوء معطيات علم النفس المعاصر .

معنى العاطفة وكيف تتكوّن ؟

لا تقتصر الحياة الوجـدانيـة على مجرد الانفعـالات الطـارئـة ، بل تعتمـد أولاً على ميـول وعـواطف كامنـة في أعمـاق النفس الإنسـانيـة ، تصدر عنهـا الانفعـالات ، لتكون دليلاً على انتقـالهـا من حـالـة القوة والكمون ، إلى حالة الفعل والظهور .

أما كيف تتكوّن العاطفة ، فيمكن أن يجيبنـا أحـد علمـاء النفس المعـاصرين على ذلـك بقولـه : « ولكي نبيّن كيف تتكوّن العـاطفـة ، نأخذ مثالاً : عـاطفـة تتكون بينـك وبين شخص تقـابلـه لأول مرة ؛ فهب أن هـذا الشخص كان معـك على جـانب من الأدب والمجـاملـة والكرم ، وكان ميالاً إلى خدمتك ومعاونتـك ، وإدخـال السرور على نفسك ، وإظهار العطف عليك ... إذا حدث هذا كلـه ، فـإن فيـه مجـالاً طيباً لإرضاء غرائزك وحاجاتـك ، وفي تكرار وجوده في مجـال حيـاتـك مبعث لانفعالات تكون في مجموعهـا سـارة ، وبهـذا تجـد نفسـك على ضوء خبراتك المتكررة تشعر ، كلما قابلته ، بالارتياح لمقابلته »[1] .

---

(١) أسس علم النفس : عبد العزيز القوصيّ ، ص ٢٢٠ ـ ٢٢١ ، (مرجع سابق) .

ثم يلخص لنا مكونات عاطفة الحب وخصائصها ؛ وهي :

« ١ً ـ أن عاطفة الحب تكوّنت نتيجة خبرات متكررة بموضوع معين . ٢ً ـ وهذه الخبرات المتكررة صحبتها انفعالات في مجموعها سارّة ويقال في هذه الحالة أنه تكونت لدى الشخص عاطفة حب نحو الشخص الآخر . ٣ً ـ وتوجد هذه العاطفة في صورة كامنة ، أو كما يقول مكدوچل ، كجزء من تكوين العقل ، أو كاستعداد عقلي . ٤ً ـ يُستثار هذا الاستعداد إذا توافرت شروط استثارته ، فينفعل صاحبه ويقوم بسلوك مناسب ، يختلف باختلاف الموقف ... فمرض الصديق (المحبوب) يستثير في صاحب العاطفة (المحب) انفعال الحنوّ ؛ وخيبة الصديق تستثير فيه التألّم ، ونجاح الصديق يستثير في صاحب العاطفة الزهوّ والفخر والسرور »[(١)] .

ابن القيّم والعاطفة الدينية :

لو حلّلنا كلام ابن القيّم عن (مراتب اليقين) و (حقيقة الإيمان) لوجدناه يصف الخبرات والمعاناة التي مرّ بها المحبّون ، حتى توصلوا إلى العلم بالله ومحبته ، أي إلى (تكوين عاطفة حبّ الله) ، إذ قال في معرض وصفه لمراتب اليقين :

---

(١) أسس علم النفس : عبد العزيز القوصيّ ، ص ٢٢٠ ـ ٢٢١ ، (مرجع سابق) .

(وأما القائمون لله بحجّته ، خلفاء نبيّه في أمته ، فإنهم ، لكمال علمهم وقوّته ، نفذ بهم إلى حقيقة الأمر ... فعاينوا ببصائرهم ماغشيت عنه بصائر الجاهلين ، فاطمأنّت قلوبهم به .. فشمّروا إليه . وأسمعهم منادي الإيمان النداء ، فاستبقوا إليه ، واستيقنت أنفسهم ماوعدهم ربّهم فزهدوا فيما سواه .. فامتطوا ظهور العزائم ، وهجروا لذة المنام ، وما ليل المحب بنائم !.. وهذا كله من ثمرات اليقين ، فإن القلب إذا استيقن ماأمامه من كرامة الله وما أعد لأوليائه .. زالت عنه الوحشة التي يجدها المتخلّفون ، ولانَ له مااستوعره المترفون ؛ ومن هذا مايروى في حديث حارثة ، وقول النّبي ﷺ له : « كيف أصبحت ياحارثة ؟ » ، قال : « أصبحت مؤمناً حقاً ! » ، قال : « إن لكل قول حقيقة . فما حقيقة إيمانك ؟ » ، قال : « عزفت نفسي عن الدنيا وشهواتها . فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلى أهل النار يتعاوَوْن فيها » . فهذا هو هجوم العلم بصاحبه على حقيقة الأمر ، ومن وصل إلى هذا استلان مايستوعره المترفون ..)[1] ، ثم يأتي بمثال آخر من حياة الصحابة[☆] ، ثم يوضح معنى (هجوم العلم على حقيقة الأمر)

---

(١) مفتاح دار السعادة ، ص ١٦٢ ط مكتبة الأزهر بمصر ١٣٥٨ هـ/١٩٣٩ م .

(☆) وهو قول حنظلة وهو يبكي « نافق حنظلة !... يارسول الله ! نكون عندك تذكّرنا بالنار والجنة كأنّا رأيَ العين ، فإذا رجعنا عافسنا الأزواج والصبية ونسينا كثيراً ... إلخ » رواه الترمذي . وسيأتي بتمامه في التعليق .

بقوله : « والمقصود أن الذي يهجم بالقلب على حقيقة الإيمان ، ويُلين له ما يستوعره غيره ... هو العلم التام والحب الخالص . والحب تبع للعلم ، يقوى بقوته ، ويضعف بضعفه »[1] .

كذلك لوحلّلنا ماعرضه ابن القيّم من آيات الله في الآفاق وفي أنفسنا ، لوجدنا أن القصد من ذلك تكوين خبرات يتنامى بها العلم بعظمة الله وحكمته ورحمته وقدرته علينا ، ومشيئته المطلقة في حياتنا ومرضنا وسفرنا وموتنا . وكل خبرة من هذه الخبرات مصحوبة بانفعال سارّ لنا :

فهو يطلب منا مثلاً أن نتأمل « حكمة الله فيما خصّ به الإنسان من الحفظ والنسيان (الذاكرة) وماله فيهما من المصالح إذ يعرف ماله وما عليه وما أخذ وما أعطى ، وما سمع وما رأى ، ومن أحسن إليه ، ومن أساء إليه »[2] . وحين نتأمل كل هذا في أنفسنا نشعر بانفعال العرفان بالجميل أمام هذه النعمة . وكذلك حين نتأمل « نعمة الله على الإنسان بالبيان وقد اعتدّ بها سبحانه في جملة ما اعتدّ من نعمه على العبد »[3] .

---

(١) مفتاح دار السعادة ، ص ١٦٣ ، (مرجع سابق) .

(٢) مفتاح دار السعادة ، ص ٢٩٨ ، (مرجع سابق) .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٠٠

وكذلك حين نتأمل « قوله تعالى : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ [النحل ٧٨/١٦] »[1] ، فأعطاه ما يساعده على الحفظ والفهم والبيان ، وتكون هذه الخبرات مصحوبة أو متبوعة باستجابات وأفعال وعبادات من الإنسان تتم بها سعادته ؛ إذ يعبّر بها عن شكره واعترافه بهذا الإله وحاجته إلى محبته واللجوء إليه كما يدل عليه قول ابن القيّم موضحاً الثمرات العملية لهذه الآيات في عباداتنا : « ومنها أنه سبحانه يستجلب من عبده بذلك ماهو من أعظم أسباب السعادة له ؛ من استعاذته واستعانته ، والإنابة إلى ذكر الله ومحبته والفرح بلقائه ، والتّجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ... وهذه هي الحال التي كانت تحصل للصحابة عند النّبي ﷺ إذا ذكّرهم بالجنة والنار ... »[2] .

(١) المرجع السابق ، ص ٣٠١

(٢) كما في سنن الترمذي وغيره ... عن حنظلة الأسدي ... أنه مرّ بأبي بكر رضي الله عنه وهو يبكي فقال : مالك ياحنظلة ؟! فقال : نافق حنظلة ياأبا بكر ! نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالجنة والنار كأنّا رأي عين ، فإذا رجعنا إلى الأزواج والصبية نسينا كثيراً ... فانطلقا إلى رسول الله ... فقال رسول الله ﷺ : « لوتدومون على الحال التي تقومون بها من عندي لصافحتكم الملائكة في مجالسكم وفي طرقكم وعلى فرشكم ، ولكن ياحنظلة ساعة وساعة » ، المرجع السابق ، ص ١٦٢ ـ ١٦٣

فهـذه خبرات متكررة حول موضوع معين : هـو محـاولـة الصلـة بالله وتأمل آياته الدالة على صفاته ، والحرص على مرضـاتـه ، وتجنّب غضبـه ، ومنـاجـاتـه ، والحنين إلى جنتـه والخـوف من نـاره ، ختمهـا ابن القيّم بقـولـه : « والمقصـود أن الـذي يهجم بـالقلب على حقيقـة الإيمان ... العلم التام والحب الخالص »[1] كما ذكرنا .

فإذا استقرت آثار هذه الخبرات في النفس كونت العلم التـام بـالله والحب الخالص له ، وهو العاطفة الدينية الصحيحة الخالية من شوائب الشرك .

ويدلنـا على تكوين هـذه الخبرات قول ابن القيّم أيضـاً مطـالبـاً بتأمل آيات الله ودلائل حكمته في خلقنا وفي نفوسنا ؛ مقدّماً بين يدي مطالبته هذا النص القرآني ليعرفنا بالموضوع الذي سيطالبنا به :

« قال الله تعالى : ﴿ ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقنـاهم من الطيبـات وفضلنـاهم على كثير ممن خلقنـا تفضيـلاً ﴾ فسبحان من ألبسه خلع الكرامة كلها من العقل والعلم والبيان والنطق والشكل والصورة الحسنـة .. واكتسـاب العلوم بـالاستـدلال والفكر ، واقتناص الأخلاق الشريفة الفاضلة »[2] . ثم تأتي المطالبة بالتـأمل في قوله :

(1) مفتاح دار السعادة ، مرجع سابق ، ص ١٦٣

(2) المرجع السابق ، ص ٢٨٤

« فأعد النظر في نفسك ، وحكمةِ الخلاّق العليم في خلقك ، وانظر إلى الحواس التي منها تشرف على الأشياء ، كيف جعلها الله في الرأس ، كالمصابيح في المنارة ، للتمكن بها من مطالعة الأشياء ... ثم تأمل الحكمة في أن جعل الحواس خمساً في مقابلة المحسوسات الخمس : المبصرات والأصوات والروائح والكيفيات المذوقات والملموسات ، ولو كان في المحسوسات شيء غير هذه لأعطاك له حاسة سادسة . ولما كان ماعداها إنما يدرك بالباطن أعطاك الحواس الباطنة ...

ثم أعينت هذه الحواس بمخلوقات أخرى ... تكون واسطة في إحساسها ، فأعينت حاسة البصر بالضياء والشعاع . فلولاه لم ينتفع الناظر ببصره .. وأعينت حاسة السمع بالهواء يحمل الأصوات في الجو ثم يلقيها إلى الأذن فتحويه ثم تقلبه إلى القوة السامعة . ولولا الهواء لم يسمع الرجل شيئاً . وأعينت حاسة الشم بالنسيم اللطيف يحمل الرائحة ثم يؤديها إليها فتدركها فلولاه لم تشمّ شيئاً . وأعينت حاسة الذوق بالريق المتحلل في الفم ، تدرك القوةُ الذائقة به طعوم الأشياء ، ولهذا لم يكن له طعم لا حلو ولا حامض ولا مالح ولا حِرِّيف لأنه كان يحيل تلك الطعوم إلى طعمه ولا يحصل به مقصوده »[1] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٨٥

ويشرح ابن القيّم أمثال هذه الآيات في أنفسنا وفي الآفاق مما يُعدّ بالعشرات ثم يذكر ما يتحصّل بها من معرفتنا بالله ولجوئنا إلى الله وشعورنا الوجداني والانفعالي بعظمته ومنّه ورحمته ... فأمّا المعرفة بالله ففي قوله : « ومنها[☆] أنه سبحانه يعرّف عباده عزّه في قضائه وقَدَره ، ونفوذ مشيئته وجريان حكمته وأنه لا محيص للعبد عما قضاه عليه ، ولا مفرّ له منه ، بل هو في قبضة مالكه وسيده وأنه عبده وابن عبده وابن أمته ، ناصيته بيده ، ماضٍ فيه حكمه ، عدل فيه قضاؤه »[1] ... « ومنها[☆] أنه سبحانه له الأسماء الحسنى ، ولكل اسم من أسمائه أثر من الآثار في الخلق والأمر ، كَتَرتُّب المرزوق والرزق على الرازق ، وتَرَتُّب المرحوم وأسباب الرحمة على الراحم ... ونظائر ذلك في جميع الأسماء ... »[2] .

« ومنها أنه يُعرّف العبد حاجته إلى حفظه ومعونته وصيانته ، وأنه كالوليد الطفل في حاجته إلى من يحفظه ويصونه ، فإن لم يحفظه مولاه الحق ويصونه ويعينه فهو هالك ولا بد .. وأنّ مولاه إن وكله إلى نفسه وكله إلى ضيعة وعجز وذنب وخطيئة وتفريط ، فهلاكه أدنى إليه من شراك نعله .. »[3] .

(1) المرجع السابق ، ص ٣١٠

(☆) أي ومن حكمته في أن يرينا آياته ، كما يدلّ عليه سياق الكلام وما سبقه .

(2) المرجع السابق ، ص ٣٠٩ ـ ٣١٠

(3) المرجع السابق ، ص ٣١٠

فهذا نموذج من الجانب المعرفي الذي يكوّن عاطفة حبّ الله ، ويقوي الإيمان به ، والذي سبق وأشار إليه ابن القيّم بلفظ (العلم التام) بعد أن استعرض كثيراً من آيات الله في أنفسنا وفي الآفاق ! أما الجانب الوجداني الذي يرافق تكوين هذه العاطفة ، فقد جاء به ابن القيّم مقترناً بالسلوك الذي يؤلف خبراتنا المكوّنة لهذه العاطفة النبيلة ، ثمّ صرّح ببعض الانفعالات المرافقة للسلوك بقوله : « ومنها أنه سبحانه يستجلب من عبده بذلك ماهو من أعظم أسباب السعادة له : من استعاذته واستعانته من شر نفسه وكيد عدوّه ، ومن أنواع الدعاء والتضرع والابتهال والإنابة والفاقة والمحبة والرجاء والخوف ، وأنواع من كمالات العبد تبلغ نحو المئة ! ومنها مالاتدركه العبارة وإنما يدرك بوجوده ، فيحصل للروح بذلك قرب خاص لم يكن يحصل بدون هذه الأسباب »[1] .

فهذه نماذج من العبادات والانفعالات السارّة المرافقة للعاطفة الدينية التي كونتها خبراتنا عن آيات الله ، وهي من أعظم أسباب السعادة . وأهم هذه الانفعالات : الخضوع والذّل لله سبحانه كما قال ابن القيّم :

« ومنها أنه سبحانه يستخرج بذلك من عبده تمام عبوديّته . فإن

(١) المرجع السابق ، ص ٣١٠ ـ ٣١١

تمام العبودية هو بتكميل مقام الذّل والانقياد . وأكمل الخلق عبوديةً أكملهم ذلاً لله وانقياداً وطاعة . والعبد ذليل لمولاه الحق بكل وجه من وجوه الذّل ، فهو ذليل لعزّه ، وذليل لقهره ، وذليل لربوبيته وتصرفه فيه ، وذليل لإحسانه إليه وإنعامه عليه ... وهناك نوعات من التذلُّل ، يقتضيان من صاحبهما من الطاعة والفوز ما لا يقتضيه غيرهما :

أحدهما ذلّ المحبة ... وهو خاصّة المحبة ولُبُّها ، بل روحها وقوامها وحقيقتها ، وهذا يَستخرِج من قلب المحب ـ من أنواع التقرُّب والتودُّد والإيثار والرِّضا والحمد والشكر والصبر والتندّم وتحمُّل العظائم ـ ما لا يَستخرجه الخوف وحده ، ولا الرجاء وحده ... فهذا ذلّ المحبين » يستشعرونه أمام نعم الله ، أو قضائه ، أو نصره لأوليائه .

« الثاني ذلّ المعصية ... فإذا انضاف هذا إلى هذا ، فنيت الرسوم ، وتلاشت الأنفس ، وبطلت الدعاوَى جملةً ، وذهبت الرعونات ، وطاحت الشطحات ، ومحي من القلب واللسان (أنا ، وأنا) ... »[1] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣١١

ثم إن هـذه الانفعـالات النـاتجـة عن العبـادات التي شرعهـا الله كانفعال الذّل والخضوع والعرفان بالجميل والدهشة لعظمة الله لها فوائد عـديـدة : فهي تُسْهِم في تكـوين العـاطفـة ، ثم تستمر في التعبير عنهـا وإكسـابهـا المزيـد من القوة والتمكُّن في النفس ؛ فتكسبنـا مزيـداً من الاستمتاع بحبّ الله واللذة بمنـاجـاتـه ، كما تكسبنـا الشعور بسموّ هـذه العاطفة وكمالهـا إذا قورنت بـالعواطف والأهواء واللـذات الـدنيويـة ، وهـذا مـوافـق لرأي أهـل السُّنـة والجمـاعـة من أن الإيمـان يـزيـد بالطاعات .

والفائدة الثـالثـة التي تؤخـذ من هـذا النص الأخير لابن القيّم : هي تطهير النفس والقلب من (رعونات) الغرور والتعالي على عبـاد الله ، بالعبادة أو بالمكانة أو الدرجة العليا عنـد الله ، أو بـالخـدمـات والمبرات التي تُقدَّمُ للمجتمع أو للوالـدين ابتغـاء مرضـاة الله وغفرانـه . فالشعور بذلّ المحبة والعبودية أمام عظمـة الله يمحو كل هـذا الغرور . وفي الواقع ، يصعب حصر هـذه الفـوائـد مـادمنـا نشعر مـع ابن القيّم « أنه سبحانـه يستجلب من عبـده ـ بتعرُّفـه إليـه ـ من أنواع الـدعـاء والتضرُّع .. والمحبة والرجـاء والخوف وأنواع من كمالات العبـد تبلغ نحو المئة ... »[1] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢١٠

مقارنة بين محبة الله وعشق الصُّور :

والآن ـ بعد أن استعرضنا معنى العاطفة عند علماء النفس ، ومعنى حبّ الله عند ابن القيّم ـ ولكي نستكمل أسلوب المعالجة التربوية عن طريق إحياء هذه العاطفة السامية ، لتحل محل عشق الصُّور ؛ يجب أن نضمن قناعة (المريض) بوجوب هذا الاستبدال . « وهذا يحتاج إلى بصيرة صحيحة يفرق بها بين درجات المكروه والمحبوب ، فيؤثر أعلى المحبوبين على أدناهما »[1] كما قال ابن القيّم .

لذلك وجدنا ابن القيّم يمعن في وصف طبيعة كل من هاتين العاطفتين ، ويقارن بينهما ، وهاك بعض كلامه في ذلك أتبعناه بشيء من التحليل النفسي ، أو المقارنة بما يقابله مما عند علماء النفس ، بقصد التبسيط والتقريب إلى الأفهام المعاصرة ، ومع الترتيب والترقيم ؛ وقد استخرجنا من ذلك ثلاث صفات توجد في كل منهما وهي :

اً ـ « أنهما ضدّان لا يتلاقيان ، فلا يمكن أن يجتمع للقلب حبّ المحبوب الأعلى وعشق الصُّور أبداً ، بل لا بدّ أن يخرج أحدهما صاحبه »[2] .

---

(١) الجواب الكافي ، ص ١٩٦ ، (مرجع سابق) .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٩٦

فحبّ الله ينشأ عن تأمل آثار عظمته وحكمته ورحمته ، والخضوع له والخشوع بين يديه ، وطلب عونه ونصره ومدده ومرضاته وجنته ، واتّقاء كل ما يُغضبه رغبة في إرضائه ؛ والإعجاب بآثار قدرته وبطشه وجبروته ؛ وتمجيده وتقديسه ؛ والرغبة فيما وعد عباده به من جنات النعيم في دار الخلود ... إلخ .

وعشق الصُّور ينشأ عن تحقيق اللّذة العاجلة بتأمُّل الصُّور والاستمتاع بها وتقديسها الناتج عن الإعجاب بها إعجاباً يخفق له القلب وتستجيب له جميع المشاعر والقوى المدركة والغريزية ، وهذا الإعجاب والتقديس لا يجتمع مع تقديس الخالق والخضوع لأوامره وامتلاء القلب والمشاعر بمحبته لأنهما ضدّان ، مختلفان في الطبيعة والتركيب اختلافاً يستحيل معه اجتماعهما ، ولأن موضع اجتماعهما لا يحتملهما معاً . فالعقل لا يجمع النقيضين ، وسيزداد هذا وضوحاً بالفقرة التالية .

٢ً ـ « المحبة الصادقة تقتضي توحيد المحبوب ، وألاّ يشرك بينه وبين غيره في محبته »[(١)] لأن صدق المحبة يعني اقتناع العقل بأنه لا شيء يستحق الإعجاب ، والتعظيم وصرف جميع طاقات الإنسان وعواطفه وانفعالاته في تقديس أحد وتمجيده والخوف من غضبه

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٩٧

والعمل على مرضاته ـ مثل ما يستحقه هذا المحبوب . فإذا اجتمع في القلب ـ جَدَلاً ـ محبوبان باعتبار واحد ، كأنْ كانَ القلب قد أحبهما لكمالها ورحمتها وحكمتها وحاجة المحب إليهما فلا بدَّ أن يكون أحدهما أكمل من الآخر وأرحم وأحكم فتسقط محبة الآخر ، وينصرف الحب والإعجاب كله للأول ، بحكم استئثاره بتمام الكمال والرحمة والحكمة ، والصمديّة ، ولذلك خصّ ابن القيم (الباب الحادي والعشرين في اقتضاء المحبة إفراد الحبيب بالحب) في كتاب (روضة المحبين)[1] .

وهذا لا يعني استحالة اجتماع محبتين من نوعين مختلفين في القلب الواحد ، فمن المعلوم أن الإنسان يحب أبويه ، وأولاده ، وزوجته ، بعد محبته لله ، ويحب أصدقاءه وأخوانه في الله وجيرانه ، ويحب وطنه ومنزله وأقاربه ويؤيد هذا قول الرسول ﷺ لحنظلة حينما خاف أن يشغله حب الأهل والأولاد عن الله وبكى وقال : (نافق حنظلة) فقال له الرسول ﷺ : « لو تدومون على الحال التي تقومون بها من عندي لصافحتكم الملائكة ... ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ساعة وساعة »[2] كررها رسول الله ﷺ .

---

(١) ص ٢٩٥ (روضة المحبين) دار الكتاب العربي ، بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .

(٢) مفتاح دار السعادة ، ص ١٦٢ ـ ١٦٣ (مرجع سابق) .

« وتكوين العواطف يترتب عليه تنظيم السلوك والدوافع الفطرية وتوجيهها وجهات معينة .. لأن الفرد بعد أن كان قابلاً للاتجاه أية وجهة ترتبط بما يستثير غرائزه ـ أصبحت استثارة غرائزه وانفعالاته مرتبطة بموضوعات معينة أو أشخاص معينين كالأصدقاء والأولاد ، والأبوين »[1] وغير ذلك مما بُنيت عليه « المحبة الطبعيّة ـ كما سماها ابن القيم ـ وهي ميل الإنسان إلى ما يلائم طبعه كمحبة النوم والزوجة والولد فتلك لا تذم إلا إذا ألهت عن ذكر الله »[2] .

فالذي عناه ابن القيم بقوله : « المحبة الصادقة تقتضي توحيد المحبوب » ليس أي محبة ، وإنما هي التي استحوذت على قلب صاحبها حتى أصبحت بمنزلة (العاطفة السائدة) كما تسمى في علم النفس ، وكما أوضحها الدكتور القوصيّ بقوله :

« ونجد من بين العواطف العديدة لدى الشخص البالغ ، عاطفة تكون سائدةً عادةً على بقية عواطفه ، ومتحكّمة في تصرفاته ... وإذا وجدت العاطفة السائدة فإنها توحّد وجهة العواطف والنزعات المختلفة »[3] فالشخص الذي يحب الله حباً جماً ، ولا يفضل عليه محبوباً آخر ، نجده يصادق من يساعدونه على تحقيق مرضاته ،

(١) أسس علم النفس ، عبد العزيز القوصي ، ص ٢٢٧ (مرجع سابق) .

(٢) الجواب الكافي ص ٢٠٦ (مرجع سابق) .

(٣) أسس علم النفس للقوصي (مرجع سابق) ص ٢٢٧

ويتجنّب من عداهم ، ويحب أولاده إذا شاركوه اتجاهه وساعدوه على تحقيقه ، وقد يكرههم إذا عملوا في اتجاه ضدّ هذا الاتجاه ، ويغضب إذا انتهكت حرمات الله .. « أي أن نشاطه العقليّ يسير نحو غاية واحدة وهي إشباع عاطفته السائدة »[1] وهذا يؤيد كون (المحبة الصادقة تقتضي توحيد المحبوب) فليس للإنسان إلاّ عاطفة سائدة واحدة موضوعها محبوب واحد .

٣ ـ الصفة الثالثة التي يشترك فيها حب الله وعشق الصور أن « الإنسان عبد محبوبه ، كائناً من كان ... وخاصّيّة التعبّد : الحب مع الخضوع ، فمن أحب محبوباً وخضع له ، فقد تعبّد قلبه له »[2] وهذا التعبد نتيجة لتوجيه كل نشاطه العقلي والوجداني نحو إشباع هذا الحب ، كما رأينا ، و « التعبد أحد مراتب الحب ويقال له التّتْيم »[3] « وهو آخر مراتب الحب ... يقال : تيّمه الحب ، إذا عبّده . ومنه (تيم الله) أي (عبد الله) وحقيقة التعبد الذل والخضوع للمحبوب »[4] ودون ذلك مراتب يمر بها المبتدئون في الحب : أولها « العلاقة وسميت كذلك لتعلق المحب بالمحبوب »[5] .

---

(١) أسس علم النفس ، عبد العزيز القوصي ، ص ٢٢٧ (مرجع سابق) .

(٢،٣) الجواب الكافي ، ص ١٩٧ (مرجع سابق) .

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٠٣

(٥) المصدر السابق ، ص ١٩٨

المرتبة الثانية « الصبابة ، وسميت كذلك لانصباب القلب إلى المحبوب »[1] .

المرتبة الثالثة « الغرام وهو لزوم الحب للقلب لزوماً لا ينفك عنه »[2] .

الرابعة « العشق وهو إفراط المحبة ، ولهذا لا يوصف به الرب تعالى »[3] .

المرتبة الخامسة « الشوق : وهو سَفَر القلب إلى المحبوب أحَثّ السفر ، وقد جاء إطلاقه في حق الرب تعالى »[4] ، فمُحِبه دائماً في شوق إلى لقائه لما قال ﷺ في دعاء له : « وأسألك لذة النظر إلى وجهك ، وأسألك الشوق إلى لقائك .. »[5] .

السادسة والسابعة (التتيم) وقد سبق تعريفه ، « ثم الخلّة وهي تتضمن كمال المحبة ونهايتها فلا يبقى في القلب سعة لغير محبوبه »[6] .

فهذه الصفات الثلاثة التي تشترك فيها محبة الله وعشق الصور يمكن إرجاعها إلى صفتين : توحيد المحبوب ، وتتيم المحب أي تعبيده

(١، ٢، ٣) المرجع السابق ص ١٩٨

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٠٣

(٥) المرجع السابق ، ص١٩٨ وهو من حديث عمار بن ياسر وسيأتي نصه وتخريجه قريباً .

(٦) المرجع السابق ، ص ٢٠٦ والخلة هي المحبة التي تخلّلت أجزاء القلب .

للمحبوب ، وهي صفات لاتترك للمحب إلاّ خياراً واحداً « فليختر العبد إحدى المحبتين ، فإنهما لا يجتمعان في القلب ، ولا يرتفعان منه معاً ؛ بل من أعرض عن محبة الله وذكره والشوق إلى لقائه ، ابتلاه بمحبة غيره ، فيعذبه بها في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة ، فإما أن يعذبه بمحبة الأوثان ، أو بمحبة الصبيان ، أو المردان ، أو بمحبة النسوان ، أو محبة العشراء والخلاّن أو محبة مادون ذلك مما هو في غاية الحقارة والهوان ، فالإنسان عبد محبوبه كائناً من كان »[1] .

وهكذا يبلغ العلاج ، بهذا الأسلوب ، الذروة في تبصير (العاشق) وتعريفه حقيقة الداء الذي يعاني منه ، والدواء الذي لا دواء له سواه ، ويبقى الشق الثاني من العلاج وهو تربية قوة العزم والصبر وفي هذا يقول ابن القيم :

« الثاني قوة عزم وصبر يتمكن به من هذا الفعل والترك »[2] .

وقبل البحث في تربية العزم والصبر ينبغي أن نستكمل تبصير العاشق ، ببيان ميزات الحب الإلهي على عشق الصور ، فالمقارنة تقتضي بيان صفات التباين والتمايز إلى جانب بيان الصفات المشتركة ، لكي تنجلي الأمور وتتضح الأفضلية ويختار على بينة .

(١،٢) المرجع السابق ، ص ١٩٦

بعض ميزات الحب الإلهي :

تأتي هذه الميزات عند ابن القيم في إشارات عابرة من خلال البحث في مراتب الحب وأنواعه ، ويستطيع الباحث أن يستنبط منها الميزات التالية :

١ - **كمال الحب الإلهي وشرفه على غيره** وذلك أن حب الله والخضوع له هما حقيقة التعبد لله عز وجل « فالعبد هو الذي ذلّله الحب والخضوع لمحبوبه ، **ولهذا كانت أشرف أحوال العبد ومقاماته هي العبودية** ... والله سبحانه خلق الخلق لعبادته ، وحده لا شريك له ، **التي هي أكمل أنواع المحبة مع أكمل أنواع الخضوع** ، وهذا هو حقيقة الإسلام .. »[1] ثم جاء ابن القيم بالدليل إذ قال : « ولهذا كان أعظم الذنوب عند الله الشرك ، وأصل الشرك بالله الإشراك في المحبة ، كما قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشدّ حباً لله ﴾ [البقرة ١٦٥/٢] فأخبر سبحانه أن من الناس من يشرك به نداً يحبه كما يحب الله ، وأخبر أنّ الذين آمنوا أشدّ حباً لله من أصحاب الأنداد لأندادهم »[2] ولا يتم هذا الشرف والكمال إلا بإخلاص المحبة لله وحده وعدم الإشراك به في المحبة .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٠٣

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٠٤

ويفرق ابن القيم هنا بين الإشراك بالله في المحبة ، وبين أن تكون هناك محبة لله وفي الله إلى جانب محبة الله ؛ فالأول كمحبة المشركين لأوثانهم لنفس الأسباب التي يحبون الله بها كالألوهية والربوبية ؛ والثاني كمحبة بعض العباد من أجل إرضاء الله وفي سبيل تحقيق أوامره ومرضاته . قال ابن القيم :

(والمقصود أنّ حقيقة العبودية لا تحصل مع الإشراك بالله ، بخلاف المحبة لله ، فإنها من لوازم العبودية وموجباتها ، فإن محبة الرسول لا يتم الإيمان إلا بها ، إذ محبته من محبة الله ، وكذلك كل حب في الله ولله كما في الصحيحين عنه ﷺ :

« لا يجد حلاوة الإيمان إلاّ من كان فيه ثلاث خصال : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار » ..)[1] وأي حب أشرف من حب يجد صاحبه حلاوة الإيمان ويكون قلبه مع الله في ملكوت السماوات ؟! ويحبه أهل السماء

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٠٥ والحديث في البخاري بلفظ : « لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وحتى أن يُقذف في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله ، وحتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما » صحيح البخاري تحقيق د . م . د . البغا رقم ٥٦٩٤ ٢٢٤٦/٥ ن دار ابن كثير ، اليمامة ، دمشق ـ بيروت .

والأرض و يضع الله لـه القبول في الأرض ؟ ارتفـع بحبـه إلى الله ، فرفعه الله في أعين الناس ، ورضي عنه وأرضاه . على حين نجد عشاق الصور مفتونين بمعشوقهم يُنظَر إليهم نظرة ازدراء واحتقار ، لا يُقام لهم وزن في مجتمعهم ، بل يُـزرَى عليهم بضيـق الآفـاق وذل العشـاق ، لا يرون الدنيا والناس إلا من خلال امرأة معشوقـة ، أو مـال استغرق حبه شغاف قلوبهم فـأصبحوا يطلبونـه من حلٍ أو حرامٍ ، ويحـاربون من يحول بينهم وبينه أو نحو ذلك من أمور الدنيا ...

٢ ـ **استمرار الحب الإلهي في الدارين** فمُحِبُّه في الـدنيـا يعيش على رجاء لقاء الله والشوق إليه ، وفي الآخرة يزداد حباً بلقائه ولذة النظر إليه .

قـال ابن القيم : « وقـال بعض أهـل البصـائر في قـولـه تعـالى : ﴿ من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت ﴾ [العنكبوت ٢٩/٥] : لما علم الله سبحانه شدة شوق أوليائه إلى لقـائـه ، ضرب لهم أجلاً وموعـداً للقـائـه ، تسكن نفـوسهم بـه ، وأطيب العيش وألـذه عيش المحبين المشتاقين المستأنسين »[١] .

وقـال في مرتبـة الشوق : « .. وقـد جـاء إطلاقـه في حـق الرب تعالى ، كما في مسند الإمام أحمـد عن عمـار بن يـاسر : أنـه صلى صلاة

---

(١) الجواب الكافي ، ص ١٩٩ (مرجع سابق) .

فأوجز فيها ، فقيل له في ذلك ؟ فقال : أما إني دعوت بدعوات كان النبي عليه الصلاة والسلام يدعو بهن : اللهم إني أسألك بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق ، أحيني ما علمت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي .. (إلى أن قال) : وأسألك نعيماً لا ينفد وأسألك قرة عين لا تنقطع ... »[1] .

فمحبة الله نعيم لا ينفد وقرة عين لا تنقطع ؛ على حين نرى العشق البشري سرعان ما ينقطع في الدنيا قبل الآخرة ، بل ينقلب في الآخرة إلى عداوة ، إذ لم يكن مبنياً على تقوى الله وابتغاء مرضاته ، كما في قوله تعالى :

﴿ الأَخِلاَّءُ يومَئذٍ بَعضُهم لبَعضٍ عَدوٌّ إلاَّ المتقين ﴾ [الزخرف ٤٣/٦٧] .

٣ ـ الحب الإلهي يسمو بصاحبه إلى الفضائل ومكارم الأخلاق ، لأنه مرتبط باتباع رسول الله ﷺ الذي وصفه الله بقوله : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ [القلم ٦٨/٤] وقد اشترط الله على محبيه أن يتبعوا رسوله بقوله : ﴿ قُل إنْ كُنتُم تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعونِي يُحْبِبْكُم اللهُ ،

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٩٨ وهو في الجامع الصغير نقلاً عن سنن النسائي ومستدرك الحاكم بلفظ : « اللهم بعلمك الغيب ... » صحيح الجامع الصغير برقم ١٣١٢ (مرجع سابق) .

ويَغفِر لَكُم ذُنوبَكُم ﴾ [آل عمران ٣/٣١] فكافأهم على ذلك بمحبته جلّ جلاله وبتطهيرهم بالمغفرة والخلاص من الذنوب . ومن الأخلاق التي يطلبها المحبون من ربهم حتى يكون محبوبهم راضياً عنهم ، ماجاء في الدعاء النبوي السابق وهو قوله ﷺ :

« اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الحق[1] في الغضب والرضى ، وأسألك القصد في الفقر والغنى »[1] فهذا خلق العدل والاعتدال ، يسمو بالمحب سواء شهده الناس أم غابوا عنه ، لأن محبوبه يراه دائماً ، وكذلك الثبات على الحق سواء كان في مصلحته وبرضاه ، أم كان ضاراً ببعض مصالحه الدنيوية ، وسواء كان راضياً أم غاضباً . وكذلك الاقتصاد بالمال من غير إسراف ولا تقتير ، سواء كان غنياً أم فقيراً .

واتباع الرسول الذي اشترطه الله لتحقيق محبته يعني التطبيق الكامل للدين الإسلامي وهو المنهج الكامل لتحقيق السعادة في الدنيا والآخرة ، ولتنظيم الحياة وتوجيهها بكل جوانبها السياسية والاجتماعية والفكرية والعاطفية ، والسلوكية ، بما يحقق سعادة الأمة والفرد . فالحب الإلهي حب غني مثمر ، منتج لكل خير ، شامل في

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٩٨ وهو في الجامع الصغير بلفظ : « وأسألك كلمة الإخلاص في الرضا والغضب » صحيح الجامع الصغير برقم ١٣١٢ ، ٤١١/١ (مرجع سابق) .

إصلاحه كل جوانب الحياة ... لأن الله كامل يريد لمحبه أن يتوجه ـ ما استطاع ـ إلى تحقيق الكمال ، متبعاً بذلك رسوله الذي أرسله (ليتمم صالح الأخلاق)[1] ، فشرط المحبة الاتباع .

أما العاشق فإنه يتبع معشوقه ، وتتجه أخلاقه إلى ما يحقق له الوصول إليه ، أو الاستمتاع به ، فإن عشق امرأة ، أصبح تابعاً لها ، وهذا من أخلاق النساء ، وقد تصبح هي الرجل الآمر الناهي على قلبه . وإن عشق مالاً أصبح بخيلاً ، متهالكاً على الدنيا متفانياً في جمع المال ، يضن بالنفقة على نفسه وعياله . وأصبح عبداً لهذا المال كمن وصفه رسول الله ﷺ بقوله : « تعس عبد الدينار ، وعبد الدرهم ، وعبد الخميصة ، إن أُعطِي رضي ، وإن لم يُعطَ سخط » (رواه البخاري برقم ٢٧٣٠ ، ١٥٧/٣ كتاب الجهاد باب ٦٠)[2] .

والحب الإلهي لا يفتن الإنسان عن واجباته ومسؤولياته الاجتماعية ولا يضره ، بل يتطلب منه أداءها باعتدال وعلى أكمل وجه ، فقد نهى رسول الله ﷺ عبد الله بن عمرو عن مواصلة القيام

---

(١) كما في حديث : « إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق » رواه ابن سعد في الطبقات ، والبخاري في (الأدب المفرد) ، والحاكم في المستدرك ، والبيهقي في شعب الإيمان ـ كلهم عن أبي هريرة ـ ، كما في الجامع الصغير للسيوطي ، وصححه الألباني (انظر صحيح الجامع الصغير برقم ٢٣٤٥) ط المكتب الإسلامي ، بيروت .

(٢) صحيح البخاري (مرجع سابق) .

والصيام وقال له : « .. فإنك إذا فعلت ذلك هجمت عينك ، ونفهت نفسك ، وإن لنفسك عليك حقاً ، ولأهلك حقاً ، فصم وأفطر وقم ونم »[1] . وقال ﷺ في دعائه السابق : « وأسألك لذة النظر إلى وجهك ، وأسألكَ الشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مضلّة .. »[2] .

فطلب الرسول ﷺ في هذا الدعاء شوقاً إلى الله معتدلاً ، لا يضره فيهلك نفسه بالعبادة ، ولا يكون مصحوباً بضراء ، مضرة بزوجه وأهله وأولاده فيتركهم ويقطع علاقته بهم ؛ ولا يفتنه عن اتباع سنة نبيه ، ونشر دين الله ، وإقامة شريعته في حياته ومجتمعه كما فتن بعض الصوفية فظنوا أن حب الله يكون بالهياج وغياب العقل ورفع التكليف ...

٤ ـ **الحب الإلهي موصول من طرفيه** كما جاء في الأثر : « طال شوق الأبرار إلى لقائي ، وأنا إلى لقائهم أشد شوقاً »[3] وهذا هو المعنى الذي عبر عنه نبينا محمد ﷺ بقوله : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه »[4] وقال بعض أهل البصائر في قوله تعالى : ﴿ مَن كانَ يرجو

---

(١) المرجع السابق رقم ١١٠٢ ، ٣٨٧/١ ومعنى هجمت : غارت وضعفت . و (نفهت) : أعيت وكلّت .

(٢) الجواب الكافي ، ص ١٩٨ ـ ١٩٩ (مرجع سابق) .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٩٨ ـ ١٩٩

(٤) رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن عائشة (الجامع الصغير للسيوطي) انظر صحيح الجامع الصغير برقم ٥٨٤٠ (مرجع سابق) .

لقاءَ اللهِ فإنَّ أجَلَ اللهِ لآتٍ ﴾ [العنكبوت ٥/٢٩] : لَمّا علم الله سبحانه شدة شوق أوليائه إلى لقائه وأنّ قلوبهم لاتهتدي دون لقائه ، ضرب لهم أجلاً وموعداً للقائه تسكن نفوسهم به)[1] فهذا الحب مبني على الموافقة والإقبال من الطرفين كما قال ابن القيم في شرح حديث : « ماتقرَّبَ إليّ عبدي بمثل ماافترضت عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ... »[2] قال : (ولما حصلت هذه الموافقة من العبد لربه في مَحابّه ، حصلت موافقة الرب لعبده في حوائجه ومطالبه فقال : « ولئن سألني لأعطيّنه ، ولئن استعاذني لأُعيذَنَّه »[3] أي كما وافقني في مرادي بامتثال أوامري والتقرب إليّ بمحابّي ، فأنا أوافقه في رغبته ورهبته فيما يسألني أن أفعله به ، ويستعيذني أن يناله ؛ وقوي أمر هذه الموافقة من الجانبين حتى اقتضى ذلك تردّد الرب سبحانه في إماتة عبده ، لأنه يكره الموت ، والرب تعالى يكره مايكرهه عبده ويكره مساءته .. ولكن مصلحته في أن يميته ، فإنه ماأماته إلاّ ليحييه ، ولا أمرضه إلا ليُصِحّه ، ولا أفقره إلاّ ليغنيه ... ولم يخرجه من الجنة في صلب أبيه آدم إلا ليعيده إليها على أحسن أحواله ... فهذا هو الحبيب على الحقيقة لا سواه)[4] فلا يمكن أن تجد هذا الوفاء الدائم في

(١، ٢) المرجع السابق ، ص ١٩٩

(٣) من تمام الحديث السابق وسيأتي بنصه كاملاً .

(٤) الجواب الكافي ، ص ٢٠٢ (مرجع سابق) .

الدارين عند أيّ حبيب من البشر ، بل إن حب البشر قلما يكون إلا من طرف واحد كما قال الشاعر :

عُلِّقتُها عَرَضاً ، وعُلِّقَ قلبُها   غيري وعُلِّقَ أخرى غيرها الرجلُ

٥ ـ من الأثر النفسي لمحبة الله : قوة الشخصية فالحب الإلهي يجعل للإنسان شخصية قويّة متماسكة ، لأنه يجمع وظائفه النفسية همومه ورغباته وانفعالاته على أمر واحد ، ويوجه نشاطه العقلي نحو غاية واحدة ، كما قال ابن القيم في تفسير قوله تعالى : ﴿ فلنحيينّه حياة طيبة ﴾ [النحل ٩٧/١٦] :

(وأي حياة أطيب من حياة من اجتمعت همومه كلها وصارت هماً واحداً في مرضاة الله ؟ ولم يتشعب قلبه ، بل أقبل على الله ، واجتمعت إرادته وأفكاره ـ التي كانت متقسّمة ، بكل واد منها شعبة ـ على الله ، فصار ذكره لمحبوبه الأعلى وحبه والشوق إلى لقائه والأنس بقربه هو المستولي عليه ، وعليه تدور همومه وإرادته وقصوده بكل خطرات قلبه ، فإن سكت سكت لله ، وإن نطق نطق بالله ، وإن سمع فبه يسمع ... كما في صحيح البخاري عنه ﷺ فيما يروي عن ربه : « ماتقرب إليّ عبدي بمثل أداء ماافترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ؛ فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ، ورجله التي

يمشي بهـا ، فبي يسمع ، وبي يبصر ، وبي يبطش ، وبي يمشي ، ولئن سألني لأعطيَنّهَ ، ولئن استعاذني لأعيذَنّه ، وما ترددت في شيء أنا فاعله كترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن ، يكره الموت ، وأكره مساءته ، ولا بدّ له منه ! »)[1] .

ومما يزيد في قوّة شخصيّة المؤمن شعوره بأنه مع الله في كل أحواله كما قال ابن القيم في تفسير هذا الحديث : « فهذه الباء مفيدة لمعنى هذه المعيّة ... فمتى كان العبد بالله هانت عليه المشاقّ ، وانقلبت عنده المخاوف فأصبحت في حقه أماناً ؛ فبالله يهون كل صعب ، ويسهل كل عسير ، ويقرب كل بعيد ، وبالله تزول الهموم والغموم والأحزان ؛ فلا همّ مع الله ، ولا غمّ ولا حزن ... »[2] .

وهذا يؤيد ماسبق من التحليل والمقارنة بين حب الله ، والعاطفة السائدة . وكذلك بين تكوين هذا الحب وتكوين العاطفة في علم النفس المعاصر . كما أن هذا الحديث العظيم يحقق ماذهب إليه ابن القيم ، وهو أن استبدال حب الله بالعشق الدنيوي « يحتاج إلى

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٩٩ ولفظه في صحيح البخاري لأبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله قال : من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه وما يزال عبدي ... » صحيح البخاري برقم ٦١٣٧ (مرجع سابق) .

(٢) الجواب الكافي ، ص ٢٠٢ (مرجع سابق) .

أمرين : بصيرة صحيحة ... وقوة عزم وصبر ... »[1] وقد بحثنا الأمر الأول من كل جوانبه ، فلننتقل إلى الثاني .

٢ ـ **الأمر الثاني لتحقيق هذا العلاج : تربية العزم والصبر ،** فالعاشق بعد أن كوّن البصيرة بأهمية محبة الله وحاجته إليها وبضرر العشق الذي غرق فيه وأدرك هَوانَه ، وفناءه ، وانقطاعه وسائر مساوئه ؛ أصبح يحتاج إلى قوة عزم وصبر ، حتى يترك عشق الصُّوَر الفاني وينتقل بقلبه إلى حب الله الباقي السامي ، الشامل لكل خير .. وهذا العزم والصبر يتربى ، ويتربى معه حب الله ، بلزوم أداء الفرائض والعبادات لله عز وجل في جو اجتماعي شامل يضم كل من يحب الله ، فأحباب الله يجتمعون في الصلوات والْجُمع والجماعات ، ويجتمعون على الصوم وطاعة الله في قيام رمضان ، ويجتمعون في موسم الحج ملبين نداء حبيبهم : ﴿ وأذن في الناس بالحج .. ﴾[2] ، يناجونه لا يرجون إلا رضاه ؛ وهكذا يتربى حب الله بأداء ماافترض على عباده « ماتقرب إليّ عبدي بمثل ماافترضت عليه » وفي كل فريضة خبرة يكوّنها المحب عن حبيبه ، فيزداد لربّه حباً وإليه شوقاً كلما صلى وصام ، فيثار مع كل عبادة انفعال مناسب ؛ فيخشع القلب لذكر الله ، وتدمع العين خوفاً منه ، وتقشعرّ الجلود رهبة من عقابه

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٩٦

(٢) سورة الحج ٢٢/٢٧

﴿ ثم تلين جلودهم وقلوبهم لذكر الله ﴾[1] فهذه انفعالات وخبرات سارّة يمرّ بها المحبون ، ليصبح حب الله عندهم هو العاطفة السائدة على سائر العواطف ، وليكون الله ورسوله أحب إليهم مما سواهم ، ولا يحبون أحداً إلاّ لله وفي سبيل الله ، وليكون الكفر أبغض إليهم من أن يُلقَوا في النار ، إذ كيف يغضبون حبيبهم وقد عرفوا قدره وذاقوا لذة حبه ؟! ...

ويتربى هذا العزم والصبر تدريجياً كلما أدى المحب عبادة لله وهو يستحضر حب الله ويستحضر عظمته ، ويستشعر مشاعر الإعجاب بحكمته والدهشة والخضوع أمام مظاهر قدرته : أمام البحار العاتية ، والجبال العالية ، ومشاعر الامتنان والعرفان بالجميل أمام آثار رحمته : أمام كل أمٍّ حانية على أفراخها أو أولادها ، وكل ضرع يعطينا ﴿ من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ﴾ [النحل ٦٦/١٦] وكل سحابة تمطر بإذن ربها ، فيحيي الله بها الأرض بعد موتها ، وكل قطرة ماء يشربها على ظمأ ، أو لقمة طعام يأكلها على جوع ، فيحمد ربه عليها ...

فهذه المواقف وأمثالها كلها عبادات تكوّن خبرات تزيد حبنا لله وتربي فينا الصبر على ترك الأهواء والمعشوقات الدنيوية وعلى لزوم محبة الله وطاعته واتباع رسوله ...

(١) سورة الزمر ٢٣/٣٩

فما أعظم هذا الحديث القدسي : « مـاتقرب إليّ عبـدي بمثل أداء مـا افترضت عليـه . ولا يـزال عبـدي يتقرب إليّ بـالنـوافـل حتى أحبه .. »[1] .

ففيه إشارة إلى التدرج والتكرار ، وهو ضروري لتكوين الحب ، وفيـه الإمعـان والإغراق في محبـة الله ، وهـو التقرب بـالنـوافـل ؛ إذ لا تكـون النـوافـل إلا بعـد استكمـال جميـع الفرائض ، فـالمحب الـذي يستحق محبـة الله لا يكتفي بـأن يرفـع عن نفسـه غضب الله وعـذابـه بـالاستمرار على الفرائض ؛ بـل يطمـع بـالمـزيـد من إرضـاء محبـوبـه بالنوافل .

التحليل النفسي والتربوي

وهكـذا تقوم تربيـة عـاطفـة الحب وعلاجهـا عنـد ابن القيم على أمرين :

أولهما : توجيـه العقل لهـا وتبصير المحب بـأنواع الحب ودرجـاتـه وطبيعته ونتائجه وأنواعه ، ولهـذا حلّل ابن القيم الهوى المـذموم القـائم على عشق الصور ، إلى عناصره العقلية ، والانفعـاليـة تحليلاً قلمـا تجـد نظيره عند المربين وعلماء النفس في عصره ، وأهم هذه العناصر :

(١) المرجع السابق ، ص ١٩٩ وقد تقدم تخريج الحديث ولفظه في البخاري .

١ ـ انفعال الخوف والقلق ويتحول بالتكرار إلى استعداد وجداني ثابت ، فالعاشق كثير الخوف من مفارقة محبوبه أو عدم إرضائه أو هو شديد الخوف عليه ؛ وكل من هذه المخاوف يختلف طعمه الوجداني عن الآخر ، ولكنه كله خوف وقلق ينغص على الهاوي حياته ، ويسبب آلامه النفسية والوجدانية ؛ وقد أشار إلى ذلك بقوله : « وهو إما خوف مقلق ، أو حب مزعج »[١] .

٢ ـ التعلق والميل الجارف إلى المحبوب وانصباب القلب إليه . وقد جعله ابن القيم على درجات كما رأينا ورتبها بحسب تدرّجها . فمراتبها : العلاقة ، فالصبابة ، فالغرام ، فالعشق ، فالشوق ، فالتَّتْيِيم وكلها يجمعها الاندفاع نحو المحبوب اندفاعاً جارفاً لا يبالي بالنتائج ، بل يسخّر العقل وجميع الوظائف النفسية من غير تبصّر ، للوصول إلى موضوع الهوى وتحقيق المزيد من الاستمتاع به ، وقد عبّر عنها ابن القيّم بلفظ جامع بقوله : « أو حب مزعج »[٢] ، ويعني بالإزعاج ما يسببه العشق البشري من مَهانة بين الناس ، وما يتعرض له العاشق من سخرية المجتمع ، ومن الزلَلِ والطيش وخفة العقل ، والتسرّع والتهوّر ... وإن كان الهاوي لا يشعر بالإنزعاج من الناحية النفسية ؛ وأصل الإزعاج في اللغة الإقلاق ، وإزاحة المتمكّن من مكانه كإزعاج

(١) المرجع السابق ، ص ١٩٦

(٢) المرجع السابق ، ص ١٩٦

الطير عن أوكارها ، ففي مختار الصحاح (أزعجه : أقلقه وقَلَعه من مكانه)[1] ثم استعمل هنا مجازاً ليدل على اقتلاع العاشق من مكانته عند الله ومكانته الاجتماعية ، وإقلاقه وزعزعة كيانه المعنوي في مجتمعه ، بسبب مااستخفّه الهوى كما قال الشاعر :

صاحب الهوى تعِبُ   يستخِفّه الطربُ

٣ ـ انفعال الخضوع والذل ، ويتحول ، إذا استمر وتكرر ، إلى استعداد وجداني دائم للعبودية والتبعية للمحبوب ، كما رأينا في الفقرة الثالثة من صفات الحب والعشق عند المقارنة التي لخصناها عن ابن القيم إذ قال : « وخاصية التعبّد : الحب مع الخضوع والذل للمحبوب ، فمن أحب محبوباً وخضع له في كل شيء فقد تعبّد قلبه له »[2] فأرجع العبودية والتبعية للمحبوب إلى انفعالين انقلبا إلى عاطفتين وهما (الحب والخضوع) كما ترى ، وقد تكلمنا عن الحب في الفقرة الماضية وأما الخضوع فيرى بعض علماء النفس المعاصرين أنه « غريزة يصحبها انفعال الخنوع والشعور بالتبعية »[3] ، والسلوك

---

(١) محمد بن أبي بكر الرازي ، مختار الصحاح ، ص ٢٧١ ، ط دار الحكمة بدمشق ١٩٨٣ م .

(٢) الجواب الكافي ، ص ١٩٧ (مرجع سابق) .

(٣) عبد العزيز القوصي : أسس علم النفس ، ص ١١٩ ، الناشر : مكتبة النهضة المصرية الطبعة الأولى ١٩٥٠ م .

الغريزي المرافق لهذا كله هو الانقياد والطاعة المطلقة . والغاية من ذلك تغطية هذا الشعور بالتبعية والنقص ، بواسطة الانقياد للمتبوع انقياداً مصحوباً بإعجاب التابع « والإعجاب مزيج من انفعال التعجب (المرافق لغريزة الاستطلاع) وانفعال الخنوع »[1] .

٤ ـ استحسان الفكر وتسليطه على المحبوب ، قال ابن القيم في (الباب العاشر) من بعض كتبه (في ذكر حقيقة العشق وأوصافه ...)[2] :

« فالذي عليه الأطباء قاطبة : أنه مرض وسواسيّ ، شبيه بالماليخوليا يجلبه المرء إلى نفسه بتسليط فكره على استحسان بعض الصور والشمائل ، وسببه النفساني الاستحسان والفكر »[3] .

فكأنّ العشق ـ من الناحية العقلية ـ فكرة ثابتة تتوغل في أعماق النفس ويتردد صداها ، وتتولد عنها الصور والخيالات المضخّمة ، حتى تبلغ بصاحبها درجة (الهلْوَسة) أو (الوسواس) ومما يزيدها تمادياً ، ما يصاحبها من الهيجان العاطفي أو الانفعالي كما قال ابن القيم :

« وقال بعض الفلاسفة : العشق طمع يَتَوَلّد في القلب

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٣٣ ـ ١٣٤

(٣،٢) روضة المحبين ، ص ١٥٣ (مرجع سابق) .

ويتحرك ، وينَمى ، ثم يتربى .. وكلما قوي ازداد صاحبه في الاهتياج واللجاج والتمادي في الطمع ، والحرص على الطلب ، حتى يؤدّيه ذلك إلى الغم والقلق ... »[1] .

وللعشق تأثير سلبي على العقل فهو يعميه فلا يرى مساوئ المحبوب ، قال ابن القيم : « وقال أرسطاطاليس : العشق عمى الحس عن إدراك عيوب المحبوب »[2] ثم أورد قول الشاعر :

فلستُ بِراءٍ عيبَ ذي الودّ كلَّه ... ولا بعضَ مافيه إذا كنت راضيا
فعين الرضا عن كل عيب كليلة ... ولكن عين السخط تبدي المساويا[3]

أما تحليل الأمر الثاني الذي يقوم عليه علاج نفوس المحبين والعاشقين (وهو تربية العزم والصبر ، ليتمكن به المبتلَى من ترك عشق الصور ، والأخذ بمحبة الله) فقد بدأه ابن القيم بتشخيص حالة الضعف التي ابتُلِيَ بها العاشق فحالت دون حصوله على هذا العزم والصبر فقال : « الأمر الثاني : قوة عزم وصبر يتمكن به من هذا الفعل والترك .. فكثيراً ما يعرف الرجل قدر التفاوت »[4] بين حب

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٥٣

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٣ ـ ١٥٤

(٣) المرجع السابق ، ص ١٥٤

(٤) الجواب الكافي ، ص ١٩٦ (مرجع سابق) .

الله وعشق الصور ، « ولكن يأبَى لـه ضعفُ نفسـه وهمتِـه ، وعزيمتُـه على أشياء لا تنفع : من خسّته ، وحرصه ، ووضـاعـة نفسـه ، وخسـة همته »[1] .

ثم يحلّـل ابن القيم أسبـاب ضعف النفس المـؤدي إلى ضعف العـزم والصبر بقـولـه : « ولا يتم هـــذا ـ أي إيثـــار أعلى المحبـوبين ـ إلاّ بـأمرين : قـوة الإدراك ، وشجـاعـة القلب ... »[2] « فمن النـاس من يكون سلطان شهوته أقوى من سلطان عقله وإيمانـه ، فيقهر الغـالبُ الضعيفَ ... وإذا كان كثير من المرضى يحميـه الطبيب عمـــا يضره ، فتأبى عليه نفسه وشهوتـه إلاّ تنـاولـه ، ويقـدّم شهوتـه على عقلـه ... فهكـذا أكثر مرضى القلوب يؤثرون مـا يزيـد مرضهم ، لقـوة شهـوتهم له .

فأصل الشر من ضعف الإدراك وضعف النفس ودناءتهـا ، وأصل الخير من كمال الإدراك وقوة النفس وشجاعتهـا . فـالحب والإرادة أصل كل فعل ومبـدؤه ... ووجود الفعل الاختيـاري لا يكـون إلاّ بـوجـود سببه من الْحُبّ والإرادة .

وأما عـدم الفعل : فتـارة يكون لعـدم مقتضيـه وسببـه ، وتـارة

(١) المرجع السابق ، ص ١٩٦

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٠٧

يكون لوجود البغض والكراهة المانعة منه .. وهو الذي يسمى الكف ، وهو متعلَّقُ الثواب والعقاب »[1] .

المعطيات النفسية لهذا التحليل :

يستطيع الباحث ، بعد تمحيص هذا النص ، أن يخرج بالنتائج النفسية التالية :

١ً ـ أن قوة الإدراك شرط لازم لقوة العزم ولكنه ليس شرطاً كافياً وحده .

٢ً ـ أن شجاعة القلب وقوة النفس هما الشرط الثاني لحصول العزم والصبر .

٣ً ـ أن تغليب سلطان الشهوات على سلطان العقل السليم والإدراك الصحيح هو الذي يؤدي إلى ضعف النفس ودناءتها .

٤ً ـ أن ضعف النفس ودناءتها يجعلها مصدراً للشر ، وخاصة إذا أضيف إليه ضعف الإدراك . وأن قوة النفس وكمالها مع كمال الإدراك يجعلها مصدراً للخير ، وقد قدمنا كيف زوّد ابن القيم الإدراك بمفاضلة وافية عن الحب الإلهي وعشق الصور ، لينطلق في علاج مرضى العشق من هذا المنطلق العقلي الإدراكيّ .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٠٨

٥ً ـ أن من نتائج العزم ومقتضياتـه (وجود الفعل الاختيـاريّ) ومعنى الاختيار ترجيح سلطان أحد الطرفين : إما الدوافع الغريزيـة والشهـوات أو سلطـان العقـل والإدراك السليم ، فـإذا رُجّـح سلطـان العقـل السليم والإدراك الصحيـح صـحّ العـزم وظهرت نتـائـج الصبر واليقين بالعمل الخيّر ، وإلاّ كان الاختيار سيئاً يؤدي إلى الشر .

٦ً ـ أن للاختيـار مظهرين : مظهراً إيجـابيـاً هـو وجـود الفعـل الاختيـاري . ولـه سببـان : الحب (وقـد سبـق شرحـه وتحليلـه) والإرادة (بمعنى الرغبة) ؛ ومظهراً سلبيـاً وهو عـدم الفعل أو الكف : أي منع النفس عن شهوة أو رغبةِ معينة وله سببـان : البغض (عكس الحب) والكراهـة المـانعـة منـه ، وقـد أوردهـا ابن القيم في مقـابـل الإرادة ، فدل على أنه قصد بـالإرادة الرغبـة ، وقـد تـأتي الكراهـة في مقابل المحبة كما قال صاحب المختـار : « وكرّهت إليـه الشيء تكريهـاً : ضدّ حبّبته إليه »[1] .

النتائج التربوية :

ينتج عن المعطيات النفسية السابقة ، في مجال التربية ما يلي :

١ً ـ أن تربيـة العزم تقوم أولاً على تبصير العقل وتوعيـة الإدراك بالمعلومات والحقائق الصحيحة ، مؤيدة بالبرهان والحجـة ، معروضـة

(١) مختار الصحاح (مرجع سابق) .

بأسلوب شائق ، مصحوبةً بإثارة الحماسة والوجدان ، ليكون العزم مصحوباً بالمروءة وشجاعة القلب وشرف النفس وقد بينا كيف بصّرنا ابن القيم بشرف محبة الله عن طريق المقارنة والتحليل وعن طريق دراسة آيات الله ...

٢ً ـ ربط جميع أعمال الإنسان واختياراته بحبّ سام شريف يكون عليه مدار رغبات الإنسان ومكروهاته ، وقد بينا تطبيق ذلك على محبة الله ، ومحبة مايحبه ، وكراهية ما يكرهه . فإذا استمر الإنسان على ذلك وروّض نفسه على توجيه سلوكه ابتغاء مرضاة الله ؛ أصبحت محبته ورغباته وإرادته مصدراً لاختيار الأعمال الخيرة ؛ وأصبح بغضه وكراهته سبباً لمنعه من أعمال الشر ...

وبذلك تتربى عنده الإرادة الخيّرة وحسن الاختيار وقوة النفس وكمالها . وبذلك يقوى على كف نفسه عن الشهوات الدنيئة كراهية لها وإرضاءً لمحبوبه الأعلى ، فيسمو بنفسه عن مراتب الضعف والدناءة إلى مراتب القوة والكمال ، فإرادة الخير ، واختيار الأفعال الخيّرة وتحقيقها ، إنما يتم بتوفير أسبابها كما ذكرنا في الفقرة الأخيرة من المعطيات النفسية وهي الحب والرغبة .

٣ً ـ ترويض النفس وتعويدها على ماسبق ، وذلك بممارسة العبادات وقراءة القرآن ، والتفكّر في آيات الله ، والتفقه في دين الله

تفقهاً غايته العمل بشريعته ، إرضاءً له وحباً لما يحب ، واتقاءً لغضبه جلَّ جلاله .

فتوفير الأسباب النفسية من الحب والرغبة ، يجب أن يصحبه مباشرة العمل الذي يرضي المحبوب ، والمبادرة إلى الخيرات ، وكف النفس عن الشرور والأمور المحرمة التي تغضب الله .

ويجب أن يعتاد الإنسان على محاكمة الأمور أمام المواقف المستجدّة ، ليقيسها على مايحبه من الخير أو يكرهه من الشر ، اتباعاً لما يرضي الله ، وابتعاداً عما يغضبه .

الفصل الثاني

بعض مبادئ التربية العقليّة عند ابن القيم

تقوم هذه التربية على مبادئ هي من أهم المبادئ التربوية ومن أهمها :

المبدأ الأول : ترتّب النتائج على الشروط والأعمال اللازمة المؤدية إليها

أ ـ تعريفه :

بيّن ابن القيم هذا المبدأ بوجهيه السلبي والإيجابي وضرب له أمثلة وفيرة فقال معتمداً في بيانه على القرآن الكريم :

« وقد رتب الله سبحانه حصول الخيرات في الدنيا والآخرة وحصول الشرور في الدنيا والآخرة ، في كتابه ، على الأعمال ، ترتّب الجزاء على الشرط ، والمعلول على العلة ... ، وهذا في القرآن يزيد على ألف موضع .. كقوله تعالى : ﴿ فَلَمّا عَتَوا عَمّا نُهوا عَنْهُ ، قُلنا

لَهُم كونوا قِرَدَةً خاسِئينَ ﴾ [الأعراف ١٦٦/٧] وقوله : ﴿ والسّارِقُ والسّارِقَةُ فاقطَعُوا أيديَهُما جَزاءً بِما كَسَبا ﴾ [المائدة ٣٨/٥] »[1] .

فهذان مثالان على الوجه السلبي لهذا المبدأ ، فهما يدلان على أن الأعمال السلبية الشريرة لابدَّ لها من عقاب وجزاء مناسب ، أما الوجه الإيجابي فمثاله ماأورده ابن القيم من « قوله تعالى : ﴿ إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعدّ الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾ [الأحزاب ٣٥/٣٣] قال ابن القيم : وهذا كثير جداً ، وتارة يرتبه عليه بصيغة الشرط والجزاء ، كقوله تعالى : ﴿ إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم ﴾ [الأنفال ٢٩/٨] وقوله تعالى : ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فأخوانكم في الدين ﴾ [التوبة ١١/٩] وقوله : ﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءً غدقا ﴾ [الجن ١٦/٧٢] ونظائره »[2] فهذه أمثلة على الوجه الإيجابي لهذا المبدأ : ترتيب النتائج الخيرة على الأعمال الطيبة ، ويلخص ابن القيم هذا المبدأ بقوله : « وبالجملة ،

(١، ٢) الجواب الكافي ، ص ١٧ (مرجع سابق) .

فـالقرآن من أولـه إلى آخره صريـح في ترتّب الجـزاء بـالخير والشر والأحكام الكونية والأمرية على الأسباب والأعمال »[1] .

ب ـ أهمية هذا المبدأ ، وبعض فوائده وتطبيقاته :

قد يبدو لبعض النـاس أن هـذا المبـدأ من تحصيل الحـاصل وأنـه من البـداهـة بحيث لا يستحق التوسع والبحث ؛ إلا أنـه يشكل الركن الأساسيّ الذي يميز التربيـة المقصودة المنهجيـة ، عن التربيـة العشوائيـة غير المقصودة ولا المنظمة .

١ ـ فعلى هـذا المبـدأ يقوم تحقيق الأهـداف التربويـة الخيرة ، كما يقوم عليه استبعاد الأخطاء التربوية التي قد تودي بالأمم والأجيال إذ ينحرفون بها عن جادة الصواب ، ويبتعـدون عن تحقيق إنسـانيتهم أو أهداف أمتهم ، أو تحقيق سعـادة مجتمعهم ؛ فـالإنسـان مفطور على دفع الضرر العاجل أو الآجل ، واستبعـاده ، وعلى جلب النفع والسعـادة ، عاجلاً أو آجلاً . وترتيب الجزاء على الأعمال هو الـذي يشعر الأجيـال بـالمسؤوليـة فيستبعـدون الأخطـاء خـلال عمليـة التعلم ، أمـا التربيـة المنهجية فلا بدَّ لهـا من منهج مرسوم ، يخطـط لسلوك تربوي منظم ، يخضـع لشروط وظروف تربـويـة تهيـأ لتحقيـق الأهـداف والنتـائـج التربوية المنشودة . وكل هـذا يخضع لمبـدأ لزوم النتـائج التربويـة عن

(١) المرجع السابق ، ص ١٨

التنظيمات والأعمال المنهجية وعن مدى إخلاص المربين وجدّيتهم عند القيام بالعملية التربوية .. وقد أشار القرآن إلى تطبيق هذا المبدأ في مجال التربية ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ، وَقودها الناس والحجارة ﴾ [التحريم ٦/٦٦] أي ربوا أنفسكم وأهليكم تربية تقيكم غضب الله وعذابه ، تربية تقوم على العمل بأوامره وهديه ، وتجنب مانهى عنه وزجر .

يدل على ذلك أن ابن القيم أورد الآية دليلاً على « وجوب تأديب الأولاد وتعليمهم والعدل بينهم »[1] ثم أورد في ذلك أحاديث آخرها ماروواه البخاري عن ابن عمر « قال رسول الله ﷺ : كلكم مسؤول عن رعيته فالأمير راع على الناس ... والرجل راع على أهل بيته ، وامرأة الرجل راعية على بيت بعلها وولده ، وهي مسؤولة عنهم ... »[2] .

٢ ـ **تربية الشعور بالمسؤولية** : يدلنا ماسبق أن تربية الشعور بالمسؤولية نتيجةٌ عفوية لهذا المبدأ ، أو لتحكيمه في سلوك الإنسان ،

(١، ٢) تحفة المودود بأحكام المولود ، ص ١٣٣ ـ ١٣٤ ، لابن قيم الجوزية ، طبع على نفقة حاكم قطر في المطبعة الهندية العربية في بمباي ١٣٨٠ هـ / ١٩٦١ م والحديث في صحيح البخاري بلفظ : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » رقم ٨٣٥ (مرجع سابق) .

وهذا واضح أيضاً في ردّ ابن القيم على من زعم أن حسن الظن بالله مع الإصرار على معصيته كاف للنجاة من المسؤولية قال :

« وكيف يكون محسن الظن بربه من هو شارد عنه ، حالّ مرتحل في مساخطه ، متعرض للَعنَتِه ؟ ... وكيف يحسّن الظن بربه من بارزه بالمحاربة .. وأساء الظن بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ؟ وكيف يحسّن الظن بمن يظن أنه لا يتكلم ولا يأمر ولا ينهى ولا يرضى ولا يغضب ؟ وقد قال تعالى في حق من شك في تعلق سمعه تعالى ببعض الجزئيات ، وهي السرّ من القول : ﴿ وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ﴾ [فصّلت ٤١/٢٣] فهؤلاء لما ظنوا أن الله سبحانه لا يعلم كثيراً مما يعملون ، كان هذا إساءة لظنهم بربهم فأرداهم ذلك الظن ...

فتأمّل هذا الموضع وتأمل شدة الحاجة إليه ، وكيف يجتمع في قلب العبد تَيَقُّنه بأنه ملاقٍ الله ، وأن الله يسمع كلامه ويرى مكانه ، ويعلم سرّه وعلانيته ، **وأنه موقوف بين يديه ومسؤول عن كل ماعمل ، وهو مقيم على مساخطه مضيّع لأوامره ، معطل لحقوقه ؟** وهو مع هذا يحسن الظن به !؟ وهل هذا إلاّ من خداع النفوس وغرور الأماني ؟! »[1] ثم ذكر مثالاً من سلوك رسول الله ﷺ

(١) الجواب الكافي (مرجع سابق) ص ٢٣ ـ ٢٤ .

وشعوره بالمسؤولية ، وكان قد أَلَمَّ به مرض ، وكان عنده ستة دنانير فأمر عائشة أن تفرقها ، قالت : (فشغلني وجع رسول الله حتى عافاه الله ثم سألني عنها ... فقلت ... لقد كان شغلني وجعك ، فدعا بها فوضعها في كفه فقال : « ما ظن نبيّ الله لو لقي الله وهذه عنده ؟ »)[1] .

فهذا رسول الله ﷺ يضرب لنا المثل بخوفه من المسؤولية ليربينا على ذلك ، فهو يظن أن الله سائله عن كل درهم يبقى عنده بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى ، وقد اعتراه المرض فأسرع إلى توزيع ماعنده خوفاً من الله ، لذلك يعلق ابن القيم على هذا الموقف النبوي بقوله :

« فبالله ما ظن أصحاب الكبائر والظَّلَمة بالله ؟! إذا لقوه ومظالم العباد عندهم ؟ »[2] وماذا يجب أن يكون موقفهم ، إذا كان هذا هو موقف رسول الله الذي غفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر ؟

٣ ـ تربية السلوك وحسن العمل ، فالشعور بالمسؤولية ينتج عنه حسن العمل . كما قال ابن القيم : « ومن تأمل هذا الموضع حق التأمل ، علم أن حسن الظن بالله هو حسن العمل نفسه ، فإن العبد

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٤

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٤

إنما يحمله على حسن العمل حسن ظنه بربه : أنه يجازيه على أعماله ويثيبه عليها ويتقبلها منه .. »[1] فلا مجال للتواكل وترك العمل !

وهكذا يقوم الشعور بالمسؤولية على الإيمان الجازم بقانون الجزاء الربانيّ يوم القيامة وهو جزاء الإحسان بالإحسان ، وجزاء السيئة بسيئة مثلها ، كما نصّ على ذلك كلام الله عز وجل :

﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ ﴾ [الرحمن ٥٥/٦٠] .

﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ [الشورى ٤٢/٤٠] .

﴿ فَمَنْ يَعمَلْ مِثْقالَ ذَرّةٍ خَيراً يَرَهْ ☆ وَمَنْ يَعمَلْ مِثقالَ ذَرّةٍ شَرّاً يَرَهْ ﴾ [الزلزلة ٩٩/٧ـ٨] .

وهكذا أقيمت مصالح العباد ، ونظام المجتمع والحياة ، وتسابق الناس إلى الخيرات والأعمال الصالحة على هذا المبدأ الرباني الذي شرعه الله للعباد وأقام عليه أسس الحياة الإنسانية وأسس العدل والنجاة من الشرور .

٤ ـ تعليل سرّ الوجود وخلق الإنسان : يلاحظ أنّ ابن القيم علّل سر الوجود ، وخلْق الإنسان وابتلاءه بالحياة الدنيا وخلق الجنة

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٥

والنـار ... وإرسـال الرسل بهـذا المبـدأ فقـال ، بعـد ذكر استخـلاف الإنسان ، وتوريث الجنة لعباد الله الصالحين :

« فسرّ هذه الوجوه أنه سبحانه وتعالى سبق في حكمه وحكمته أن الغايات المطلوبة لاتنال إلاّ بأسبابها التي جعلهـا الله أسبـابـاً مفضيـة إليهـا . ومن تلـك الغـايـات أعلى أنـواع النعيم وأفضلهـا وأجلّهـا ، فلا تنال إلاّ بأسباب نصبَها مفضيةً إليهـا ، وإذا كانت الغـايـات التي هي دون ذلـك لاتنـال إلاّ بـأسبـابهـا ، مـع ضعفهـا وانقطـاعهـا ، كتحصيل المأكول والمشروب والملبوس والولد والمال والجاه في الدنيـا ؛ فكيف يُتوهم حصول أعلى الغايات وأشرف المقامـات بلا سبب يفضي إليه ؟

ولم يكن تحصيـل هـذه الأسبـاب إلا في دار المجـاهـدة والحرث ، فكان إسكان آدم وذرّيّته هذه الدار التي ينالون فيها الأسباب الموصلة إلى أعلى المقامات من إتمام إنعامه عليهم »[1] .

وهكـذا جعـل الله هـذا المبـدأ أسـاسـاً لإرسـال الرسـل وابتـلاء الإنسان وتكليفه ، فكان مبعث حيوية ، وديـنـاميكيـة دائبـة مستمرة

---

(1) مفتاح دار السعادة : محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية ، ص ١٠ ـ ١١ ، صححه وعلق عليه (محمود حسن ربيع) ، الطبعة الثانية ١٣٥٨ هـ / ١٩٣٩ م ، ن مكتبة الأزهر بمصر .

يتصف بها المسلم المتنور المرتبط في كل ظروفه وحياته الفردية والجماعية بهذا المبدأ ، فيجعل حياته وحياة المجتمع كلها جهاداً وسعياً نحو الأفضل ، نحو مرضاة الله وجناته في دار الخلود ، مادامت هذه النتائج لاتنال إلا بالجهاد والعمل الصالح المؤدي إلى رقي المجتمع ، وتحقيق حضارة الأمة ، وتميّزها بأنها حضارة ربّانية ـ إنسانية ؛ لا عنصرية فيها ولا ظلم ولا بغي ولا فساد ؛ فكان لهذا المبدأ فضل تربية السلوك الحضاري القويم .

٥ ـ تقوم على هذا المبدأ تربية العقل على التفكير الصحيح ، كما اعترفت بذلك التربية الحديثة : « إن التفكير هو محاولة قصديّة لاكتشاف روابط معيّنة بين مانعمله والنتائج التي تترتب عليه ، بحيث يطّرد الاثنان معاً »[١] فلا تتخلف النتائج عن الأسباب ، ولا تأتي النتائج مغايرة أو معاكسة للأسباب ، ولا تحصل النتائج من غير أسبابها . لأن بين كل من النتائج والأسباب روابط قوية يدركها العقل ، بما فطر الله عليه الإنسان من القدرة على التفكير ، فيفهم النتائج بفهم أسبابها وفهم مابينها من ارتباط « فتغدو الحوادث مفهومة قابلة للتفسير ، ويصبح حدوثها على هذا النحو معقولاً »[٢] أي مستساغاً للعقل البشري ، يستطيع وعْيه واستيعابه .

(١، ٢) جون ديوي : الديمقراطية والتربية ، ص ١٥١ ـ ١٥٢ ، ترجمة : متّى عقراوي ، زكريا ميخائيل ، ط . القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٦ م .

وقد وصف ابن القيم هذه الروابط ، مبيناً قوتها وأهميتها ، أحسن وصف ، حين مثل لها بـ (ترتّب الجزاء على الشرط ، والمعلول على العلة والمُسَبَّب على السبب)[1] كما بيّن اهتمام القرآن بتربية العقل على إدراك هذه الروابط حين لخّص هذا المبدأ ـ كما رأينا ـ بقوله :

« وبالجملة ، فالقرآن من أوله إلى آخره صريح في ترتّب الجزاء بالخير والشر ، وترتّب الأحكام الكونية والأمرية على الأسباب والأعمال »[2] .

وأقام ابن القيّم مبدأه الأخلاقي على أساس هذا المبدأ العقلي ؛ فأكّد قيام الخير بكل مفاهيمه وأشكاله على الأعمال التي تقرب إلى الله ، والعكس على العكس فقال : « وقد دلّ العقل والنقل والفطرة وتجارب الأمم ، على اختلاف أجناسها ومللها ونحلها ، على أن التقرّب إلى ربّ العالمين ، وطلب مرضاته ، والبر والإحسان إلى خلقه من أعظم الأسباب الجالبة لكل خير ، وأضدادها من أكبر الأسباب الجالبة لكل شر »[3] .

---

(١) الجواب الكافي ، ص ١٧ (مرجع سابق) .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٨

(٣) الجواب الكافي ، ص ١٧ (مرجع سابق) .

٦ ـ **كذلك يربي هذا المبدأ العقل على الاهتمام بالنتائج** ، إذ لم يكتف ابن القيم بتربية العقل على إدراك الروابط بين الأعمال ونتائجها ، لتفسير الأعمال والنتائج على ضوئها ؛ بل حرص على إثارة الاهتمام وتربية الوجدان على الحماسة ، للنتائج التي تسفر عنها عمليات التفكير وإدراك الروابط بين المقدمات ونتائجها ؛ ليربي في الإنسان الحرص على العمل لتحقيق النتائج الخيرة ، واستبعاد النتائج الشريرة . فلا يكفي في نظر التربية أن نربي الناشئ على إدراك الخير والشر والأسباب المؤدية إليهما ، بل لا بدَّ أن يُصحب هذا الإدراك بالانفعالات والعواطف المؤدية إلى محبة الخير والسعي إلى تحقيقه ، وإلى كراهية الشرّ والعمل على تجنّبه ، وإلاّ لم يكن عملنا تربوياً .

ولذلك ربط ابن القيم هذا المبدأ العقلي بالعقوبة الأخروية وبعقيدة القضاء والقدر حين قال : « ... وهكذا من وفّقه الله وألهمه رشده يدفع قدر العقوبة الأخروية بقدر التوبة والإيمان والأعمال الصالحة .. »[1] .

كما ربط بين سعادة الإنسان وبين الأخذ بأسباب تحقيق الخير وأسباب استبعاد الشرّ حين قال : « لكن يبقى عليه أمران بهما تتم سعادته وفلاحه : أحدهما : أن يعرف تفاصيل أسباب الشر والخير ... »[2] . وقد سبق ابن القيم إلى هذا علماء التربية المعاصرين

(١، ٢) المرجع السابق ، ص ١٩

الذين قال أحد مشاهيرهم : « إن التفكير معناه الاهتمام بالعواقب ، أي إشراك أنفسنا ومصيرنا في هذا الاهتمام إشراكاً ملؤه العطف .. أما الذي لا يحفل إطلاقاً بالنتيجة فإنه لا يتتبّع أو يفكر البَتَّةَ في النتائج .. »[1] فابن القيم عبَّر عن هذا المعنى بوضوح فقال : « وخاصة العقل النظر في العواقب ، فأعقل الناس من آثر لذته الآجلة الدائمة ، على العاجلة المنقضية الزائلة .. »[2] .

٧ ـ **وهذا المبدأ خير حافز على البحث وإغناء العقل ، بطلب** المعرفة ، والتبصير في حوادث التاريخ ومجريات الأمور ، كما قال ابن القيم لمن يريد الانتفاع بهذا المبدأ :

« لكن يبقى عليه أمران بهما تتم سعادته وفلاحه :

أحدهما أن يعرف تفاصيل أسباب الشر والخير ، وتكون له بصيرة في ذلك ، بما يشاهده في العالم ، وما جربه في نفسه وغيره ، وما سمعه في أخبار الأمم قديماً وحديثاً .

ومن أنفع ما في ذلك : تدبر القرآن ، فإنه كفيل بذلك على أكمل الوجوه ، وفيه أسباب الخير والشر جميعاً مفصلة مبينة . ثم السنة ، فإنها شقيقة القرآن وهي الوحي الثاني .. وهما يريانك الخير والشر

---

(١) جون ديوي : الديمقراطية والتربية ، ص ١٥٣ (مرجع سابق) .

(٢) الجواب الكافي ، ص ٢٠٩ (مرجع سابق) .

وأسبابها حتى كأنك تعاين ذلك عياناً . وبعد ذلك إذا تأملت أخبار الأمم ، وأيام الله في أهل طاعته وأهل معصيته ، طابق ذلك ماعلمته من القرآن والسنة ، ورأيته بتفاصيل ماأخبر الله به ووعد به ؛ وعلمت من آياته في الآفاق مايدلك على أن القرآن حق ، وأن الرسول حق ، وأن الله ينجز وعده لا محالة ، فالتاريخ تفصيل لجزئيات ماعرّفنا الله ورسوله من الأسباب الكلية للخير والشر »[1] .

فمن أجل تحقيق هذا المبدأ ، يحض ابن القيم على تكوين خبرات عن مشاهدات الإنسان وتجاربه (وتكون له بصيرة في ذلك بما يشاهده في العالم وما جربه في نفسه وغيره) كما يحُضّ على دراسة التاريخ وأخبار الأمم (وما سمعه في أخبار الأمم قديماً وحديثاً) ويحضّ كذلك على (تدبّر القرآن) وكل ذلك بقصد (أن يعرف تفاصيل أسباب الخير) فيأخذ بها (وأسباب الشر) فيبتعد عنها ، من أجل أن تتم سعادته ..

وهكذا يسخّر ابن القيم ثقافة الإنسان ومعظم نشاطه العقلي في اكتساب المعرفة والخبرة ، من أجل التطلّع إلى العواقب والنتائج الخيّرة والأخذ بالأسباب المؤدية إلى تحصيلها ، ومن أجل معرفة العواقب الشريرة والأخذ بالأسباب المبعدة عنها ، وبذلك يربى العقل

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٩

على الربط بين النتائج والأسباب في كل ما يستفيد الإنسان من خبرات وثقافة ، ويوجهه نحو الأخذ بأسباب الخير والبعد عن أسباب الشر . ولكنه لا يكتفي بهذا القدر من التربية العقلية الواعية القويمة ، بل يتتبع أهم الأخطاء الشائعة في عصره ، أعني الأخطاء الفكرية التي تمنع العقل من الاستقامة على التقيّد بارتباط النتائج بأسبابها وبالأعمال المؤدية إليها ؛ وكذلك الأخطاء الاجتماعية والاعتقادية الشائعة التي تحول دون هذا التفكير السليم ، فيفنّدها واحدة واحدة . وهي موزعة في جميع كتبه وقد أوضحنا منها ما استرعى انتباهنا ، ووجدنا أنه أكثر شيوعاً وأهمية . فلْنتابع فيما يلي فوائد هذا المبدأ التربوية ، فإن من أهم فوائده تصحيح هذه الأخطاء .

٨ ـ كذلك يؤدي تحقيق هذا المبدأ إلى التخلص من المخادعة والمغالطات المنافية له : وهي من الأمور التي انتشرت في عصور الانحطاط الإسلامي ، فأدت إلى التواكل ، والإصرار على المعاصي ، وترك الجهاد ، وخنوع الهمة ، والعزوف عن معالي الأمور وعن مجاهدة النفس وعن تزكيتها والتسامي بها ...

ومن مظاهر مخادعة النفس التي اجتثّها هذا المبدأ :

أ ـ الاحتجاج بالقدر ، وادّعاء أن السعي والجدّ لا يدفعان

القـدر . وقـد قـال ابن القيّم بعـد تلخيص هـذا المبـدأ (مبـدأ ترتيب النتائج والجزاء على الأعمال) :

« ومن تفقه هذه المسـألـة وتـأملهـا حق التـأمل انتفع بها غـايـة النفع ، ولم يتّكل على القـدر جهلاً منـه وعجزاً وتفريطـاً وإضـاعـة ، فيكون توكّلـه عجزاً ، وعجزه توكلاً .. والفقيـه الفطن هو الـذي يردّ القدر بالقدر ، ويدفع القدر بالقدر ، ويعـارض القـدر بـالقـدر ، بل لا يمكن لإنسان أن يعيش إلا بـذلـك ، فـإن الجوع والعطش والبرد ، وأنواع المخاوف والمحـاذير هي من القـدر ، والخلق كلهم سـاعون في دفع هذا القدر بالقدر »[1] ، فهم يدفعون قـدر الجوع مثلاً بمـا قُـدّر لهم من السعي في طلب الرزق ، « وهكذا من وفقـه الله وألهمـه رشـده يـدفع قدر العقوبة الأخروية ، بقدر التوبة والإيمان والأعمال الصالحة ، فهذا وذاك سواء .

فَرَبٌّ الدارين واحد ، وحكمته واحدة ، لا ينـاقض بعضهـا بعضـاً ولا يبطل بعضها بعضاً »[2] .

وهكذا يعالج ابن القيّم ـ بهذا المبـدأ العقلي التربوي ـ أكبر مرض نفسيّ ـ اعتقـادي ، استشرى في المسلمين ، ويـدفـع عنهم أضراره التي

(١، ٢) الجواب الكافي ، ص ١٨ ـ ١٩

أنهكت مجتمعهم ، وصـــدتهم عن الطـــاعـــات ، وعن جهـــاد النفس وإصلاحها ، وتركتهم نهباً للعجز والكسل .

ب ـ وإذا طبق هـذا المبـدأ ـ بشمـول لا استثنـاء معـه واطّراد لا انقطاع فيه ـ أدّى إلى التخلص من مخادعة النفس بالغرور النـاتج عن التعصب العرقيّ أو الطـائفيّ أو القبليّ ، أو التّعصب لـلآبـاء والحميّة لهم أو الفخار بهم ... وكان هذا التعصّب قد ظهر وانتشر عنـد المشركين والمنحرفين من أهـل الكتـاب قبـل الإسـلام ، كمثـل المشرك الذي يكفر باليوم الآخر اغتراراً بماله وولده وعصبته ، مع ذلك فـإنـه يقـول : ﴿ وَلَئِن رُّجِعتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنـدَهُ لَلْحُسْنَى ﴾ [فصّلت ٤١/٥٠] .

وكما يَغْتَرُّ المنحرفـون من أهـل الكتـاب بملّتهم وطـائفيّتهم المتميزة عنـد الله في زَعمهم كما قـال الله تعـالى : ﴿ وقـالُـوا نَحنُ أبنـاءُ اللهِ وأحِبّاؤهُ ﴾ [المائدة ٥/١٨] ، فـأجـابهم الله تعـالى مشيراً إلى هـذا المبـدأ ﴿ قُـلْ فَلِمَ يُعَـذِّبُكم بِـذُنُـوبِكُمْ ؟ بَـل أنتُم بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَـقَ ﴾ [المائدة ٥/١٨] ؛ فأنتم معـذبون يوم القيـامـة بـذنوبكم ، بنص كتـابكم ، ولكل ذنب عـذاب يستحقـه ؛ فليس عنـد الله مقرّبـون ، ولا أبنـاء يستثنيهم من مبدأ ترتّب الجزاء على العمل .

أمـا ذلـك المشرك المغرور فقـد ردّ الله عليـه في تتمـة الآيـة :

﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّـذِينَ كَفَرُوا بِمَـا عَمِلُوا وَلَنُـذِيقَنَّهُم مِن عَـذابٍ غَلِيـظٍ ﴾ [فصّلت ٤١/٥٠] ، أي ليس لهم عنـد الله إلا جـزاء عملهم وهـو عـذاب جهنم ، نتيجةً لازمةً لكفرهم بالله وشركهم ...

ومما يروى في أسباب النزول استدراج المشركين وأهل الكتاب لبعض المسلمين إلى الخوض والتفاخر معهم في حمأة الغرور بالملّة ، وذلك حين « جلس ناس من اليهود ، وناس من النصارى ، وناس من المسلمين فقال هؤلاء : نحن أفضل ، وقال هؤلاء : نحن أفضل فنزل قوله تعالى : ﴿ لَيسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أهلِ الكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجزَ بِهِ ﴾ [النساء ٤/١٢٣] ، أخرجه ابن جرير الطبريّ عن قتادة والضّحّاك والسُّدّيّ وأبي صالح »[1] ، فعمم الله هذا المبدأ ، مُرتّباً الجزاء على العمل في كل الملل والأمم ، من غير محاباة ولا استثناء ، وعلى أساس هذا المبدأ يحشر الناس يوم القيامة ليحاسبوا وينالوا جزاء أعمالهم ، إلا أن بعض المسلمين تسربت إليهم فيا بعد هذه الفكرة الجاهلية ، الاغترار بالآباء ، ولكن على شكل آخر ، فظنوا أن صلاح آبائهم سيشفع لهم عند الله . وقد أشار إليهم ابن القيّم بقوله :

« ومنهم من يغتر بآبائه وأسلافه ، وأنّ لهم عند الله مكاناً

(١) أسباب النزول لجلال الدين السيوطي بهامش المصحف ، بذيل تفسير الجلالين ، ص ٢٦٦ ، ط . دار المعرفة ـ بيروت .

وصلاحاً ، فلا يَدعوه أن يخلّصوه ، كما يشاهد في حضرة الملوك ، فإنّ الملوك تَهَب[1] لخواصّهم ذنوب أبنائهم وأقاربهم ؛ وإذا وقع أحد منهم في أمر مفظع خلصه أبوه وجدّه بجاهه ومنزلته ! »[2] .

وقد نسي هؤلاء قوله تعالى : ﴿ أمْ لَمْ يُنَبّأ بِما فِي صُحُفِ مُوسَى ، وإبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ، ألاّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ، وأنْ لَيسَ للإنسانِ إلاّ ماسَعَى ، وأنّ سَعيَهُ سَوفَ يُرى ، ثُمَّ يُجزاهُ الْجَزاءَ الأوْفَى ؟! ﴾ [النجم ٥٢/٣٦ - ٤١] . فالسعي في الشّر لابدّ أن يأخذ عقوبته وجزاءه الأوفى عند الله ، إلا إذا تاب عنه صاحبه ، والله تعالى منزّه عن محاباة أي مجرم مهما بلغ صلاح أبيه ! ولو فعل هذا أحد ملوك الدنيا لكان ظالماً في ميزان الشرع فكيف ينسب إلى أحكم الحاكمين ؟!

وهكذا يطبق هذا المبدأ على جميع البشر وفقاً لشريعة الله الواردة في صحف إبراهيم وموسى ومحمد ﷺ ، يطبق بعدالة ونزاهة لاتشوبها شائبة ، فلا يبقى ، مع تطبيقه ، مطمع لمنحرف ، ولا مجال لمغرور ، ولا مكان لمجرم أو لمتبع هوى ، يتعلل بِحَسَب

---

(١) من قولك (وهبت لك ذنب فلان) أي جعلته في شفاعتك تفعل به ماتشاء .

(٢) الجواب الكافي ، ص ٢١ ، (مرجع سابق) .

أو نَسَب ، لينجو بذنوبه وجرائمه من عواقبها المحتومة عند ربِّ العالمين ، يوم يُجازَى الناسُ بأعمالهم جزاءً وفاقا ...

وَبِاطِّراد هذا المبدأ وشموله يربِّي القرآن العقل على وحدة التفكير وشموليته واستمراريته ، أي على الاحتفاظ بهويته ، وعلى استبعاد التناقض ، أي على التفكير العلمي المنطقي المستقيم الثابت على المبدأ الصحيح .

جـ ـ ومن مظاهر تطبيق هذا المبدأ ، استبعاد التناقض الفكري الناشئ عن المغالطة وعن مخادعة النفس بالاتّكال على عفو الله ومغفرته ، **وسوء فهم النصوص في ذلك : قال ابن القيّم : « ... فإن العبد يعرف أن المعصية والغفلة من الأسباب المضرة له في دنياه وآخرته ، ولكن تغالطه نفسه بالاتّكال على عفو الله ومغفرته تارة ، وبالتسويف بالتوبة ، وبالاستغفار باللسان تارة .. وكثير من الناس يظن أنه لوفعل مافعل ثم قال : أستغفر الله زال الذنب وراح هذا بهذا »[1] ، ولم يدر أن للاستغفار والتوبة شروطاً أهمها الندم والإقلاع عن الذنب وكراهية العودة إليه ، وإحلال العمل الصالح محله ، ليكون سبب النجاة من عذاب الله .**

(١) الجواب الكافي ، ص ١٩ ـ ٢٠ ، (مرجع سابق) .

ثم يضرب ابن القيّم أمثلة من هذه المغالطات ومنها « اتّكال بعضهم على قوله تبارك وتعالى : ﴿ إنّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنوبَ جَمِيعاً ﴾ [الزمر ٥٣/٣٩] ، وهذا أيضاً من أقبح الجهل ، فإن الشرك داخل في هذه الآية فإنه رأس الذنوب وأساسها ؛ ولا خلاف أن هذه الآية في حق التائبين ، فإنه يغفر ذنب كل تائب من أي ذنب كان . ولو كانت الآية في حق غير التائبين لبطلت نصوص الوعيد كلها .. »[١] ، ومنها « اتّكال بعضهم على قوله ﷺ ، حاكياً عن ربّه : « أنا عند حسن ظن عبدي بي فليظن بي ماشاء » يعني ما كان في ظنه فإني فاعله به . ولا ريب أن حسن الظن إنما يكون مع الإحسان وفعل الطاعات ، فحسن ظن العبد بربه معناه هنا اعتقاده : أن الله يجازيه على إحسانه ولا يخلف وعده ؛ بل يقبل توبته . وأما المسيء المصرّ على الكبائر والظلم والمخالفات ، فإن وحشة المعاصي والظلم والحرام تمنعه من حسن الظن بربّه ... فإن العبد الآبق المسيء الخارج عن طاعة سيّده لا يحسن الظن به .. كما قال الحسن البصري : إن المؤمن أحسن الظن بربّه فأحسن العمل . وإن الفاجر أساء الظن بربّه فأساء العمل »[٢] .

وهكذا يربط ابن القيّم حسن الظن بأصل هذا المبدأ ، إذ يقرّر

---

(١) الجواب الكافي ، ص ٢١ ، (مرجع سابق) .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٣

وجوب ارتباط النتائج المرجوّة من حسن الظن ، بالأعمال المؤدّية إليه وإلى عفو الله وجنته . ويلخص ذلك بقوله :

« وبالجملة فحسن الظنّ إنما يكون مع انعقاد أسباب النجاة ، وأما مع انعقاد أسباب الهلاك فلا يتأتّى إحسان الظنّ »[1] .

فابن القيّم حريص على أن يستبعد سَلَفاً كل الحيل النفسية التي تحول دون استقامة التفكير واطّراده على هذا المبدأ ، لئلا يقع العقل في مرض التناقض الفكري ، أو يقع الإنسان في مرض التقاعس عن مواكبة العقل المستنير في تطبيق ما يأمر به أو يستلزمه من نتائج ، فيناقض سلوكه عقيدته وتفكيره ، ويتعرّض للصراعات النفسية ، ويأخذ بالأسباب المؤدية إلى عكس النتائج المطلوبة ، مع أن تربية العقل والتفكير السليم تقتضي الاهتمام بالعواقب والنتائج من أجل تهيئة الظروف والأسباب المناسبة لها ، كما نرى ذلك فيما توصل إليه علماء التربية المعاصرون ، وقد قال أحدهم في ذلك :

« إننا إذا عرفنا بالتفصيل ماتتوقف عليه النتيجة ، استطعنا أن نشخص بأبصارنا إلى الظروف التي نطلبها ... فإذا كانت بعض الظروف مفقودة عملنا على إيجادها . كما أنه إذا كان من شأن الظروف

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٥

أن تُسْلمنا إلى بعض النتائج الوبيلة ، أمكننا أن نسقط الأسباب المضرّة ، وأن نوفر بذلك جهودنا »[1] ، وبهذا يكون « التفكير : معناه الاهتمام بالعواقب »[2] ، لأن هذا الاهتمام يقتضي الاهتمام بسائر عناصر التفكير ، كالاهتمام بالروابط والأسباب ، وبصحتها ، لكنّا نجد ابن القيّم يهتم بالأسباب ويردّ على منكريها ، وقد سبق المفكرين المعاصرين إلى ذلك ، كما يتضح ذلك أيضاً في المبدأ التالي .

المبدأ الثاني في التربية العقلية : (مبدأ السّببية أو التأثير السّببيّ)

ويلزم هذا المبدأ عن المبدأ الأول الذي حلّلناه آنفاً ، فما دامت النتائج مترتبة على الأعمال ، فالأعمال أسباب لهذه النتائج ، « والغايات لا تنال إلاّ بأسبابها التي جعلها الله أسباباً مفضية إليها »[3] ، لكن بعض الذين احتجوا بالقدر أصبحوا نهباً للتناقض ؛ بإنكار أهم المبادئ التي أقام الله عليها الأكوان والحوادث الطبيعية ، وهو ـ كما يسميه ابن القيّم ـ مبدأ (التأثير السّببي) حتى زعموا أن كل ما نراه سبباً لشيء آخر ، ليس إلاّ علامة على حصول ذلك الشيء الآخر .. قال ابن القيّم شارحاً رأيهم في ذلك : « وقالت طائفة

(١، ٢) جون ديوي ـ الديمقراطية والتربية ، ص ١٥٠ ـ ١٥١ ، (مرجع سابق) .

(٣) مفتاح دار السعادة ، ص ١١ ، (مرجع سابق) .

أخرى ... بل الدعاء علامة مجردة نصبها الله تعالى أمارة على قضاء الحاجة .. وهذا كما إذا رأيت غيماً أسود بارداً في زمن الشتاء ، فإن ذلك دليل وعلامة على أنه يمطر . قالوا : وهكذا حكم الطاعات مع الثواب ، والكفر والمعاصي مع العقاب ، هي إمارات محضة لوقوع الثواب والعقاب ، لاأنها أسباب له !..

وهكذا عندهم الكسر مع الانكسار ، والحرق مع الاحتراق ، والإزهاق مع القتل ، ليس شيء من ذلك سبباً البتة ، ولا ارتباط بينه وبين ما يترتب عليه إلا مجرد الاقتران العادي ! **لا التأثير السّبي** »[1] .

ثم انتقدهم ابن القيّم مقرّراً مبدأ (التأثير السّببي) موضحاً أدلته في الشرع والحس والعقل فقال : « وخالفوا بذلك الحس والعقل ، والشرع والفطرة ، وسائر طوائف العقلاء ، بل أضحكوا عليهم العقلاء ..!

والصواب أن ها هنا قسماً ثالثاً ، غير ماذكره السائل . وهو أن هذا المقدور قدّر بأسباب ، ومن أسبابه الدعاء . فلم يقدر مجرداً عن سببه ، ولكن قدر بسببه ، فمتى أتى العبد بالسبب وقع المقدور ، ومتى لم يأت بالسبب انتفى المقدور ، وهذا كما قُدّر الشبع والرّي بالأكل

(١) الجواب الكافي ، ص ١٥ ، (مرجع سابق) .

والشرب ، وقدر الولد بالوطء ، وقَدّر حصول الزرع بالبذر ... وكذلك قُدّر دخول الجنة بالأعمال ، ودخول النار بالأعمال ...

وحينئذٍ ، فالدعاء من أقوى الأسباب ، فإذا قدر وقوع المدعّو به بالدعاء ، لم يصح أن يقال لافائدة في الدعاء ، كما لا يقال لافائدة في الأكل والشرب »[1] .

ويطّرد مبدأ السببيّة هذا عند ابن القيّم في جميع الأمور الشرعية والْخَلْقيّة ، حتى في أمر الوراثة البيولوجية التي ينتج عنها شبه الولد بأمه أو بأبيه ، وفيما قدر الله على الجنين منذ نَفْخِ روحه وفي هذا يقول ابن القيّم :

« ... فإن الله سبحانه قدّر ما قدّره من أمر النطفة من حين وضعها في الرحم إلى آخر أحوالها بأسباب ، حتى الشقاوة والسعادة والرزق والأجل والمصيبة ، كل ذلك بأسباب قدّرها ... »[2] ، وكذلك الذكورة والأنوثة .

والإيمان بقدر الله ومشيئته لا ينافي مبدأ السّببية ، بل هما متلازمان أو متوازيان يطّردان جنباً إلى جنب . فكل نتيجة

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٦

(٢) تحفة المودود بأحكام المولود ، ص ١٦٨ ، ط . على نفقة حاكم قطر علي بن عبد الله آل ثاني بالمطبعة الهندية العربية ١٣٨٠ هـ - ١٩٦١ م .

أو ظاهرة قدّرها الله قدّر معها أسبابها ، وكل سبب قدّره الله قدّر معه النتائج التي تترتب عليه كما قال ابن القيّم :

« فاستناد الإذكار والإيناث إلى مشيئته سبحانه لا ينافي حصول السبب ، وكونها بسبب لا ينافي استنادهما إلى المشيئة ، ولا يوجب الاكتفاء بالسبب وحده »[1] . ويقصد بالإذكار والإيناث تطور الجنين إلى ذكر أو أنثى ، كما سنرى .

وهكذا يتلازم هذان اللونان من التربية ويطّردان ويسيران جنباً إلى جنب ، وهما تربية الإيمان الصحيح بقدَر الله ومشيئته وحكمته ، مع تربية العقل على التفكير السليم وربط النتائج بأسبابها ، ولزوم الأسباب لحصول النتائج . وقد ألَحّ ابن القيّم على هذه التربية المتلازمة في كتابه (الطرق الحكمية في السياسة الشرعية) حيث قال عن شبَه الولد بأمه أو بأبيه : « وتعليقه على المشيئة لا ينافي تعليقه على السبب ، كما أن الشقاوة والسعادة والرزق معلقة بالمشيئة وحاصلة بالسبب .. »[2] .

وأما دليل مخالفة منكري الأسباب للشرع فقد أورده ابن القيّم

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٦٩

(٢) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية لابن قيّم الجوزية ، ص ٢٠٠ ، ط . شركة طبع الكتب العربية بمصر بمطبعة الآداب والمؤيد سنة ١٣١٧ هـ .

في (زاد المعاد) حيث أورد حديثاً (في المسند والسُّنن عن أبي خزامة قال :

قلت : يا رسول الله أرأيت رُقىً نسترقيها ، ودواءً نتداوى به ، وتقاة نتقيها . هل تردّ من قدر الله شيئاً ؟

فقال ﷺ : « هي من قدر الله » .

ـ قال ابن القيّم ـ فقد تضمنت هذه الأحاديث إثبات الأسباب والمسببات ، وإبطال قول من أنكرها .. »[1] .

فعلّمهم الرسول ﷺ أن التداوي مما قدّره الله ، وأن المتداوي يردّ قدر الله بقدر الله ، أي يعالج ما قدر الله من الأمراض ، بما قدر الله من الأدوية وأسباب الشفاء .

فكل من الأسباب والمسببات هي من قدر الله ، ولا تنافي بين تعاطيها وبين الإيمان بقضاء الله وقدره .

فالإيمان بالأسباب ليس مبدأ عقلياً وحسب ، بل هو مبدأ تربوي سلوكي شرعي يربّي على وجوب تعاطي الأسباب التي تؤدي إلى النتائج المطلوبة شرعاً ، ومن لم يأخذ بهذه الأسباب ولم يسعَ في طلبها ، مع إتاحتها وتيسّرها ، يعتبر مقصّراً ومسؤولاً أمام الله عن

---

(١) زاد المعاد ، ٨٨/٣ ، (مرجع سابق) .

تخلّف النتـائج المطلوبـة ، أو عن حصـول نتـائـج محرمـة ، أو مُرْديـة مهلكة ، سواء في الدنيـا أو في الآخرة ، أجـارَنـا الله من سوء العواقب والنتائج الوخيمة .

المبـدأ الثـالث في التربيـة العقليـة المنهجيّـة : إقـامـة الدراسة والمعرفة على أسـاس من الوحي الصـادق والمشـاهـدة المبنية على الاستقراء التام والمقارنة والتدرج

تمهيـد : اعتمـد ابن القيم في دراسـة أطـوار حيـاة الإنسـان على (الـوحي الصـادق) ـ كما رأينـا ـ ويعني بـه صريـح القرآن وصحيـح السنـة ، وقـد نقل ـ في دراستـه الجنين ـ أقـوال بعض الأطبـاء الـذين اشتهروا في عصره ، منذ (بقراط) إلى زمانه ، والذين لم تخالف أقوالهم وآراؤهم الطبّيّة ماجاء في القرآن والسنة ، وأما ماخالفهما فقـد نـاقشهم فيه ، على أسس منهجيّـة ، كالتشريح والاستقراء التـام ، وغيرهمـا ممـا يعتمدون عليه ، ففنّد قياسهم الباطل ، واستقراءهم الناقص ...

وكذلك وفق ابن القيم بين الأحـاديث التي عرّفتنـا بمراحل تطور الجنين ، على أسـاس من المقـارنـة ، والتـدرّج في التطـوّر ، كما قـال في الجمع بين حديثين[1] روى أحدهما عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ ،

(١) سبق ذكر الحديثين حين استعراض أطوار الجنين عند ابن القيم .

وروى الآخر حذيفة بن أُسَيد عن رسول الله ﷺ فقال ابن القيم بعد إيرادهما واستنباط مافيهما :

« بقي أن يقال : حديث حذيفة يدل على أن ابتداء التخليق عقيب الأربعين الأولى ، وحديث ابن مسعود يدل على أنه عقيب الأربعين الثالثة فكيف يجمع بينهما ؟ »[1] ..

ثم قال : « لا ريب أنه عند نفخ الروح فيه وتعلقها به يحدث له في خلقه أمور زائدة على التخليق الذي كان بعد الأربعين الأولى ، فالأول كان مبدأ التخليق ؛ وهذا تسويته وكمال ماقُدِّرَ له ، كما أنه سبحانه خلق الأرض قبل السماء ، ثم سوّى الأرض بعد ذلك ومهّدها وبسطها وأكمل خلقها ، فذلك فعله في السكن وهذا فعله في الساكن ، على أن التخليق والتصوير ينشأ في النطفة بعد الأربعين **على التدريج شيئاً فشيئاً** ، كما ينشأ النبات ، فهذا مشاهد في الحيوان والنبات ، كما إذا تأملت حلول الفرّوج في البيضة .. »[2] .

وهذا المبدأ العام في التربية العقلية مبدأ منطقي ينم عن مبادئ وتطبيقات فرعية تشكل منهج ابن القيم للوصول إلى المعرفة الصحيحة أهمها :

---

(١) تحفة المودود ، ص ١٥٤ (مرجع سابق) .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٥

١ ـ مبدأ الاعتماد على الوحي والمشاهدة للحصول على العلم الصحيح :

قال ابن القيم : « الذي دلّ عليه الوحي الصادق عن خلاّق البشر ، أن الخلق ينتقل في كل أربعين يوماً إلى طور آخر ، فيكون أولاً نطفة أربعين يوماً ، ثم علقةً كذلك ، ثم مضغة كذلك ، ثم ينفخ فيه الروح بعد مئة وعشرين يوماً كأنك تشاهده عياناً ، وما خالفه فليس مع المخبر به عيان .. »[١] .

وقال : « وإنما يصير لحيّاً بعد الثمانين ، ومثل هذا لا يدرك إلا بوحي أو مشاهدة ، وكلاهما مفقود عندهم »[٢] .

فالوحي الصادق كالمشاهدة والمعاينة في التأكد من صحة المعرفة ، وقد خصّ الوحي بصفة (الصدق) حكايةً للواقع ، واحترازاً من الأحاديث التي لم يَصحّ نقلها ولم تثبت عن رسول الله ﷺ ، أو من سوء فهمها .

٢ ـ أهمية المشاهدة والاستقراء للحصول على العلم الصحيح :

ويقوم هذا المبدأ على تنظيم المشاهدة بالاستقراء ، أي جعلها على شكل استقصاء منظم لكل ما يمكن معرفته للوصول إلى الحقيقة كاملة ...

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٥٦

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٧

ويرى ابن القيم أن مشاهدة الأجنة التي تسقط قبل أوان الولادة لا تكفي ؛ فلا بدَّ من حساب مبدأ الحمل وتتبع أحوال النطفة وتطورها في الرحم ، وهذا لم يكن في زمانه ممكناً ، إذ لم يكن العلم قد استخدم الأشعة اللازمة لذلك . ولهذا يقول منتقداً ما وصل إليه الطبائعيون في عصره ، وخالفوا به ما دلَّ عليه الوحي : « وما خالفه ، فليس مع المخبر به عيان ، وغاية مامعه قياس فاسد ، وتشريح لا يحيط علماً بمبدأ إما يكون قد شاهد منه (أي من الجنين) ، أو تقليد لواحد غير معصوم »[1] **وهكذا ينكر ابن القيم التقليد الأعمى من غير علم أو برهان** ، ثم يقول : « وغاية ما معهم أنهم شرّحوا الحوامل أحياءً وأمواتاً ، فوجدوا الجنين في الرحم على الصفة التي أخبروا بها ، ولكن لا علم لهم بما وراء ذلك من مبدأ الحمل وتغير أحوال النطفة .. »[2] **وبهذا ينكر المشاهدة الناقصة أو الاستقراء الذي لا يكشف الحقيقة كاملة .**

٣ - ينكر ابن القيم كذلك بناء المعرفة على الفرض الذي يكذبه العقل أو الواقع فيقول في تمام كلامه السابق :

« .. فإن ضيّق مُقَلِّدهم الفرض ، وقال : نفرض أنهم اعتبروا بكراً من حين وُطئت ، ثم جعلوا يعدّون أيامها إلى أن بلغت ماذكروه ، ثم

(١) المرجع السابق ، ص ١٥٦

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٦

شرّحوها فوجدوا الأمر على الصفة التي أخبروا بها ـ فهذا غاية الكذب والبهت ، فإن القوم لم يدّعوا ذلك ! وكيف يمكنهم دعواه ، وهم يخبرون أن بعد ذلك بكذا وكذا يوماً يصير الحمل كذا وكذا ؟ »[1] .

٤ ـ كذلك ينكر القياس على كليات لم يثبتها العلم ، أو لا علاقة لها بالموضوع إذ يقول :

« وإنما مع القوم كليات وأقيسة ! وينبغي أن يكون كذا وكذا ! والنظام الطبيعي يقتضي كذا وكذا ! وكثير منهم يأخذ ذلك من حركات القمر وزيادته أو نقصانه ، ومن حركات الشمس ومن التثليث والتربيع والتسديس والمقابلة ..!! »[2] وغني عن البرهان أن هذه الأمور لا علاقة لها بتطور الجنين في الرحم .

٥ ـ موافقة نتائج الاستقراء التام السليم لمعطيات الوحي الصادق :

على أن ابن القيم لا ينكر أهمية التشريح والاستقراء في الوصول إلى الحقائق في تطور الجنين ، لكنه يشرط أن يكون استقراءً تاماً لا يخرم كما يدل على ذلك قوله :

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٥٦ ـ ١٥٧

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٧

« وأصح ما بأيديهم : التشريح ، والاستقراء التام الذي لا يخرم ونحن لا ننكر ذلك . ولكن ليس فيه ما يخالف الوحي عن حياة الأجنة أبداً ... »[1] فكلا المصدرين صادق ، فلا يمكن أن يتنافيا لأنهما يكشفان لنا نظاماً واحداً ، ولكن العيب قد يكون في سوء فهم المعطيات التي يكشف عنها العيان أو الوحي ، كما قال ابن القيم عندما جمع بين حديثي رسول الله ﷺ اللذين روى أحدهما ابن مسعود ، والآخر حذيفة ، في أمر بدء تخليق الجنين ، فوفّق بينهما عن طريق مبدأ التدرج في النمو كما رأينا ثم قال : « فإنما يقع الإشكال من عدم فهم كلام الله ورسوله ﷺ . والإشكال في أفهامنا ، لا في بيان المعصوم »[2] فهذا احتمال وقوع الخطأ في فهم الوحي . أما احتمال خطأ العيان فيكون بسبب النقص وعدم الاستقراء التام ، فيشاهد بعض الحقيقة ، أو وجهاً من وجوهها دون باقي الوجوه . لذلك اشترط ابن القيم حصول (الاستقراء التام الذي لا يخرم) كما رأيت في كلامه السابق .

٦ ـ مبدأ التدرج في النمو والتطور :

اهتم ابن القيم بهذا المبدأ واعتمد عليه في وصف النمو العقلي والجنيني وفي فطام الرضيع وغير ذلك من الأمور التربوية .

(١) المرجع السابق ، ص ١٥٧

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٥

أ ـ ففي النمو العقلي قال ابن القيم يصف بعض الظواهر السلوكية للمولود : « فيضحك عند الأربعين وذلك أول ما يعقل نفسه ، ثم ينشأ معه التمييز والعقل على التدريج شيئاً فشيئاً ، إلى سنّ التمييز »[1] .

ب ـ وقال في النمو الجنيني : « على أن التخليق والتصوير ينشأ في النطفة بعد الأربعين على التدريج شيئاً فشيئاً »[2] .

جـ ـ وقال في فطام الأطفال : « ينبغي للمرضع أن تفطمه على التدريج ولا تفاجئه .. »[3] ، « وينبغي تدريجهم في الغذاء ، فأول ما يطعمونهم اللبن »[4] .

د ـ وقال في مرحلة ضعف قوى الإنسان : « ثم بعد الأربعين يأخذ في النقصان وضعف القوى على التدريج .. »[5] .

فهذا المبدأ واضح في أقواله السابقة ـ كما ترى ـ فهو يدل على أنه لا يؤمن بالطفرة في النمو ، ولا في التربية ، وهو مبدأ ثابت عرفه العلم المعاصر في جميع مظاهر التطور البشريّ والكوني والنباتي والحيواني .

وأشار ابن القيم إلى جميع هذه المظاهر ، فأما تدريج التطور

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٧٦
(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٥
(٣) المرجع السابق ، ص ١٣٩
(٤) المرجع السابق ، ص ١٣٧
(٥) المرجع السابق ، ص ١٨٤

الكوني ، فأشار إليه ـ عطفاً على كلامه السابق عن الجنين ـ « كما أنه سبحانه خلق الأرض قبل السماء ، ثم سوّى الأرض بعد ذلك ومهّدها وبسطها وأكمل خلقها .. »[1] وأشار إلى التدريج في تطور النبات والحيوان بقوله أيضاً : « فهذا مشاهد في الحيوان والنبات ، كما إذا تأملت حلول الفرّوج في البيضة »[2] أي لوجدته ينمو على التدريج كالجنين .

ويشمل هذا المبدأ زيادة النمّو ونقصانه كما قال : « ثم بعد الأربعين يأخذ في النقصان وضعف القوى على التدريج كما أخذها في زيادتها على التدرّج »[3] .

٧ ـ استخدام أسلوب المقارنة في النمو والتطور :

كذلك يلمس الباحث في كلامه السابق أنه كان يتوصل إلى بعض الحقائق بالمقارنة ، فقد توصل بها إلى المبدأ السابق حين قارن تطور الجنين الإنسانيّ بالتطورات الجيئولوجية على الكرة الأرضية ؛ وأقام هذه المقارنة على أن الخالق واحد ونظامه في الأكوان والكائنات واحد ، كما قال : « فذلك فعله في السّكَن ـ أي الكرة الأرضية ـ وهذا فعله في الساكن ـ أي الإنسان ـ »[4] . كذلك قارن بين نمو الجنين في

(١) المرجع السابق ، ص ١٨٣

(٢،٣،٤) ابن القيم : تحفة المودود ، ص ١٥٥ (مرجع سابق) . وقد سبق عرض كلام ابن القيم هذا كاملاً عند بحث (المبدأ الثالث في التربية العقلية) .

الرحم ونمو الفرّوج في البيضة على التدريج كما رأينـا ، وقـد أقيمت على هذا المنهج المقارن علوم قائمة بذاتها ، متميزة بهذا الأسلوب في الدراسة ، كعلم النفس المقارن والتربية المقارنـة ، وعلم الحيـاة (البيولوجيـا) مع الاعتماد على بعض التجـارب للتـأكـد من صحـة المقـارنـة ... ولكن ابن القيم سبق إلى استخدامه ، كما ترى ، وأقامه على أساس عقلي إيمـاني سليم ، إذ لم يكن التجريب ممكناً على الجنين في ذلك العصر .

الباب الخامس

من أساليب التربية عند ابن القيم

١ ـ أسلوب الحوار والمراسلة .

٢ ـ أسلوب التنسيق والتبويب والتصنيف على أساس معقول .

الآثار التربوية لهذا الأسلوب :

أ ـ تربية الدقة والتمييز بين الأمور على أساس معقول .

ب ـ تربية القارئ على الصبر والدأب والاستقصاء .

٣ ـ التربية بآيات الله في الآفاق وفي أنفسنا .

أ ـ تعريف هذا الأسلوب .

ب ـ أسسه الفكرية .

جـ ـ أهميته وأهدافه :

١ً ـ التأمل والتفكّر والتبصر .

٢ً ـ العلم بالله تعالى .

٣ً ـ تربية العبودية لله .

٤ً ـ توحيد الله في الابتهال والتضرع والدعاء ...

٥ً ـ تربية الحواس والعقل على التبصر والاستدلال والفهم .

٦ً ـ أخذ العِبَر ودلائل حكمة الله وعدله وقدرته ، من حوادث التاريخ .

د ـ أمثلة على أسلوب التربية بالآيات .

هـ ـ التحليل التربوي لأسلوب التربية بالآيات .

١ً ـ إبراز مناسبة كل عضو لمكانه ومنفعته وكل حيوان للبيئة التي خلق لها .

٢ً ـ إبراز مناسبة نمو النبات وتكاثره للأهداف والمنافع التي خلق لها .

٣ً ـ الاستدلال بما ألهمت الطيور والحشرات والحيوانات من سلوك غريزي يحقق أهدافاً بيولوجية لا يعرفنها .

٤ً ـ الاستدلال بالمقارنة .

و ـ التحليل النفسي :

١ً ـ تربية العقل .

٢ً ـ تربية الوجدان والعواطف :

(أ) الحياة الوجدانية ومكانتها من العقل .

(بَ) تربية الوجدان بهذا الأسلوب .

(جـَ) تربية الوجدان بإظهار عجز الإنسان أمام عظمة الله وآياته .

(دَ) تربية الخوف من الله .

(هـَ) تجميع هذه الانفعالات لتكوّن العاطفة الدينية .

من أساليب التربية عند ابن القيم

لابن القيم عدة أساليب في تأليفه فهو يقيم الكتابة أحيـانـاً مقـام التدريس :

١ ـ أولها : السؤال والجواب :

وبهـذا يجعل بعض تـآليفـه تقوم مقـام الحوار مع طلابـه ، بل إن بعضها كان فعلاً جواباً لسؤال أُرسل إليـه ، كالجواب الكافي وقـد انتشر هـذا الأسلـوب في عصره ، فقـد سبقـه إليـه أستـاذه شيخ الإسـلام ابن تيميّة ، وعـاصره الإمـام تـاج الـدين السبكي وغيرهـا ، ويقـابلـه التعليم عن طريق المراسلة في هذا العصر ...

وإنك لترى أثر هـذا الأسلوب في خلال الكتـاب فهو يرتب على السؤال ، الـذي ألف الكتـاب من أجلـه ، أسئلـة فرعيـة ، كما صنع في كتابه (الجواب الكافي) . ثم يجيب على كل سؤال ، فإذا قرأت كتـابـه فكأنـك معـه تتجـاذبـان أطرف الحـديث ؛ يشـدّك أول الكتـاب إلى مابعده ، وآخره إلى مراجعة أوله ..

وقد يستفتح بالسؤال فصلاً من فصول الكتاب ، ثم يجعل الفصل كله جواباً له . وقد يستهوي القارئ ويغريه بسؤال معين ليستحوذ على قلبه وانتباهه ، وليشدّه إلى تأمل جوابه ، كما فعل في الكتاب المذكور ، وقد أطال السؤال وجعل له مقدمة ، ثم نبه إلى أهميته وأهمية جوابه فقال : « فصل و (وقعَت مسألة[☆]) : وهي أن المشرك إنما قصده تعظيم جناب الرب ؛ فظن أنه لعظمته لا ينبغي الدخول عليه إلا بالوسائط والشفعاء ؛ .. وقال إنما أعبد هذه الوسائط لتقربني إليه وتدلني وتدخلني عليه ، فهو المقصود . فَلِمَ كان هذا القَدَر موجباً لسخطه وغضبه تبارك وتعالى ؟

فتأمّل هذا السؤال ! اجمعِ قلبك وذهنك على جوابه ، ولا تستهونه ، فإنه به يحصل الفرق بين المشركين والموحدين ، والعالمين بالله والجاهلين به ، وأهل الجنة وأهل النار ... »[1] . ثم يقسّم الجواب ويرتّبه في فصول ، حتى يستقصي كل جوانب الموضوع ، فيأخذ بالعقول إلى الحق والصواب ...

ومعظم الأسئلة التي يوردها ابن القيم ليجيب عليها ، تمثّل مشكلات اعتقادية شغلت بال الناس في عصره ، وفتّت في عضدهم ،

---

(١) الجواب الكافي ، ص ١٢٩ (مرجع سابق) .

(☆) يعني (ورد سؤال) يدلك عليه قوله فيما بعد (فتأمل هذا السؤال ! ..) .

وربما أضعفت إيمانهم وصدّتهم عن السعي والعمل وأوكلتهم إلى العجز والكسل ، فيعالجها بعد أن يلفت النظر إليها بالسؤال كما يلاحظ في المشكلة التي أثارها في سؤاله التالي :

« فصل - وهاهنا سؤال مشهور ، وهو أن المدعوّ به : إن كان قُدّر ، لم يكن بدٌّ من وقوعه ، دعا به العبد أو لم يدع ؛ وإن لم يكن قد قُدِّر لم يقع ، سواء سأله العبد أو لم يسأله .

فظنت طائفة صحة هذا السؤال ، فتركت الدعاء ، وقالت لا فائدة فيه »[1] . ثم أجاب معتمداً مبدأ من أهم مبادئه التربوية (ترتب النتائج على الأعمال) وقد شرحناه ، ومبدأ آخر من مبادئ أهل السنة في تفسير القدر وهو مبدأ (دفع القدر بالقدر) كما رأينا .

والمهم هنا أن أسلوبه في التأليف والتأثير التربوي بمؤلفاته ، أسلوب شائق يشد القارئ إلى الاهتمام والمتابعة وكأنه يجالس المؤلف في ندوة ، أو يشاركه في مناظرة ، فيسأل ويجيب ، ويفترض ثم يحقق في الفرَض ، فيبيّن خطأه أو صوابه ، كقوله مفترضاً إصرار من يحتج بأنّ حسن الظن ينجي مع الأخذ بأسباب الهلاك :

« فإن قيل بل يتأتّى ذلك ، ويكون مستَنَد حسن الظن سعة مغفرة الله ورحمته وعفوه وجوده ، وأنّ رحمته سبقت غضبه ، وأنه

(١) الجواب الكافي ، ص ١٥ (مرجع سابق) .

لاتنفعه العقوبة ولا يضره العفو ... » وهذا هو الفرض وقد ردّ عليه مُبيناً بُطلانه بقوله :

« قيل : الأمر هكذا ، والله فوق ذلك وأجلّ وأكرم وأجود وأرحم ، ولكن إنما يضع ذلك في محله اللائق به ، فإنه سبحانه موصوف بالحكمة والعزة والانتقام وعقوبة من يستحق العقوبة .. فما ينفع المجرم جوده وعفوه ورحمته تعالى ، وقد باء بسخطه وغضبه ، وتعرض للعنته وانتهك حرماته ، بل حسن الظن ينفع من تاب وندم وأقلع ، وبدّل السيئة بالحسنة ثم أحسن الظن بعدها ... »[٢] فهو يناقش الأمور كما لو كان أصحاب الرأي المعاكس حاضرين ، فيعرض رأيهم بأمانة ، ويرد عليه مفترضاً كل حجة يمكن أن يحتجوا بها ، ليرد عليها ويناقشها بعلم ودراية ...

٢ ـ أسلوب التصنيف العلمي :

ويبرز هذا الأسلوب للباحث في معظم أبحاث ابن القيم ، **فقد أقام تآليفه على التنسيق والترتيب والتناظر ، وحسن التبويب والتصنيف على أساس معقول** ، فابن القيم مولع في حصر الأمور ، وبيان علاقاتها ووجوه تصنيفها ، أي الصفات المشتركة في كل تصنيف ، مثال ذلك حصر وقاية القلب من الأمراض والذنوب ، في

---

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٥

سلامتـه من خمسـة أشيـاء ـ كما رأينـا ـ ثم يقسم الـذنوب التي تؤثر على سلامة القلب إلى « أربعـة أقسـام : ملكيـة ، وشيطـانيـة ، وسبعيـة ، وبهيمية ، ولا تخرج عن ذلك .

١ ـ فالذنوب الملكيّـة : أن يتعـاطى مـا لا يصلح لـه من صفـات الربـوبيـة ، كالعظمـة ، والكبريـاء ، والجبروت ، والقهر ، والعلـو ، واستعباد الخلق ونحو ذلك ...

وهـذا القسم أعظم أنـواع الـذنـوب .. فمن كان من أهـل هـذه الذنوب ، فقد نازع الله سبحانه في ربوبيتـه وملكـه ، وجعل لـه نـداً وهذا لا ينفع معه عمل .

٢ ـ وأما الذنوب الشيطانية : فـالتشبـه بـالشيطـان في الحسـد ، والبغي ، والغش ، والغـل والخـداع ، والمكر ، والأمر بمعـاصي الله وتحسينهـا ، والنهي عن طـاعتـه وتهجينهـا ، وهـذا النـوع يلي النـوع الأول في المفسدة ...

٣ ـ وأمـا السبعيـة فـذنوب العـدوان والغضب وسفـك الـدمـاء ، والتوثب على الضعفـاء والعـاجزين ، ويتولـد منهـا أنواع أذى النـوع الإنساني ، والجرأة على الظلم والعدوان .

٤ ـ وأمـا الـذنـوب البهيميّـة ، فمثـل الشره ، والحرص على شهـوة البطن والفرج ، ومنها يتولد الزنى ، والسرقة ، وأكل أموال اليتامى ،

والبخل ، والشح والجبن ... وهذا القسم أكثر ذنوب الخلق لعجزهم عن الذنوب السبعية والملكية ، ومنه يدخلون إلى سائر الأقسام ... »[1] .

ولو قسنا هذا التصنيف على معطيات علم النفس لوجدنا أن الصنف الأول من الذنوب ينشأ عن انحراف غريزة حب السيطرة ، والثاني عن انحراف الغريزة الاجتماعيّة ، والثالث عن انحراف غريزة المقاتلة وطغيانها ، والرابع من انحراف غرائز : التغذية ، والتناسل ، والتملّك .

وأحياناً يصنف البحث تصنيفاً هرمياً فيقسم الأصل إلى قسمين ، وكل قسم إلى قسمين كما قال في تصنيف أصل الذنوب :

« ونحن نذكر فيها بعون الله وحسن توفيقه فصلاً وجيزاً جامعاً فنقول : أصلها نوعان : ترك مأمور ، وفعل محظور ، وهما الذنبان اللذان ابتلى الله سبحانه بهما أبوي الجن والإنس . وكلاهما ينقسم باعتبار محله إلى ظاهر على الجوارح ، وباطن في القلوب ، وباعتبار متعلقه إلى حق الله وحق خلقه ، ـ وإن كان كل حق لخلقه ، فهو متضمّن في حقه ـ لكن سُمّي حقاً للخلق لأنه يجب بمطالبتهم ويسقط بإسقاطهم »[2] .

---

(١) الجواب الكافي ، ص ١٣٣ ـ ١٣٤ (مرجع سابق) .

(٢) الجواب الكافي ، ص ١٣٣ (مرجع سابق) .

ثم قسمها التقسيم الرباعي الذي رأيناه آنفاً ، ويُعنَى ابن القيم بالتصنيف في أبحاثه الهامة . وفي كل تصنيف يذكر الأساس الذي أقيم عليه ، أي الصفة المشتركة بين أفراد كل صنف أو نوع ، والمميزة لها عن أفراد صنف أو نوع آخر .

ـ الآثار التربوية :

هذا الأسلوب هو أسلوب التصنيف العلمي ، الذي أقيمت عليه جميع العلوم ، الكونية والإنسانية في هذا العصر ، وقد سَبَق إليه ابن القيم ، وهو أسلوب يربي العقل على أمور منها :

أ ـ تربية الدقة وحسن التمييز بين الأمور على أساس واضح منطقي معقول ؛ فلا يفرق بين المتجانسات التي ينبغي ضمها والنظر إليها في جنس واحد وبمنظار واحد ، ولا يخلط بين المتباينات التي لا علاقة بينها ، أي لا تجمعها صفات معقولة . فإذا عرف الإنسان أهم الصفات المميزة لكل مجموعة من الذنوب والأمراض كان على وعي من أمره ؛ ليأخذ حذره وينجو بنفسه من الوقوع تحت هذا الصنف أو ذاك من الأمراض النفسية والذنوب الثابتة المستعصية ... ، ولكي يعالج ـ إذا كان مربّياً ـ كل حالة نفسية على ضوء الصنف الذي تنتمي إليه ، فيكون ذلك أدعى إلى ترتيب أفكاره ونجاحه في التعامل مع من يربيهم حسب أحوالهم ، وحسب ما يمر بهم من أزمات نفسية ...

وكـذلـك في التعـامـل مـع جميـع الظـواهر الكـونيـة والاجتماعيـة والإنسانية ...

ب ـ تربية القارئ على الصبر والدأب والاستقصاء في البحث عن الحق أو تـأييـده بجميـع البراهين والحجـج الممكنـة ، وتقليب الموضوع على مختلف وجوهه .

ففي كتـاب (مفتـاح دار السعـادة) يبين ابن القيم أولاً موضوع الكتاب بإسهاب ثم يلخصه بقوله : « والمقصود أن الله سبحانـه وتعـالى لما اقتضت حكمته إخراج آدم وذريته من الجنة ، أعاضهم أفضل منها ، وهو ماأعطاهم من عهده الـذي جعلـه سببـاً موصلاً إليـه .. » ثم يبين الأصلين اللذين لا بدَّ منهما للوصول إلى تحقيق هذا العهد بمـا يرضي الله فيقول :

« ولما كان هـذا العهـد الكريم والصراط المستقيم لا يوصل إليـه إلا من بـاب العلم والإرادة ... فـإن مراتب السعـادة والفـلاح إنمـا تفـوت العبد من هاتين الجهتين أو من إحداهما .. » .

ثم يبـدأ بشرح (الأصـل الأول في العلم وفضلـه وشرفـه ، وبيـان عموم الحـاجـة إليـه ، وبـوقف كمال العبـد ونجـاتـه في معـاشـه ومعـاده عليه)[1] .

---

(١) مفتاح دار السعادة ، ص ٥٢

فيستدل على هذا الأصل بقوله تعالى : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ، والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط ﴾ [آل عمران ١٨/٣] ويعدد وجوه هذه الدلالة إذ يقول : « وهذا يدل على فضل العلم وأهله من وجوه : أحدها ... والثاني ... »[١] ويستمر حتى الوجه الثالث والخمسين بعد المئة في زهاء مئة وأربعين صفحة من القطع المتوسط ذي الحرف الصغير . ولا ينسى أن يفرع الفروع على أحد هذه الوجوه عندما يحتاج ، كما في (الوجه التاسع والعشرين بعد المئة)[٢] وهو الأثر الذي رواه كميل عن علي بن أبي طالب ، فقد صنّف ـ من خلال استعراضه وشرحه لهذا الأثر ـ صنّف الإدراك ، إلى خمس مراتب[٣] بعضها أقوى من بعض وهي : الشعور ثم الفهم ثم المعرفة ثم العلم ثم العقل ، وقسم الباحثين والمتعلمين إلى قسمين :

١ ـ العالم الرّباني . ٢ ـ والمتعلم[٤] .

ثم قسم المتعلمين إلى قسمين[٥] :

١ ـ المتعلم الذي يطلب الكمال . ٢ ـ والمتعلم على سبيل النجاة ، وقد وصفه بثلاث صفات[٦] :

(١) المرجع السابق ، ص ٥٢

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٤

(٣) انظر ص ١٣٦ من المرجع السابق .

(٤،٥) انظر ص ١٣٦ ـ ١٣٧ من المرجع السابق .

(٦) انظر ص ١٣٧ من المرجع السابق .

١) الإخلاص في تعلمه العلم ويقابله في علم التربية المعاصر وضوح الهدف والعمل من أجل تحقيقه .

٢) أن يتعلم ماينفعه أي يفيد في النجاة من غضب الله وعقابه يوم الحساب ،

٣) أن يعمل بعلمه ويقابله اليوم (مرحلة التطبيق) وهي شرط من شروط استكمال التعلم .

ثم استرسل في شرح قول علي (رضي الله عنه) « العلم خير من المال » فبين فضل العلم على المال من خمس وثلاثين وجهاً عدّدها وشرحها وجهاً وجهاً ، مرتبة بأرقامها ...

ثم عاد إلى استكمال وجوه فضل العلم وشرفه مستنبطاً من الآية التي ذكرها أولاً ، وكان قد توقف ليفرّع تلك الوجوه من الوجه التاسع والعشرين بعد المئة ، فعاد فاستكمل مستأنفاً بالوجه الثلاثين بعد المئة بعد إنجاز تفريعاته على الوجه الذي توقف عنده وعاد فاستمر في إتمام تصنيفه وتعداد الوجوه بأرقامها حتى استكملها مئة وثلاثاً وخمسين .

ولما كان هذا الوجه الأخير يقوم على (التفكّر)[1] وفضله وأنه

---

(١) انظر ص ١٩٦ من المرجع السابق .

(مخ العقل)[1] كما قال إبراهيم النخعي ، وأن المتكبرين هم الـذين امتنعوا عن التفكر في آيات الله ، كما فسر قوله تعالى[2] : ﴿ سأصرف عن آياتي الـذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ﴾ [الأعراف ١٤٦/٧] ـ لما كان الأمر كذلك ـ استلزم أن يستكمل هذا المعنى الجليل فعقد عشرات الفصول تكلم في أولها عن معنى[3] الفكر ومجالات[4] التفكير ، وآثارها في حصول (المحبة) أو (إيثار الآخرة والسعي لها)[5] .

ثم راح يعرض عشرات من آيات الله ودلائل قدرته في الآفاق وفي أنفسنا في أكثر من مئة صفحة ، يجد فيها الباحث أسلوباً تربوياً كاملاً بأهدافه واعتماده على الاستقراء والمقارنة والاستدلال إذا حلل تحليلاً تربوياً ، واعتماده على إيقاظ الفكر والوجدان وتربية السلوك إذا حلل تحليلاً نفسياً . كما سنرى في الأسلوب التالي .

ثم استعرض أهدافاً وحكماً أخرى في نحو ثلاثين فصلاً بيّن فيها حكمة الله : في خلق الإنسان وإنزاله من الجنة ، وتعريفه بربه وبأنبيائه وبدينه ، وما نتج عن ذلك من تربية الانفعالات الربانية ومعرفة العقيدة الصحيحة ، وتربيته على العبادة والسلوك القويم ،

(١، ٢) انظر ص ١٩٦ من المرجع السابق .

(٣) انظر ص ١٩٨ ـ ١٩٩ من المرجع السابق .

(٤) انظر ص ٢٠٠ من المرجع السابق و ٢٠٢

(٥) انظر ص ٢٠١ من المرجع السابق .

وتحقيق سعادته بقربه من الله ، وتحصيله من الكمالات والأخلاق ما ينوف على المئة . وفي كل هذه الفصول كان ينهج منهجاً واحداً ، وينسج على أسلوب متميز ، وهو ماسنراه في الفقرة التالية وتفصيلها وتوابعها . ولكننا أشرنا إليه هنا على أنه مظهر من مظاهر استقصاء ابن القيم ، واسترساله في استكمال البحث والتصنيف ، وتقليب البحث على كل وجه يمكن أن يخطر له على بال .

٣ ـ الأسلوب الثالث : التربية بآيات الله في الآفاق وفي أنفسنا

أ ـ تعريف هذا الأسلوب واهتمام ابن القيم به :

هو « أسلوب قرآنيّ يربي عقل الإنسان وسمعه وبصره ووجدانه عن طريق تأمل آيات الله النفسية والكونية ، وهي علامات ودلالات تجتذب إليها عقل الإنسان ووجدانه فيهفو إلى دراستها وتدبرها ، تدل على ربوبية خالقها وتدعو إلى الخضوع له وتوحيده ... »[(١)] .

وقد كنت صنفتُ هذه الآيات بحسب دلالتها[(٢)] ، فكان ذلك

---

(١) انظر كتاب (التربية بالآيات) للمؤلف ، ص ٣١ ـ ٣٢ ، ط دار الفكر ، بيروت ، دمشق .

(٢) انظر المرجع السابق ، ص ١٠٤ ـ ١٤٢

التصنيف يعتمد على أسماء الله الحسنى وصفاته العليا . ومن أهمها (الحكمة) .

ويكفي أن نستعرض كتُبَ ابن القيم لنرى اهتمامه بالآيات الدالة على حكمة الله . ففي كتاب (مفتاح دار السعادة) يجعل من هذا الأسلوب التربوي مفتاحاً للسعادة في الدنيا والآخرة ، ويستدل ، بخلق البشر وإنزالهم إلى الأرض دار العمل والاختبار والابتلاء ، على حكمة الله وعلى رحمة الله ومغفرته وحلمه ومحبّته لأوليائه ، وإنه المنتقم الجبار .

ب ـ الأسس الفكرية لهذا الأسلوب :

يربط ابن القيم هذا الأسلوب التربوي بأهم مبدأ له في تربية العقل والسلوك وهو الذي لخصه ـ كما رأينا ـ بـ « أن الغايات المطلوبة لاتنال إلا بأسبابها التي جعلها الله أسباباً مفضية إليها »[1] ثم قال موضحاً هذا الارتباط :

« .. فكان إسكان آدم وذريته هذه الدار التي **ينالون فيها الأسباب الموصلة إلى أعلى الغايات** وأشرف المقامات ، من إتمام إنعامه عليهم . وسِرُّها أيضاً ، أنه سبحانه ، جعل الرسالة والنبوة والخلّة والتكليم والولاية والعبودية من أشرف مقامات خلقه ، ونهايات

(١) مفتاح دار السعادة ، ص ١٠ (مرجع سابق) .

كمالهم ، فأنزلهم داراً بعث فيها الرسل ، واتخذ منهم من اتخذ خليلاً ، وكلّم موسى تكليماً ، واتخذ منهم أولياء وشهداء وعبيداً وخاصة يحبهم ويحبونه ، وكان إنزالهم إلى الأرض من تمام الإنعام والإحسان .. »[1] .

فذكر من آيات عناية الله بالبشر ، أن أسكنهم هذه الأرض ليُحققوا فيها الأسباب الموصلة إلى أعلى الغايات ، كالنبوة وعبودية الله ورضاه وثوابه ، ومحبته ...

جـ ـ أهمية هذا الأسلوب وبعض أهدافه :

وبعد أن وَصَلَنا بمبدأ (ربط الغايات بأسبابها المفضية إليها) شرع ابن القيم في بيان أهمية التربية عن طريق الاستدلال بأفعال الله وآثار أسمائه وصفاته فقال : « وسِرُّها أيضاً أنه تعرف[☆] إلى خلقه بأفعاله وأسمائه وصفاته ، وما أحدثه في أوليائه وأعدائه : من كرامته وإنعامه على الأولياء ، وإهانته وإشقائه للأعداء ، ومن إجابته دعواتهم وقضائه حوائجهم وتفريج كرباتهم وكشف بلائهم ، وتصريفهم تحت أقداره كيف يشاء ، وتقليبهم في أنواع الخير والشر . **فكان في ذلك أعظم دليل لهم على أنه ربهم ومليكهم** ، وأنه الله الذي لا إله إلا هو ، وأنه العليم الحكيم السميع البصير ، وأنه الإله الحق ، وكل

(١) المرجع السابق ، ص ١١

(☆) تعرّف إلى خلقه : عرض عليهم من آثار أفعاله وأسمائه ما يعرفونه به .

ماسواه باطل . فتظاهرت أدلة ربوبيته وتوحيده في الأرض ، وتنوعت وقامت من كل جانب ، فعرفه المقربون من عباده ، وأقروا بتوحيده إيماناً .. »[1] .

ثم دعانا إلى استخدام هذا الأسلوب فقال : « ومن تأمل آياته المشهودة والمسموعة في الأرض ورأى آثارها علم تمام حكمته في إسكان آدم وذريته في هذه الدار إلى أجل معلوم .. »[2] .

فالباحث يلمس في كلامه هذا دعوة إلى استخدام السمع والبصر في تأمل آيات الله (المشهودة والمسموعة في الأرض) وهذا من أهم الآثار التربوية لهذا الأسلوب التربوي القرآني ؛ كما سنرى فهو يدعونا إلى المشاهدة باستخدام البصر لتأمل آيات الله المشهودة في الآفاق ، ويستنبط الباحث ، كذلك ، أنه يربي حواس الإنسان[3] على البحث والتنقيب والتقاط المعلومات لتقديمها إلى العقل ، ولاستخدامها في الاستدلال على صفات الله وحكمته ...

ثم استدل ابن القيم على حكمة الله وعلمه وتقديره بتعليم الإنسان فقال مفسراً قوله : ﴿ علّمَ الإنسانَ مالَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق ٩٦/٥] :

(١، ٢) المرجع السابق ، ص ١١

(٣) انظر التربية بالآيات ، ص ٤٤ ـ ٥٢ (مرجع سابق) وسنفرد هذا المعنى بالذكر والتفصيل .

« وكل علم في الذهن ، فبتعليمه حصل ، وكل لفظ في اللسان أو خط بالبنان ، فبإقداره وخلقه وتعليمه . وهذا من آيات قدرته وبراهين حكمته .. فقد تعرف إلى عباده ، بما علمهم إياه بحكمته من الخط واللفظ والمعنى ، فكان العلم أحد الأدلة الدالّة عليه ، بل من أعظمها وأظهرها ، وكفى بهذا شرفاً للعلم وفضلاً »[1] .

ولو تأملنا كلامه لوجدنا أن في تميّز الإنسان على سائر الكائنات : بالعلم والتعلم ، والنطق والتفكّر ، والكتابة والتحضّر - مع أنه لا يملك أن يهب لنفسه أو غيره هذه الميزة ، ولو ولد له ولد أبله أبكم غير قادر على شيء من هذه الميزات لما استطاع أن يهبه منها شيئاً - ففي هذا دليل من أعظم الأدلة على العلم الإلهي والحكمة والإبداع والتقدير ، ونحو ذلك من الصفات الإلهية التي اتصف بها من وهبه هذه المواهب ، وميزه بهذه الميزات ، ولا يقدر عليها أحد غيره .

ثم ذكر ابن القيم مثالاً آخر : آية خلق الإنسان وحسن تقويمه فقال : « وإذا تأملت مادعا الله سبحانه في كتابه عباده إلى الفكر فيه ، أوقعك على العلم به سبحانه وتعالى ، وبوحدانيته وصفات كماله ، ونعوت جلاله : من عموم قدرته وعلمه وكمال حكمته ورحمته

(١) مفتاح دار السعادة ، ص ٦٣ (مرجع سابق) .

وإحسانـه وبره ولطفـه ، ... فبهـذا تعرّف إلى عبـاده ، ونـدبهم إلى التفكر في آياته ... فمن ذلك خلْقُ الإنسان ، وقـد نـدب سبحـانـه إلى التفكر فيـه ، كقـولـه تعـالى : ﴿ فلينظر الإنســان مم خلـق ؟ ﴾ [الطــارق ٥/٨٦] وقــولـــه : ﴿ وفي أنفسكم أفـلا تبصرون ؟ ﴾ [الذاريات ٢١/٥١] وقوله تعالى : ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سُدًى ؟ ألم يَكُ نطفة من مَنِيٍّ يُمنَى ؟ ثم كان علقة فخلق فَسَوَّى ! فجَعَلَ منهُ الـزَّوجَينِ الــذَّكَرَ والأُنثَى ؟ أليسَ ذلـــكَ بقـــادرٍ على أن يُحيِيَ الْمَوتَى ؟ ﴾ [القيامة ٣٦/٧٥-٤٠] ...

وهـذا كثير في القرآن ، يـدعـو العبـد إلى النظر والفكر في مبـدأ خلقـه ، ووسطـه ، وآخره ، إذ نفسـه وخلقـه من أعظم الـدلائل على خالقه وفاطره ، وأقرب شيء إلى الإنسان نفسـه . وفيـه من العجـائب الدالّة على عظمـة الله مـا تنقضي الأعمـار في الوقوف على بعضـه ، وهو غافل عنه ، معرض عن التفكير فيه ، ولو فكر في نفسه لزجره مـا يعلم من عجائب خلقها عن كفره . قال تعالى :

﴿ قتل الإنسان ماأكفره ! من أيّ شيء خلقه ؟ من نطفة خلقه فقـدره . ثُمَّ السَّبيـلَ يَسَّره . ثم أمـاتـه فـأقبره . ثم إذا شـاء أنشره ﴾ [عبس ١٧/٨٠-٢٢] .

فلم يكرر سبحـانـه على أسماعنـا وعقولنـا ذكر هـذا لنسمـع لفـظ

النطفة ، والعلقة ، والمضغة ، والتراب ... ولا لنتكلم بها فقط ، ولا لمجرد تعريفنا بذلك ؛ بل لأمرٍ وراء ذلك كله ، هو المقصود بالخطاب ، وإليه جرى ذلك الحديث »[1] .

وهكذا قدّم ابن القيم بين يدي المثال الذي سيورده ، ليكون آية من آيات الله في أنفسنا ، مقدمة بيّن فيها **أهمية هذا الأسلوب ، وبعض شروط الاستفادة منه وأهدافه مثل :**

١ - أن الله أورد آياته للتأمل والتفكّر والتبصّر ، وكررها لهذا الهدف ، لا لمجرد سماعها أو الحديث عنها .

٢ - أن الغاية من عرض هذه الآيات أن نقع على العلم به سبحانه وبوحدانيته وصفات كماله وصدق رسله ، وأن يتعرف الله بذلك إلى عباده ، أي يتيح لهم السبيل لمعرفته جلّ جلاله بآياته ، كما قال : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ [فصّلت ٤١/٥٣] .

ذلك أنه « لكل اسم من أسمائه أثر من الآثار في الخلق والأمر لا بد من ترتّبه عليه : كترتب المرزوق والرزق على الرازق ، وترتب المرحوم وأسباب الرحمة على الراحم ، وترتب المرئيات والمسموعات على السميع والبصير . ونظائر ذلك في جميع الأسماء . فلو لم يكن في

(١) المرجع السابق ، ص ٢٠٥

عباده من يخطئ ويذنب ليتوب عليه ويغفر له ويعفو عنه ، لم يظهر أثر أسمائه : العفوّ والغفور والحليم والتواب وما جرى مجراها ... فكما أن اسمه (الخالق) يقتضي مخلوقاً ، و (البارئ) يقتضي مبروءاً و (المصوِّر) يقتضي مصوَّراً فأسماؤه الغفار والتواب تقتضي مغفوراً له وما يغفره ، وكذلك من يتوب عليه وأموراً يتوب عليه من أجلها ، ومن يحلم عليه ويعفو عنه وما يكون متعلق الحلم والعفو .. »[١] .

فالله عز وجل يرينا في أنفسنا آثار عفوه وحلمه ورحمته ، كما يرينا في الخليقة آثار رزقه ، قال ابن القيم :

« فتأمّل ظهور هذين الاسمين : اسم الرازق ، واسم الغفار في الخليقة ، ترى ما يعجب العقول ... وانظر كيف وسعهم رزقه ومغفرته ولولا ذلك لما كان لهم من قيام أصلاً ... »[٢] فالكائنات الحية لا قيام لها من غير أرزاقها وأقواتها ، والإنسان المذنب لا يستحق الحياة من غير أن يستغفر فيغفر الله له ، وكل ابن آدم خطاء ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ماترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمّى ... ﴾ [النحل ٦١/١٦] ليمتحنهم فيتوب على من استغفر وأناب ، ويعذب من يستحق العذاب .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٠٩ ـ ٣١٠

(٢) المرجع السابق ، ص ٣١٠

٣ ـ ومن أهداف هذا الأسلوب أن يُشعرنا الله في أنفسنا بعبوديتنا له ، وخضوعنا لمشيئته وحاجتنا إليه كما قال ابن القيم :

« ومنه أنه سبحانه يعرّف عباده عزه في قضائه وقدره ، ونفوذ مشيئته وجريان حكمته ، وأنه لا محيص للعبد عما قضاه عليه ، ولا مفرّ له منه ، بل هو في قبضة مالكه وسيده ، وأنه عبده وابن عبده وابن أمته ناصيته بيده ، ماض فيه حكمه عدل فيه قضاؤه »[1] . فكلما أصبح صباح ، وغابت شمس ، وولد مولود ، ومرض مريض ، وأمطرت سحابة ، أو أمسكت ماءها ، وزلزلت أرض ، أو ثارت ريح صرصر عاتية ، أو ثار بركان ؛ لجأ العباد إلى ربهم مستسلمين لمشيئته وعزه في قضائه وقدره ، وأيقنوا أنه المعز المذلّ يفعل ما يشاء ، فيطلبون منه أن يحفظهم ويعينهم على المصائب والنكبات ، كما قال ابن القيم :

« ومنها أنه يعرّف العبد حاجته إلى حفظه له ومعونته وصيانته ، وأنه كالوليد الطفل في حاجته إلى من يحفظه ويصونه ، فإن لم يحفظه مولاه الحق ويصونه ويعينه ؛ فهو هالك ولا بد .. »[2] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣١٠

(٢) المرجع السابق ، ص ٣١٠

٤ً ـ ومن أهداف هـذا الأسلوب التربوي أن يحملنـا على توحيـد الله في الابتهال والتضرع والدعاء والتذلّل والعبودية له وحده . قال ابن القيم :

« ومنها أنه سبحانه يستجلب من عبـده بـذلـك مـا هو من أعظم أسباب السعـادة لـه : من أنواع الـدعـاء والتضرع والابتهـال والإنـابـة والفاقة والمحبة والرجاء والخوف ، فيحصل للروح بذلك قرب خـاص لم يكن يحصل بدون هذه الأسباب .. »[1] .

« ومنها أنه سبحانه يستخرج بذلك من عبده تمام عبوديته ، فإن تمام العبودية هو بتكميل مقـام الـذل والانقيـاد ؛ وأكمل الخلق عبوديـةً أكملهم ذلاًّ لله وانقياداً وطاعةً . والعبد ذليل لمولاه الحق بكل وجـه من وجوه الـذل ؛ فهو ذليل لعزه ، وذليل لقهره ، وذليـل لربـوبيتـه فيـه وتصرفه ، وذليل لإحسانه إليه وإنعـامـه عليـه ... ، وذليل تعبَّـدَ لـه لحـاجتـه إليـه على مـدى الأنفـاس في جلب كل مـا ينفعـه ، ودفع كل ما يضره ... »[2] .

٥ً ـ ومن أهمية هذا الأسلوب عند ابن القيم أنه يؤدي إلى تربية الحـواس والعقـل على التبصر والاستـدلال والفهم والتـدبر ؛ وإليـك تفصيل هذه الظاهرة من ظواهر أهمية التربية بالآيات .

(١) المرجع السابق ، ص ٣١٠ ـ ٣١١

(٢) المرجع السابق ، ص ٣١١

فأما تربية حاسّة السمع فقد ضرب لها ابن القيم مثلاً آية الليل والنهار حيث قال في تفسير قوله تعالى : ﴿ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ [الروم ٣٠/٢٣] : « وجعل المنام بالليل ، والنهار للتصرف في المعاش وابتغاء فضله : آيات لقوم يسمعون ، وهو سماع الفهم وتدبر هذه الآيات وارتباطها بما جُعلت آية له ، فهذه الآية إنما ينتفع بها من سمع ماجاءت به الرسل ، وأصغى إليه ، واستدل بهذه الآية عليه ... »[1] فجعل السماع المقترن بالفهم والتدبر وسيلة للاستدلال .

وضرب مثلاً لتربية البصر والعقل على الاستدلال : قولَه تعالى في بيان آية البرق والمطر : ﴿ ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ [الروم ٣٠/٢٤] فقال في تفسير هذه الآية : « وجعل إراءتهم البرق وإنزال الماء من السماء ، وإحياء الأرض به : آياتٍ لقوم يعقلون ، فإن هذه أمور مرئية بالأبصار مشاهدة بالحس ، فإذا نظر إليها ببصر قلبه وهو عقله ، استدل بها على وجود الرب تعالى وقدرته وعلمه ورحمته وحكمته ، وإمكان ما أخبر به من إحياء الخلائق بعد موتهم كما أحيا هذه الأرض بعد موتها . وهذه أمور لا تدرك إلا ببصر القلب ، وهو العقل ، فإن الحس دلّ على الآية والعقل دل على

(١) المرجع السابق ، ص ٢٠٣

ما جعلت آية له ، فذكر سبحانه الآية المشهودة بالبصر ، والمدلول عليه المشهود بالعقل »[1] .

وهكذا فصل ابن القيم وأوضح عمل الحواس وعمل العقل في عملية الاستدلال في هذا الأسلوب التربوي : فالحواس تدل العقل على المظاهر الكونية أو الأحوال النفسية التي أراد الله أن يجعلها دليلاً . والعقل يستدل على ما جعلت دليلاً عليه ، من قدرة الرب وعنايته وإبداعه وحكمته ورحمته ... إلخ كما قال ابن القيم في كلامه السابق : « فذكر سبحانه الآية المشهودة بالبصر والمدلول عليه المشهود بالعقل »[2] وذلك في قوله عز وجل : ﴿ يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماءً فيحيي به الأرض بعد موتها ﴾[3] فالبصر يشهد السحاب والبرق والمطر والأرض الميتة قبل نزول المطر ، والأرض التي أحييت بالمطر ، والعقل يستدل على وجود الرب وقدرته وعلمه ورحمته وحكمته . وأما ذِكر الله سبحانه (المدلول عليه المشهود بالعقل) فلعل ابن القيم يقصد ما سيأتي بعد هذه الآية في قوله تعالى : ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ، وله من في السماوات والأرض كل له

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٠٣ - ٢٠٤

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٠٤

(٣) [الروم : ٢٤/٣٠] .

قانتون ﴾ [الروم ٣٠/٢٥-٢٦] فخروج النـاس يوم البعث وإحيـاؤهم هو المدلول عليه من رؤيـة المطر وإحيـاء الأرض بعـد موتهـا . وكـذلـك ملك الله لكل من في السماوات والأرض وقنوتهم له بسبب ما يمن عليهم من رزق ومطر ونبـات ، ومـا يملكـه من حيـاتهم أو مـوتهم ، فهـو سبحانه كما أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء البشر وبعثهم ، وهو الذي يملكهم وهم لحكمه خاضعون . فآية البرق والمطر وإحيـاء الأرض المشهودة بالبصر دلت على آية خروج الناس حين يـدعوهم خـالقهم من الأرض .

٦ ـ وهذا الأسلوب من أفضل الأساليب لدراسة حوادث التاريخ وأخـذ العبرة منهـا ، وعرضهـا على مقيـاس الإسلام متمثـلاً بـالقرآن والسنـة ، لمعرفـة خيرهـا وشرهـا ؛ فـابن القيم يعتبر حوادث التـاريخ وأخبار الأمم من آيات الله في الآفاق ، كما يدل عليه قوله :

« ومن أنفع ما في ذلك : تدبّر القرآن فإنه كفيل بذلـك على أكمل الوجوه ، وفيه أسباب الخير والشر جميعـاً مفصلـةً مبينـةً ، ثم السنـة ، فإنها شقيقة القرآن وهي الوحي الثـاني .. وهمـا يريـانـك الخير والشر وأسبابها حتى كأنك تعاين ذلك عِياناً . وبعد ذلك ، إذا تأمّلت أخبار الأمم ، وأيام الله في أهل طاعته وأهل معصيته ، طابق ذلك ما علمتـه من القرآن والسنة ، ورأيته بتفاصيل ما أخبر الله به ووعد به ، وعلمت من آيات الله في الآفـاق مـا يـدلـك على أن القرآن حق ، وأن الرسول

حق ، وأن الله ينجز وعده لا محالة ، فالتاريخ تفصيل لجزئيات ماعرّفنا الله من الأسباب الكلية للخير والشر »[1] .

ومن أهم هذه الأسباب الكلية (سنن[2] الله في الذين خلوا من قبل) كالسنّة المذكورة في قوله تعالى : ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ [الأنفال ٥٣/٨] ، والسنة التي دلّ عليها قوله سبحانه : ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ، فحق عليها القول ، فدمّرناها تدميراً ﴾ [الإسراء ١٦/١٧] ، والسنة الواردة في قوله عز وجل : ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا : آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده .. ﴾ [غافر ٨٤/٤٠] ، والتي في قوله : ﴿ ولكل أمة أجل ، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ [الأعراف ٣٤/٧] وغيرها مما أوضحته في كتاب آخر[3] .

وكسنة الله في إهلاك الظالمين الطاغين المكذبين المشار إليها في قوله سبحانه : ﴿ قد خلت من قبلكم سنن ، فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ [آل عمران ١٣٧/٣] .

---

(١) الجواب الكافي ، ص ١٩ (مرجع سابق) .

(٢،٣) انظر تفاصيل هذه السنن وآثارها التربوية في كتابنا (التربية بالآيات ٢٢٦ ـ ٢٤٤) مرجع سابق .

وكسنة الله في نصرة أنبيائه والمؤمنين وهذا ماأشار إليه ابن القيم في قوله السابق : « .. وأن الله ينجز وعده لا محالة .. » وقد نص عليها قوله تعالى : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ [غافر ٥١/٤٠] .

وفي كل سنّة من هذه السنن آية دالّة على حكمة الله في تصريف الأمور بين البشر ، وعدالته في الانتقام لرسله وإهلاك الظالمين ونصرته لأوليائه وأنبيائه ، وكثير من صفات الله وأسمائه الحسنى ، كالجبار ، وأنه (عزيز ذو انتقام) وغير ذلك ...

د ـ أمثلة على أسلوب التربية بالآيات عند ابن القيم :

عرض ابن القيم بأسلوبه الشائق بعض آيات الله في أنفسنا ، نورد مقاطع منها لتكون موضوعاً لتحليل تربوي ونفسي لهذا الأسلوب كقوله : « فانظر إلى النطفة بعين البصيرة ـ وهي قطرة من ماء مهين ضعيف مستقذر ، لو مرت بها ساعة من الزمان فسدت وأنتنت ـ كيف استخرجها رب الأرباب العليم القدير من بين الصلب والترائب .. على ضيق طرقها واختلاف مجاريها ، إلى أن ساقها إلى مستقرها ومجمعها ؟! وكيف جمع سبحانه بين الذكر والأنثى ، وألقى المحبة بينهما ؟! وكيف قادهما بسلسلة الشهوة والمحبة إلى الاجتماع الذي هو سبب تخليق الولد وتكوينه ؟! وكيف قدّر اجتماع ذينك الماءين

ـ مع بعد كل منهما عن صاحبه ـ من أعماق العروق والأعضاء ، وجمعهما في موضع واحد جعله لهما قراراً مكيناً ، لا يناله هواء يفسده ، ولا برد يجمّده ، ولا آفة تتسلط عليه ، ثم قلب تلك النطفة البيضاء علقة حمراء تضرب إلى سوداء ، ثم جعلها مضغة لحم ! .. وانظر كيف طوّر تلك الأجزاء المتشابهة (في المضغة) إلى الأعصاب والعظام والعروق والأوتار ، واليابس واللّيّن ؟ ثم كيف ربط بعضها ببعض أقوى رباط وأشدّه ؟ .. وكيف كساها لحماً ؟ .. وكيف صوّرها فأحسن صورها ، وشقّ لها السمع والبصر والفم والأنف وسائر المنافذ ، ومدّ اليدين والرجلين وبسطهما وقسم رؤوسهما بالأصابع ، ثم قسم الأصابع بالأنامل ، وركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد ، والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء ، كلّ واحد منها له قدر يخصّه ومنفعة تخصه ... »[1] .

« ثم انظر الحكمة البالغة في تركيب العظام قواماً للبدن وعماداً له ، وكيف قدّرها ربّها وخالقها بتقادير مختلفة ، وأشكال مختلفة ! فمنها الكبير والصغير ، والطويل والقصير ، والمنحني والمستدير ، والدقيق والعريض .. وكيف ركب بعضها في بعض ؟! فمنها ماتركب تركيب الذكر في الأنثى ، ومنها ماتركيبه تركيب اتصال فقط ... ولما كان الإنسان محتاجاً للحركة .. لم يجعل عظامه عظماً واحداً ، بل

(١) مفتاح دار السعادة ، ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦ (مرجع سابق) .

عظاماً متعددة ، وجعل بينها مفاصل حتى تتيسّر بها الحركة ، وكان قدّر كل واحد منها وشكله على حسب الحركة المطلوبة منه ، وكيف شد أسر تلك المفاصل والأعضاء ، وربط بعضها ببعض بأوتار ورباطات أنبتها من أحد طرفي العظم ، وألصق أحد طرفي العظم بالطرف الآخر ... فإذا أراد الإنسان أن يحرك جزءاً من بدنه لم يمتنع عليه ، ولولا المفاصل لتعذّر ذلك عليه ... »[1] .

ثم استمر ابن القيم يشرح آيات من جسم الإنسان تدل على حكمة صانعها ودقة صنعه وإحكامه ، فذكر الرأس ومكانه في أعلى الجسم ، لما فيه من الحواس الخمس : آلات الإدراك ، وكيف « ركب فيه كل عين من سبع طبقات ، لكل طبقة وصف مخصوص ومقدار مخصوص ومنفعة مخصوصة ، وأركز في داخل تلك الطبقات السبع خلقاً عجيباً ، وهو إنسان العين (البؤبؤ) بقدر العدسة ، يبصر به ما بين المشرق والمغرب ... وخلق ـ سبحانه ـ الأذن أحسن خلقة وأبلغها في حصول المقصود منها ، فجعلها مجوّفة كالصدفة ، لتجمع الصوت ، فتؤديه إلى الصماخ ... »[2] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٠٦

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧

هـ ـ التحليل التربويّ لأسلوب التربية بالآيات :

لو تأملنا أسلوب ابن القيم في هذه الآيات التي عرضها ، لوجدناه يعتمد على أساليب فرعية تؤدي بجملتها إلى إدراك عظمة الخالق وحكمته ، وتدفع إلى الخشوع والخضوع لجلاله وعظمته ، أي إلى تحقيق الهدف المطلوب . ومن هذه الأساليب :

أ ـ إظهار مناسبة كل عضو لمكانه من الجسم ، ولمنفعته التي يؤديها للجسم . وكل حيوان للبيئة التي خلق لها وهذا عين الحكمة وهي وضع الأمور في مواضعها بلا زيادة ولا نقصان .

ففي جسم الإنسان يلفت نظرنا إلى كل الأعضاء « كيف اختلفت أشكالها باختلاف منافعها ، كالأضراس ، فإنها لما كانت آلة للطحن جعلت عريضة ، ولما كانت الأسنان آلة للقطع جعلت مستدقة محددة »[1] ويلفت نظرنا كما رأينا إلى الأذن كيف « جعلها الخالق مجوفة كالصدفة لتجمع الصوت فتؤديه إلى الصماخ »[2] وأمثال هذا في الإنسان كثير ، فسبحان من خلق الإنسان في أحسن تقويم .

وينطبق هذا الأسلوب عند ابن القيم على خلق الحيوان ، وجَعْلِه

(١) المرجع السابق ، ص ٢٠٦

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٠٧

مناسباً للبيئة التي خلق لها ولنأخذ مثلاً على ذلك وصفه آية الله في خلق الطير إذ يقول :

« تَأَمَّلْ جسم الطائر وخلقته ، فإنه حين قدّر بأن يكون طائراً في الجوّ ، خُفِّف جسمه وأُدمج خلقه ، واقتُصر به من القوائم الأربع على اثنتين ، ومن الأصابع الخمس على أربع ، ومن مخرج البول والزبل على واحد يجمعهما جميعاً ، ثم خلق ذا جؤجؤ محدود ، ليسهل عليه اختراق الهواء كيف توجّه فيه ، كما يجعل صدر السفينة بهذه الهيئة ليشق الماء بسرعة ، وجُعل في جناحيه وذنبه ريشات طوال مِتان لينهض بها للطيران ، وكُسِيَ جسمه كله الريش ليتداخله الهواء فيحمله ... »[1] .

ثم يذكر تميّز بعض الطيور المائية بما يعينها على طلب قوتها في الماء فيقول :

« تأمّلْ هذا الطائر الطويل الساقين ، واعْرف المنفعة في طول ساقيه ، فإنه يرعى أكثر مرعاه في ضحضاح الماء ، فتراه يَركُزُ على ساقيه ، كأنه دست فوق مركب ، ويتأمل مادب في الماء ، فإذا رأى شيئاً من حاجته ، خطا خَطواً رفيقاً حتى يتناوله . ولو كان قصير

(١) المرجع السابق ، ص ٢٦٤

القائمتين للصق بطنه بالماء فيثيره ويذعر الصيد منه فيفر ... »[1] .

ويستمر يذكر آيات حكمة الله في الحيوان في عشرات الصفحات ...

٢ ـ ومن أساليب ابن القيم في بيان آيات الله الاستدلال ببيان مناسبة نموّ النبات وتكاثره للأهداف التي خلق لها كما قال :

« ثم تأمل هذا الرَّيْع[2] والنماء الذي وضعه الله في الزرع ، حتى صارت الحبة الواحدة ربما أنبتت سبعمائة حبة ؛ ولو أنبتت الحبة حبة واحدة مثلها ؛ لما كان في الغلة متسع لما يُرَدّ في الأرض من الحب ، وما يكفي الناس .. فصار الزرع يريع هذا الريع ليفي بما يُحتاج إليه للقوت والزراعة ، وكذلك ثمار الأشجار والنخيل ، وكذلك ما يخرج مع الأصل الواحد منها من الصنوان[3] ، ليكون لما يقطعه الناس ويستعملونه في مآربهم خلَفاً ، فلا تبطل المادة عليهم »[4] أي لا ينقرض هذا النوع من الثمر . وقد لاحظ ابن القيم تناسب هذا النمو الزراعي مع تكاثر الناس فقال : « فاقتضت حكمة اللّطيف الخبير أن

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٦٥

(٢) الرَّيع بالفتح مصدر راع يَريع (بوزن مال يميل مَيلاً) بمعنى نما . والرَّيع بالفتح أيضاً فضل كل شيء ، كريع العجين والدقيق والبَزر ونحوها : القاموس المحيط ٣٣/٣ (مرجع سابق) .

(٣) هما النخلتان ، فما زاد ، في أصل واحد كل واحد منهما صنو بالكسر (المرجع السابق) ٣٥٣/٤

(٤) مفتاح دار السعادة ، ص ٢٤٧ (مرجع سابق) .

أخرج من الحبة الواحدة حبات عديدة ليُقيت الخارجُ الناس ويدّخرون منه ما يزرعون »[1] .

٣ ـ ومن هذه الأساليب الاستدلال **بما أُلهِمت الطيور والحيوانات والحشرات من سلوك غريزيّ يحقّق أهدافاً بيولوجية**[2] ، لا يَعرِفْنَها ، كما قال ابن القيم في الطيور :

« وتأمل الحكمة في كون الطائر المرسل السائح في الجوّ ، يُلهَمُ صبر نفسه أسبوعاً أو أسبوعين ـ باختياره ـ قاعداً على بيضه ، حاضناً له ؛ ويحتمل مشقة الحبس ، ثم إذا خرج فراخه تحمّل مشقة الكسب وجمع الحب في حوصلته ، ويزقّ فراخه ، وليس بذي دِراية ولا فكرة في عاقبة أمره . ولا يؤمّل في فراخه ما يؤمل الإنسان في ولده من العون والرفد وبقاء الذكر ، فهذا من فِعْله يشهد بأنه معطوف على فراخه لِعلّةٍ لا يعلمها هو ، ولا يفكر فيها ؛ من دوام النسل وبقائه »[3] فسبحان من ألهمها هذا السلوك الغريزي وقدّره في طباعها وخَلْقِها ، ثم هداها إلى سبل تحقيقه كما قال جلّ جلاله : ﴿ سَبِّحِ اسمَ رَبِّكَ الأعلَى ، الذي خَلَقَ فَسَوَّى،والّذي قَدَّرَ فهَدى ﴾ [الأعلى ٨٧/١ـ٣] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٤٧

(٢) نسبة إلى (البيولوجيا) علم حياة النبات والحيوان .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٦٤

ومن ذلك تقدير رزق كل صنف من الطير والحيوان وتوزيعه ، كالعصافير ، « فلا هي تفقده ولا هي تجده مجموعاً معَدّاً ، بل تناله بالحركة والطلب في الجهات والنواحي ، فسبحان الذي قدره ويسره فلم يجعله متعذراً عليها إذا التمسته ، أو يفوتها إذا قعدت عنه ، ... ولو كان ماتقتات به يوجد مجموعاً معداً كله ، لكانت الطير تشاركها فيه ، وتغلبها عليه ، وكذلك لو وجدته مجموعاً مهيئاً ، لأكبت عليه بحرص ورغبة ، فلا تقلع عنه ، وإن شبعت ، حتى تبشم وتهلك ... فسبحان اللطيف الخبير الذي لم يخلق شيئاً سدى ولا عبثاً »[1] .

ومن ذلك الاستدلال بما جعل الله من أصناف الطير تقتات ليلاً بالحشرات الضارة ، فتعين الإنسان على تنظيف البيئة من هذه الحشرات قال ابن القيم :

« وانظر في هذه الطير التي لا تخرج إلاّ بالليل كالبوم ، والهام ، والخفاش ، فإنّ أقواتها هيئت لها في الجو ؛ لا من الحب ، ولا من اللحم ، بل من البعوض والفراش وأشباههما ، مما تَلقُطه من الجوّ ، فتأخذ منه بقدر الحاجة ، ثم تأوي إلى بيوتها ... إلى مثل ذلك الوقت بالليل ؛ وذلك أن هذه الضروب من البعوض والفراش وأشباهها مبثوثة في الجو ، لا يكاد يخلو منها موضع .. فجعل معاش هذه

(١) المرجع السابق ، ص ٢٦٦

الطيور التي تخرج بالليل من هذا الضرب من الفراش والجنادب والبعوض ... ولولا ذلك لانتشرت وكثرت ، حتى أضرت بالناس ومنعتهم القرار ..! فانظر إلى عجيب تقدير الله وتدبيره ، كيف اضطر العقول إلى أن شهدت بربوبيته ، وقدرته ، وعلمه ، وحكمته ، وإن ذلك الذي تشاهده ليس باتفاق ، ولا بإهمال ، بل هو من وجوه الأدلة التي لا تتمكن الفِطَر من جحدها أصلاً »[1] ، فهذه الأهداف التي تحققها الطيور ، لبقاء نسلها ، والتي يحققها بعضها لمصلحة الإنسان دون أن تعلم بها ، لا بدّ أن وراءها حكيماً خبيراً ألهمها وعلمها .

٤ ـ ومن أساليب ابن القيم في الدلالة على حكمة الله الاستدلال بالمقارنة بين إفرازات الجسم ، لبيان مناسبة كل منها للمنفعة التي خلق لتحقيقها كما قال فيما تفرزه الأذن ، وما تفرزه العين من الدمع ، وما يفرز الفم من الريق :

« .. ثم اقتضت حكمة الرب الخالق سبحانه أن جعل ماء الأذن مرّاً في غاية المرارة ، فلا يجاوزه الحيوان ، ولا يقطعه داخلاً إلى باطن الأذن ، بل إذا وصل إليه أعمل الحيلة في رجوعه . وجعل ماء العين مَلِحاً ليحفظها ... فكانت ملوحة مائها صيانة لها وحفظاً . وجعل ماء الفم عذباً حلواً ليدرك به طعوم الأشياء على ما هي عليه ؛ إذ لو

(١) المرجع السابق ، ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧

كان على غير هذه الصفة لأحالها إلى طبيعته ، كما أن من عرض لفمه المرارة استمر طعم الأشياء التي ليست بمرة كما قيل :

ومن يَـكُ ذا فمٍ مُرٍّ مريضٍ يَجِدْ مُرّاً به الماءَ الزلالا ! »[1]

فهذه كلها سوائل يفرزها الجسم ولكل سائل طعم وتركيب يؤدّي به المنفعة التي خلق لأدائها .

ومثل هذا الأسلوب ما هو ملحوظ في مقارنته جلَّ جلاله بين الزروع والثمار ، التي تتغذى من تربة واحدة وماء واحد وتختلف طعومها وفوائدها الغذائية كما قال تعالى : ﴿ وفي الأرض قطعٌ مُتَجاوِراتٌ ، وجَنّاتٌ مِن أعنابٍ ، وَزَرعٌ ، ونَخيلٌ صِنوانٌ وغير صنوانٍ ، يُسقى بماء واحدٍ ، ونفضّلُ بعضَها على بعضٍ في الأُكُل . إنّ في ذلكَ لآياتٍ لِقومٍ يَعقِلونَ ﴾ [الرعد ٤/١٣] .

وقد أشار ابن القيم إلى آية تفاضل النباتات هذه في معرض حديثه عن آية المطر حيث قال :

« ... ثم كيف أودعه في الأرض ، ثم أخرج به أنواع الأغذية والأدوية والأقوات ، فهذا النبات يغذّي ، وهذا يصلح الغذاء ، وهذا ينفذه (أي يوصله إلى الدم) وهذا يضعف ، وهذا سمّ قاتل ، وهذا

(١) المرجع السابق ، ص ٢٠٧

شفاء من السم ، وهذا يمرض وهذا دواء من المرض ، وهـذا يبرد وهـذا يسخن ، وهـذا إذا حصل في المعـدة قمع الصفراء من أعماق العروق ، وهذا إذا حصل فيها ولّد الصفراء واستحال إليها ، وهـذا يـدفع البلغم والسوداء ، وهـذا يستحيل إليهما ، وهـذا يهيج الـدم وهـذا يسكنـه ، وهـذا ينوّم وهـذا يمنع النوم ، وهـذا يفرح وهـذا يجلب الغم ، إلى غير ذلـك من عجـائب النبـاتـات ، التي لا تكاد تخلو ورقـة منـه ولا عرق ولا ثمرة من منافع تعجز العقول عن الإحاطة بها وتفصيلها »[1] .

فهذا بيان اختلاف النباتات في خصائصها الدوائيـة والعلاجيـة ، يقوم على المقارنة لبيان وجه الإعجاز الرباني القائم على أنه جلَّ جلاله يخرج المتضادات المتباينات في تأثيرها العلاجي ، من أصل واحد وماء وتراب واحـد . وعلم الأدويـة النبـاتيـة اليـوم يشهـد بمـا ذهب إليـه ابن القيم ويؤيد رأيه .

أما تفـاضل النبـاتـات في قيمتهـا الغـذائيـة وتـأثيرهـا على حيـاة الإنسان ، فلو عقلنا هذا التفاضل بين الأغذية النباتية لدلنا ذلـك على فَضْل الله وحكمته وعنايته بالإنسان ، ورحمته ، إذ جعل منها ما يدّخر فيغـذى الجسم البشري بـالسكريـات طـوال فصـل الشتـاء كالنخيـل والأعنـاب والقصب السّكري ، ومنهـا مـا هـو غني بـالحيـويـات (الفيتامينات) يعطي الإنسان نشاطاً وقـدرة على مقـاومـة كثير من

(١) المرجع السابق ، ص ٢٢١

الأمراض والنزلات التي تعتريه في فصل الشتاء ، كالليمون والبرتقال ، ومنها ماهو صبغ للآكلين كالزيتون ، يأكل الإنسان منه على مدى العام وفي كل الفصول ، ومنها ما يجف على سوقه كالحبوب وكالبقول فيموّن ويُدّخر لكل الفصول ، وبالجملة فإن توازن حياة الإنسان وتناول حاجات جسمه المختلفة : من حريرات ، ومرمّمات ، ومنشّطات ، ومحرّكات ، ومقاومات للأمراض و ... كل ذلك أودعه الله في مختلف النباتات المتمايزة ، المتفاضلة بما فضل الله بعضها على بعض في الأكل ، وفي سد حاجات الإنسان المختلفة ، فهذا علم النبات وهذا علم التغذية ؛ علمان قائمان مستقلاّن ، يشهدان بمئات الحقائق العلمية التي تشملها هذه الآية الكريمة ؛ وقد ختمت بقوله جلّ جلاله : ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ .

فهذه أربعة أساليب تربوية تمثل جانباً من التحليل التربوي للتربية بالآيات عند ابن القيم . أما الجانب الآخر فهو :

و ـ التحليل النفسي ـ التربوي :

تتأثر النفس الإنسانية وتتربّى بآيات الله الكونية ـ كما يعرضها ابن القيم ـ على النحو التالي :

١ ـ تربية العقل بالتأمل وبإثارة الانتباه والتفكير :

فقد استفتح ابن القيم كلاًّ من آيات الله ، التي عرضها ، بالمطالبة

بالنظر أو التأمل ، وصرح بأن الله عز وجل طالبنا بالتبصر والنظر والتأمل كما رأينا في مثل قوله تعالى : ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق ؟ ﴾ وقوله : ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ؟ ﴾ .

ثم قال مشيراً إلى هذا الأسلوب القرآني (أسلوب المطالبة بالنظر والتفكير لتربية العقل) : « وهذا كثير في القرآن ، يدعو العبد إلى النظر والفكر في مبدأ خلقه ووسطه وآخره .. »[١] فصرح بدعوة القرآن الإنسان إلى التفكر في جميع أطوار خلقه ..

واقتدى بالقرآن العظيم فطالب قُرّاءه بالنظر والتأمل ، كما في معظم الأمثلة التي أوردناها من كلامه ، كقوله :

« فانظر إلى النطفة بعين البصرة - وهي قطرة من ماء مهين .. - »[٢] .

وكقوله : « ثم انظر الحكمة البالغة في تركيب العظام .. وكيف قدرها ربّها وخالقها بتقادير مختلفة وأشكال مختلفة ... وكيف ركب بعضها في بعض ؟ »[٣] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٠٥

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٠٥

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٠٦

وتدل هذه الأمثلة على أنه يطلب منا التأمل والتبصر في أمور يحتاج تعليلها إلى جهد فكري ومحاكمة ، وإلى مناقشة قضايا برهانية لتدلنا على الهدف والنتيجة .

كما صرح في مقدمة كتابه الذي سار فيه على هذا الأسلوب القرآني بأن الغاية من هذا النظر والتبصر استخراج الدليل فقال : « فكان في ذلك أعظم دليل لهم على أنه ربهم ومليكهم ، وأنه الله الذي لا إله إلا هو ، وأنه العليم الحليم السميع البصير ، وأنه الإله الحق ، وكل ما سواه باطل ، فتظاهرت أدلة ربوبيته وتوحيده في الأرض وتنوعت ... »[1] .

فهاهي ذي التربية الفكرية قد أخذت حقها في هذا الأسلوب التربوي عند ابن القيم : من تربية للسمع والبصر على التأمل والانتباه ، وتربية للعقل والقلب على الاستدلال وطلب الحق ، والإقرار به عندما يعرفه ، بعد بذل الجهد بالتأمل والتبصر ، فلننظر بعد إلى أثر هذا الأسلوب في التربية الوجدانية .

٢ ـ تربية الوجدان والعواطف :

(أ) الحياة الوجدانية ومكانتها من العقل : تتألف الحياة الوجدانية عند الإنسان من ممارسة الانفعالات ، والشعور بالعواطف

---

(١) المرجع السابق ، ص ١١

والميول والرغبات ... وهي التي تعطي الإنسان اندفاعاً نحو الاستمرار والدأب في التفكير والتأمل للوصول إلى الحق ، ثم تدفعه إلى السلوك الذي يحقق النتائج التي توصّل إليها بالتفكير والتأمل ، لكن الحماسة إلى الحق تأتي تبعاً لإدراكه وتيقّنه . لذلك نجد كلام ابن القيم يدلّ على أن الانفعالات تأتي علامات على حصول العلم واليقين ، أو تكون تبعاً له ؛ كما قال في معرض حديثه عن مراتب اليقين :

« فهذا هو هجوم العلم بصاحبه على حقيقة الأمر ، .. وعلامة هذا : انشراح الصدر لمنازل الإيمان ، وانفساحه ، وطمأنينة القلب لأمر الله ، والإنابة إلى ذكر الله ، ومحبته ، والفرح بلقائه والتجافي عن دار الغرور .. »[1] .

فجعل هذه الظواهر الوجدانية : (من انشراح الصدر ، وطمأنينة القلب ، والإنابة ، ومحبة الله ، والفرح بلقائه) علامة على الوصول إلى أعلى مراتب اليقين ، إلى (حق اليقين) ، وفي مقابل ذلك نجد ابن القيم يجعل خضوع الناس لسلطان الحجة والعلم ، وخضوع نفوس أصحاب الباطل لسلطان الحق ، وشعورهم أمامه بالذل والقهر أمراً ملازماً لهم على رغم عنادهم كما يدل قوله : « .. بل سلطان العلم أعظم من سلطان اليد ، ولهذا ينقاد الناس للحجة ما لا ينقادون لليد ...

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٦٢

فالحجة تأسر القلب وتقوده ، وتذل المخالف ، وإن أظهر العناد والمخالفة ، فقلبه خاضع لها ذليل مقهور تحت سلطانها .. »[1] فسلطان العلم ، وإدلاء العقل بالحجة هو الذي يؤدي إلى خضوع القلب وذله وأسره وانقياده بالتالي إلى مضمون هذه الحجة ، ومقتضاها ... وقد صرح ابن القيم بتبعية الحب للعلم إذ قال :

« والمقصود أن الذي يهجم بالقلب على حقيقة الإيمان ، ويُلين له ما يستوعره غيره ، ويؤنسه بما يستوحش منه سواه : **العلم التام والحب الخالص . والحب تبع للعلم ، يقوى بقوته ، ويضعف بضعفه** ، والمحب لا يستوعر طريقاً توصله إلى محبوبه ، ولا يستوحش فيها »[2] .

(ب) تربية الوجدان بهذا الأسلوب : في الأمثلة الماضية وجدنا ابن القيم ، بأسلوبه في إقامة الحجة والبرهان على عظمة الله وحكمته ورحمته وعنايته بنا ، يثير خشوعنا وخضوعنا لخالق الإنسان والطير والأكوان ، كما يثير حبّنا وامتناننا وإنابتنا وإعجابنا ، عن طريق تأمل آثار رحمته وحكمته وقدرته جلّ جلاله ، يثير كل ذلك من الانفعالات ثم يأتي عليه بالدليل من القرآن الكريم يطالبنا فيه ربنا

---

(١) المرجع السابق ، ص ٦٤

(٢) المرجع السابق ، ص ١٦٣

بالصبر والشكر ونحو ذلك من الآثـار السلوكيـة الـدالّـة على خضوعنـا وخشـوعنـا لـه . قـال ابن القيم : « ... ثم انظر إلى عجـائب السفن وسيرها في البحر تشقه وتمخره بلا قائـد يقودهـا ولا سـائق يسوقهـا ، وإنما قائدها وسائقها الرياح التي يسخرها الله لإجرائهـا ، فـإذا حُبس عنها القائد ظلت راكدة على وجه الماء . قـال تعـالى : ﴿ ومن آيـاتـه الجوارِ في البحر كالأعـلام ، إن يشـأ يسكن الريـح ، فيظلَلْنَ رواكـد على ظهره إن في ذلـــك لآيـــات لكل صبـــار شكـور ﴾ [الشـورى ٣٢/٤٢] »[1] فنـوّه سبحـانـه بـالصبر والشكر وهمـا نتيجتـان للشعـور بـالخضـوع والخشـوع والامتنـان ونحـو ذلـك من الانفعـالات الربانية .

(جـ) أسلوب آخر : تربية الوجدان بإظهار عجز الإنسان :
ومن أساليب ابن القيم في إثارة الوجدان والخشوع والـدهشـة : **إظهار عجز الإنسان** أمام عظمة مخلوقات الله وآياته في الآفـاق ، كما في تفسير قوله تعالى :

﴿ إنَّ اللهَ فـالقُ الحبِّ والنَّـوَى ، يُخرج الحيَّ من الميتِ ، ومُخرجُ الميتِ من الحيّ ، ذلكمُ اللهُ فـأنّى تُؤفَكونَ ؟ فـالقُ الإصبـاحِ ، وجَعـل الليلَ سكَناً ، والشمسَ والقمرَ حُسبـانـاً ، ذلـك تقـدير العزيز العليم ،

(١) المرجع السابق ، ص ٢٢٣

وهو الـذي جعل لكم النجـوم لتهتـدوا بهـا في ظُلُمات البرِّ والبَحرِ ، قـد فَصّلنـا الآيـاتِ لِقَومٍ يَعْلَمـون ... وَهُـو الّـذي أنـزَلَ منَ السماء مـاءً ، فأخرجنا بهِ نباتَ كلِّ شيءٍ ، فأخْرَجْنـا مِنـهُ خَضِراً ، نُخرِجُ مِنـهُ حَبّـاً متراكباً ، ومِنَ النخلِ مِن طلعِها قِنوانٌ دانيةٌ ، وجنـاتٌ مِن أعنـابٍ . والـزيتـونَ والرمّـانَ مُشتَبِهـاً وغيرَ مُتشـابـهٍ . انظروا إلى ثَمَرِهِ إذا أثْمَرَ ويَنْعِهِ ﴾ [الأنعام ٦/٩٥ـ٩٩] .

قال ابن القيم بعد إيراد هذه الآيات ، مُظهراً عجز الإنسان أمـام عظمـة الله : « ولو أردنـا أن نستـوعب مـا في آيـات الله المشهـورة من العجائب والدلالات الشاهدة لله بأنـه الله الـذي لاإلّـه إلاّ هو ، الـذي ليس كمثله شيء ، وأنه الـذي لا أعظمَ منـه ، ولا أكملَ منـه ، ولا أبرّ ولا ألطف ـ لعجـزنـا نحن والأولـون والآخرون عن معرفـة أدنى من عشر معشار ذلك .. »[1] .

كذلك يشعرنا ابن القيم بنقص الإنسان وضعفه أمـام حسن تنظيم الكون فيثير في وجداننـا مشـاعر الإعجـاب بـالخـالق والـدهشـة أمـام مخلوقاته كما نستشعر من قوله :

« تأمل العبرة في وضع هـذا العـالم وتـأليف أجزائـه ونظمهـا على

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٢٤

أحسن نظام وأدلّه على كمال قدرة خالقه ، وكمال علمه ، وكمال حكمته ، وكمال لطفه .. »[1] .

ثم يقول مبيناً عجز كل ماسوى الله عن جعل الكون على هذا الصلاح والتنظيم والتناسق : « فـ ﴿ لو كانَ فيهما آلهةٌ إلاّ اللهُ لَفَسَدَتا فَسُبحانَ اللهِ ربِّ العرشِ عَمّا يَصِفونَ ﴾[2] ﴿ ما اتّخذ اللهُ مِن وَلَدٍ وَما كانَ مَعَه مِن إلَـهٍ ، إذاً لـذهب كل إلَـهٍ بما خلق ولَعَلا بعضُهُم على بَعضٍ سُبحانَ الله عما يَصِفونَ ، عالمُ الغَيبِ والشهادةِ ، فَتعالى عما يُشرِكونَ ﴾ [المؤمنون ٢٣/٩١-٩٢] فهذان برهانان يعجز الأولون والآخرون أن يقدحوا فيهما بقدح صحيح أو يأتوا بأحسن منهما »[3] . وهكذا بيّن سلطان الحجة الإلهية ، الآسر للقلوب ، في هذين البرهانين ، وعجز البشر عن القدح فيهما أو البرهان بأفضل منهما ، مما يوقظ الخشوع في القلب والانقياد والإعجاب بهذا الإعجاز القرآني والبرهان الرباني ...

(دَ) أما تربية الشعور بالخوف من الله ، فهو في كثير من الآيات الكونية ، نذكر منها آية خلق البحر وحبس مياهه عن أن تغرق الأرض ، كما أوضح ابن القيم ذلك بقوله : « وفي مسند الإمام

(١) المرجع السابق ، ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥
(٢) الأنبياء ٢١/٢٢
(٣) مفتاح دار السعادة ، ص ٢٢٥ (مرجع سابق) .

أحمد عن النبي ﷺ أنه قال : « مامن يوم إلا والبحر يستأذن ربه أن يغرق بني آدم » وهذا أحد الأقوال في قول الله عز وجل : ﴿ والبحر المسجور ﴾ أنه المحبوس ، حكاه ابن عطية وغيره ... وكذلك لولا أن الله يحبس البحر ويمسكه لفاض على الأرض . ثم ساق آية إرسال الريح تسوق السفن بقدرة الله : ﴿ إن يشأ يُسكن الريح فَيَظْلَلْن رواكد على ظهره ﴾ »[1] . فهذه آيات توقظ فينا انفعال الخوف من الله .

ثم يلخص عجائب البحر بقوله : « وبالجملة فعجائب البحر وآياته أعظم وأكثر من أن يحصيها إلا الله ﴿ إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية ، لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية ﴾ ... »[2] فيثير بذلك إعجابنا ودهشتنا ممزوجة بذلك الخوف .

فهذه الانفعالات التي ترافق الإيمان بالله يربيها ابن القيم بعرض آيات الله في الآفاق وفي أنفسنا : أقواها الخوف من الله يرافقه الإعجاب والدهشة من آثار حكمة الله وقدرته . ثم يرافقها انفعال الامتنان والعرفان بالجميل أمام آيات عناية الله ورحمته ، كما رأينا في آيات إنزال المطر وإنبات النبات وتنويعه لمصلحة الإنسان ، وتوفير رزق الطيور وغير ذلك كثير ...

(١، ٢) المرجع السابق ، ص ٢٢٣ ، والآية الأولى : الشورى ٤٢/٣٣ والثانية : الحاقة ٦٩/١١

(هـ) تكوّن الانفعال الديني من هذه الانفعالات : يرى بعض علماء النفس المعاصرين أن الانفعال الديني (انفعال التقديس) هو انفعال مركب ينشأ من عدة انفعالات فـ « إذا اختلط الخوف بهذا الإعجاب ، ظهر لنا انفعال آخر وهو الرهبة . وإذا اختلطت الرهبة بالعرفان بالجميل ظهر انفعال التقديس . ويسمى هذا الانفعال بالانفعال الديني ، الذي يدخل تحته انفعالات التعجب والخنوع والخوف والعرفان بالجميل .. »[1] .

وقد سبق ابن القيم إلى ذكر هذه الانفعالات أو أثرها في حصول الانفعال الديني كما رأينا . ففي ذكره لـ (عجائب السفن[☆] ... قائدها وسائقها الرياح) إشارة إلى انفعال التعجب ، وقد صرح بذكر انفعال الخنوع والذل لله حين قال مشيراً إلى أثر آيات الله في النفس :

« ومنها أنه سبحانه يستخرج بذلك من عبده تمام عبوديته ، فإن تمام العبودية هو بتكميل مقام الذل والانقياد ، وأكمل الناس عبودية أكملهم ذلاً لله .. »[2] .

وربما كان توضيح بعض هذه الانفعالات بآثارها أو أسبابها أبيّن

---

(١) أسس علم النفس : عبد العزيز القوصي ، ص ١٣٤ (مرجع سابق) .

(٢) مفتاح دار السعادة ، ص ٣١١ (مرجع سابق) .

(☆) المرجع السابق (مفتاح دار السعادة) ص ٢٢٣ وقد سبق هذا النص بكامله .

عند ابن القيم ، كما قال في وصف انفعال العرفان بالجميل : « فإن من أحسن إليك فقد استعبدك وصار قلبك معبّداً له .. لحاجته إليه على مدى الأنفاس في جلب كل ما ينفعه ، ودفع كل ما يضره .. »[1] فهذا توضيح لانفعال العرفان بالجميل بذكر أسبابه . أما توضيح بعض الانفعالات بآثارها السلوكية فيبدو فيما قال في وصف انفعال الخنوع والخضوع لله من خلال المقارنة بين متكبّر مستكثر على الله بالعبادة ، وخاضع متذلل لربه :

« فكم بين عبادةٍ يُدِلّ صاحبها على ربه بعبادته شامخاً بأنفه ... وبين عبادةٍ من كسر الذلُّ قلبه كل الكسر ، وأحرق ما فيه من الرعونات ... فقلبه واقف بين يدي ربه وقوف ناكس الرأس ، خاشع خاضع ، غاضّ البصر ، خاشع الصوت هادئ الحركات[2] .. » فهذه بعض الآثار السلوكية لهذا الانفعال ذكر ابن القيّم منها خفوت الصوت ، وتنكيس الرأس ، ومظاهر الخضوع لله : كغض البصر وهدوء الحركات ذلاًّ لله وخشوعاً لعظمته ...

وإنما يثير ابن القيم كل انفعال من هذه الانفعالات ، ليشعرنا بعظمة الله ووجوب تقديسه ، بل إخلاص العبودية والتضرع والتقديس له وحده جلَّ جلاله ، كما رأينا في مقدمته التي استنبطنا منها أهمية هذا الأسلوب وأهدافه .

(١،٢) المرجع السابق ، ص ٣١١

خاتمة :

.. وبعد فأرجو أن أكون قد قدّمت للقارئ الكريم نبذة عن أهم الآراء والاهتمامات التربوية ، للعالم الكبير ، الخبير بأمراض النفوس وشفائها ، وبنزوات الوجدان وعلاجها ، العالم بمراحل الطفولة وخصائصها ، وبأطوار حياة الإنسان وأحوالها ، وبتطور الأجنّة في بطون أمهاتها ، وبمراحل الطفولة وأساليب مراعاتها ، المتبصّر بأساليب مخاطبة العقول والنفوس ، على اختلاف درجاتها وأهوائها ، الإمام محمد بن أبي بكر شمس الدّين ابن قيم الجوزية ، مع دقة في إصدار الأحكام ، وصدق في المعلومات والأخبار ، واعتماد على مبادئ تربوية ثابتة ، وأسس إيديولوجية راسخة ، آخذاً في ذلك كله قبساً من نور الهداية الإلهية ، ومشكاة النبوة المحمدية ، باذلاً جهده في استنباط الأحكام والأساليب والمبادئ التربوية من هذين المصدرين الجليلين . ثم ممن سبقه من العلماء والأطباء والباحثين .

ولعلي أضع ، بهذا الجهد المتواضع ، لبنة في بناء صرح التربية الإسلامية ، للنهوض بأجيال هذه الأمة والله من وراء القصد .

ثبت بالمراجع مرتبة حسب أهميتها أو ورودها في الكتاب

اسم المؤلف	المرجع ومكان الطباعة
١ـ كلام الله الذي لا يأتيه الباطل	القرآن الكريم
٢ـ محمد بن إسماعيل البخاري	صحيح البخاري، بتحقيق د. مصطفى ديب البغا، الناشر دار ابن كثير ودار اليمامة، دمشق ـ بيروت
٣ـ إسماعيل بن كثير الدمشقي	البداية والنهاية (١٤ مجلداً)، الناشر دار الكتب العلمية، بيروت
٤ـ ابن حجر العسقلاني	الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، ط. حيدرآباد ١٩٤٥ـ١٩٥٠م
٥ـ النعيمي	تنبيه الطالب وإرشاد الدارس إلى أحوال القرآن والحديث والمدارس
٦ـ محمد أبو زهرة	ابن تيمية، حياته وعصره، ط. دار الفكر بدمشق
٧ـ د. صلاح الدين المنجد	أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب، ط. دار الكتاب الجديد، بيروت

٨ـ عبد الوهاب تاج الدين السبكي — معيد النعم ومبيد النقم، الناشر دار الكتاب العربي بمصر

٩ـ ابن جماعة — تذكرة السامع والمتكلم، في آداب العالم والمتعلم، ط. دار الكتب العلمية، بيروت

١٠ـ عبد الرحمن النحلاوي — الإصلاح التربوي من خلال الاتجاهات التربوية عند التاج السبكي، المكتب الإسلامي، بيروت

١١ـ عبد الرحمن النحلاوي — أعلام التربية في تاريخ الإسلام (١) ابن تيمية، دار الفكر دمشق ـ بيروت

١٢ـ عبد الرحمن النحلاوي — أعلام التربية في تاريخ الإسلام (٣) الإمام الذهبي، دار الفكر دمشق ـ بيروت

١٣ـ عبد الحي بن العماد الحنبلي — شذرات الذهب في أخبار من ذهب

١٤ـ يوسف بن تغري بردي — النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة

١٥ـ ابن قيم الجوزية — الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، ن. شركة الكتب العربية بمصر ١٣١٧ هـ

١٦ـ ابن قيم الجوزية — زاد المعاد في هدي خير العباد، ط. محمد علي صبيح بالقاهرة

١٧ـ ابن قيم الجوزية — مفتاح دار السعادة، الطبعة الثانية ١٣٥٨ هـ/ ١٩٣٩م، ط. مكتبة الأزهر بمصر

١٨ـ ابن قيم الجوزية — تحفة المودود بأحكام المولود، ط على نفقة حاكم قطر بالمطبعة الهندية بمباي ١٣٨٠ هـ/١٩٦١ م

١٩ـ ابن قيم الجوزية — الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، الناشر دار الندوة الجديدة، لبنان

٢٠ـ ابن قيم الجوزية — الروح، ط. دار الكتاب العربي، بيروت ١٤١٠ هـ/١٩٩٠ م

٢١ـ ابن قيم الجوزية — روضة المحبين ونزهة المشتاقين، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـ/١٩٨٧ م

٢٢ـ الفيروزابادي — القاموس المحيط

٢٣ـ ناصر الدين الألباني — صحيح الجامع الصغير، الناشر المكتب الإسلامي، بيروت

٢٤ـ مجد الدين بن أبي بكر الرازي — مختار الصحاح، من منشورات دار الحكمة بدمشق

٢٥ـ محمود ناظم النسيمي — الطب النبوي والعلم الحديث، ط. الشركة المتحدة للتوزيع بدمشق ١٤٠٤ هـ/١٩٨٤ م

٢٦ـ الإمام مالك بن أنس — موطأ الإمام مالك، رواية يحي بن يحي الليثي، مصورة دار الفكر

٢٧ـ الإمام أحمد بن حنبل — مسند الإمام أحمد، طبعة مصورة صادرة عن دار صادر، بيروت

٢٨- الإمام مسلم بن الحجاج | صحيح الإمام مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، مصورة دار الفكر، بيروت

٢٩- عبد العزيز القوصي | أسس علم النفس، الناشر: مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٠م

٣٠- آرثر غيتس ورفاقه | علم النفس التربوي، تعريب إبراهيم حافظ ورفاقه، ط. مكتبة النهضة العربية ١٩٥٤م

٣١- عبد العزيز عبد المجيد وصالح عبد العزيز | التربية وطرق التدريس، ط. دار المعارف بمصر، الطبعة الأولى

٣٢- جلال الدين السيوطي وجلال الدين المحلّي | تفسير الجلالين بهامش المصحف الشريف، ط. دار المعرفة، بيروت

٣٣- عبد العزيز القوصي | أسس الصحة النفسية للدكتور عبد العزيز القوصي، الطبعة الثالثة بمطبعة مصر (شركة مساهمة مصرية) ١٩٤٨م

٣٤- محمد بن عيسى الترمذي | سنن الترمذي، تحقيق عزة عبيد الدعاس، طبعة حمص ١٣٨٥هـ

٣٥- أحمد بن علي النسائي | سنن النسائي وبهامشه شرح السيوطي وحاشية السندي، مصورة بيروت عن المطبعة المصرية

٣٦ـ محمد بن عبد الله الحاكم	المستدرك، مصورة بيروت عن طبعة حيدر آباد ١٣٣٤ هـ
٣٧ـ محمد بن إسماعيل البخاري	(الأدب المفرد) مع شرحه (فضل الله الصمد في شرح الأدب المفرد)
٣٨ـ جود ديوي	الديمقراطية والتربية، ترجمة متّى عقراوي، زكريا ميخائيل، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٤٦م
٣٩ـ جلال الدين السيوطي	أسباب النزول بهامش المصحف بذيل تفسير الجلالين، ط. دار المعرفة، بيروت
٤٠ـ عبد الرحمن النحلاوي	من أساليب التربية الإسلامية: التربية بالآيات، ط. دار الفكر دمشق- بيروت

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم وإهداء	٥

الباب الأول

في ترجمة ابن القيم وعصره وعلمه واهتماماته التربوية

الموضوع	الصفحة
الفصل الأول : في ترجمته وبيئته	١١
١ ـ مولده ونشأته	١١
٢ ـ بيئته	١٣
الفصل الثاني : في شخصيته وإنتاجه ونضاله الفكري	٢٣
١ ـ شخصية ابن القيم	٢٣
٢ ـ إنتاجه العلمي	٢٥
٣ ـ نضاله الفكري والتهذيبي والتعبدي	٢٨
الفصل الثالث : الاهتمامات الفكرية والتربوية	٣٢

الباب الثاني

الاهتمام بالنسل والإنجاب وبالأجنة في الأرحام

الموضوع	الصفحة

الفصل الأول : اهتمام ابن القيم بالنسل والإنجاب	٤٠
١ ـ الحض على طلب الأولاد	٤٠
٢ ـ كراهة تسخّط البنات	٤٣
٣ ـ تحديد شخصية الطفل ومسؤوليته التربوية	٤٥
٤ ـ الأسس الأيديولوجية للتربية الإسلامية عند ابن القيم	٤٧
الفصل الثاني : تطور الجنين ونموه	٥٦
تمهيد : في منهج ابن القيم لدى دراسة أطوار الجنين	٥٦

الباب الثالث

في تربية الإنسان من المهد إلى اللحد

الفصل الأول : فترة الولادة وما يجب فيها من العناية الصحية بالمولود	٧١
الفصل الثاني : فترة مابعد الولادة : الاحتفاء بالمولود في أيامه الأولى	٧٨
الفصل الثالث : فترة الرضاع ومظاهر العناية بالرضيع	١٠٧
الفصل الرابع : مابعد الرضاع أو مرحلة بدء التمييز	١٢٦
الفصل الخامس : مرحلة التمييز	١٢٩
١ ـ تحديد وقته	١٢٩
٢ ـ الأساليب والأسس التربوية لهذه المرحلة	١٣٢
٣ ـ اعتبار هذه المرحلة بدءاً لسن التعليم	١٤٧
الفصل السادس : بلوغ السنة العاشرة من العمر وميزات هذه المرحلة	١٤٩

الموضوع	الصفحة

الفصل السابع : مرحلة المراهقة ومناهزة الأحلام ١٥٣

الفصل الثامن : البلوغ : تعريفه ـ وقته وعلاماته والمسؤولية المترتبة عليه ١٥٧

الفصل التاسع : بلوغ الأشد : معناه ودلالاته التربوية . ١٦٤

الفصل العاشر : مرحلة النقصان وضعف القوى : فترات الشيخوخة ١٦٧

الفصل الحادي عشر : مرحلة الانتقال إلى دار البقاء : ١٧١

١ ـ فترة انتهاء الحياة ١٧١

٢ ـ فترة البرزخ وعذاب القبر أو نعيمه ١٧٧

الفصل الثاني عشر : البعث والحساب ودلالته التربوية ١٨١

الباب الرابع

بعض مبادئ التربية عند ابن القيّم وأهم تطبيقاتها

الفصل الأول : مبادئ التربية الإصلاحية والعلاجية ١٩٥

الفصل الثاني : أهم مبادئ التربية العقلية عند ابن القيّم ٢٥٨

المبدأ الأول : ترتّب النتائج على الشروط المؤدية إليها ٢٥٨

المبدأ الثاني : مبدأ السببية : تعريفه والرد على منكريه ٢٧٩

المبدأ الثالث : إقامة البحث واقتباس المعرفة على الوحي الصادق والمشاهدة والاستقراء ٢٨٤

الموضوع **الصفحة**

الباب الخامس

من أساليب التربية عند ابن القيّم

١ ـ أسلوب الحوار والمراسلة ٢٩٥

٢ ـ أسلوب التنسيق والتبويب والتصنيف على أساس معقول ٢٩٨

٣ ـ أسلوب التربية بآيات الله في الآفاق وفي أنفسنا ٣٠٦

خاتمة ٣٤٢

ثبت بالمراجع مرتبة حسب أهميتها وورودها في الكتاب ٣٤٣

الفهرس ٣٤٧

هذا الكتاب هو الحلقة الرابعة في سلسلة أعلام التربية التي قصدنا من ورائها أن « تجلي الأفكار التربوية المغمورة لعدد من أعلام الفكر الإسلامي » والتي تفوق الكثير « من مبادئ التربية المعاصرة في الشمول والمرونة والتطبيق » .

وحلقتنا الرابعة هذه عن الآراء التربوية لدى (ابن قيم الجوزية) الذي اختص بنهج تربوي يقوم على معالجة النفوس ، عن طريق التعريف بالداء والدواء ، وأسلوب المعالجة ، ومبادئ العلاج النفسي ، أو الوقاية من الأزمات والأمراض النفسية قبل وقوعها . واهتم بالطفولة والنمو ، وبجميع مراحل تطور الإنسان قبل الولادة وبعد مفارقة الحياة ، وما بينهما من أطوار . كما اهتم بتربية الغرائز والعواطف وعلاج ما يعتريها من ثورات الهوى وعشق الشباب .

